

الجمهورية العربية السورية
وزارة الثقافة

ناتج معرفة النعمان

تأليف
محمد سليم الجبدي

الجزء الأول

حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ وَوَضَعَ فِهْرَسَهُ

عمر رضا كحالة

الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ

الطبعة الثانية



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٤

تاريخ معرة النعمان
الجزء الأول

سلسلة بلادنا

« ٥ »

تاريخ معرة النعمان / تأليف محمد سليم الجندي؛ حققه وعلق عليه
ووضع فهرسه عمر رضا كحالة، ط٢ - دمشق: وزارة الثقافة،
١٩٩٤ - ٣ مج في ٢؛ ٢٤ سم - (سلسلة بلادنا؛ ٥).

صدرت الطبعة الأولى ١٩٦٣

١ - ٩٥٦١٣١	ج ن د ت	٢ - ٩٢٠	ع ج ن د ت
٣ - العنوان	٤ - الجندي	٥ - كحالة	٦ - السلسلة
مكتبة الأسد			

الايداع القانوني: ع - ١٢٥١ / ١١ / ١٩٩٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المحقق

عهدت اليّ وزارة الثقافة والارشاد القومي السورية ، في ٩ كانون الأول ١٩٦٢ م ، بمراجعة مخطوطة تاريخ معرة النعمان للاستاذ المرحوم محمد سليم الجندي ، واستدراك ما فيها من نقص ، وتكملة المعلومات والاحصاءات التي ذكرها المؤلف ، وقد تجاوزها الزمن ، وحذف ما ينبغي الاستغناء عنه .

وقبل أن أشرع في تحقيق التاريخ المذكور ، رأيت من الواجب علي أن أرحل الى معرة النعمان للتعرف على معالمها ، واستطلاع أحوالها ، فقدمت اليها ، ورغبت الى مدير منطقتها الدكتور أكرم الخسائي ، أن يمد اليّ يد العون في تقديم المعلومات والاحصاءات اللازمة للمؤلف المذكور ، فلبى طلبي ، وكتب الى الدوائر ذات العلاقة بجمع المعلومات المقترحة وارسالها اليه .

وقد رافقني في هذه الرحلة السيد فائز السراج ، احد موظفي المركز الثقافي بحماة ، لتصوير بعض معالم المعرة ، وكان مرشدنا في تلك الجولة السيد ناصر الجندي احد مساعدي المرحوم المؤلف في بحثه عن المعرة .

ولما عدت الى دمشق بحثت في العمل الموكل اليّ ، وشرعت افكر في ترتيب الكتاب وتنسيقه ، وظللت مدة افكر في تغيير ترتيب المؤلف وتعديله وحذف مواد واثبات مواد اخرى ، وبعد البحث الدقيق والتفكير العميق رجحت أن اترك التاريخ المذكور على حاله ، وان اضيف اليه ما استجد من معلومات واحصاءات ، وعلق عليه تعليقات توضح الغامض منه ، وتعين القارئ على فهم مضمونه ، فضبطت كثيراً من الأعلام التاريخية والجغرافية ، وفسرت بعض الألفاظ والمصطلحات التاريخية ، المستعملة في بعض الأزمنة الغابرة ، وقد أشرت برمز (ج) الى تعليقات المؤلف ، وسأتبع ان شاء الله بهذا التاريخ فهرساً مفصلاً يكشف للباحث ما يتغنيه بدون عناء ونصب .

أما المؤلف رحمه الله فقد عرفته في سنة ١٩٣٠ م ، حيث قدمني اليه الاستاذ المرحوم محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي

العربي بدمشق ، على طريقته في تشجيع الشادين ، فرد عليه المؤلف بكلمات تكشف عن نفس لا تؤمن بما يقال لها الا بعد التأكد من صحة القول .

وتلك ظاهرة لمستها في تأليفه ، حيث ينقل أقوالاً كثيرة في الموضوع الذي يعالجه ، ثم ينتهي به المطاف الى الشك بكل ما قيل فيه .

ومن أبرز صفات المؤلف انه شديد التمسك بدينه وقوميته مما جعله أحياناً يقسو على بعض الجماعات أو الأفراد ، فينعتهم بنعوت غير مستحبة ، وهي لا تزال بحاجة الى مزيد من البحث والتمحيص .

وأما مؤلفه تاريخ معرة النعمان، فيضم بين جانبيه ابحاثاً متعددة ومتنوعة ، يمكنني أن اوجزها بما يأتي : تعريف معنى المعرة اللغوي والعرفي ، ذكر المعرة في شعر ابنائها وفي نثرهم ، المعرة في القديم ، المعرة بعد جلاء الأتراك عنها ، لغة المعرة وحياتها الدينية والاجتماعية ، خصائص المعريين ، سورية والفرنسيون ، طول المعرة وعرضها وارتفاعها عن سطح البحر

والطرق المارة بها ، عدد نفوس المدينة وما الحق بها ، حكومة
المعرة ومقرها ، المكاتب والمدارس والزوايا والمساجد في المعرة ،
بناء ضريح أبي العلاء الجديد والمهرجان الألفي لأبي العلاء ،
الخانات والحمامات والمقاهي والأسواق والدكاكين والدور والمساكن
والمعاصر في المعرة ، المياه التي هي خارج المعرة ، أودية المعرة
وتلاها ، القباب ومحلات مدينة المعرة وأماكنها المشهورة ،
الحصون بالمعرة وضواحيها ، عادات أهل المعرة في الولادة
والزواج والوفاة وغير ذلك ، القرى والمزارع التابعة للمعرة
ومقدار ما في كل منها من النفوس مرتبة على حروف المعجم ،
ويوت المعرة وأسرها المعروفة في القديم والحديث وأعلامها
المشهورين من علماء وقراء ومحدثين وشعراء وكتّاب وأدباء وأمراء
وزراء وعمل في الحكومة وتجار وغيرهم .

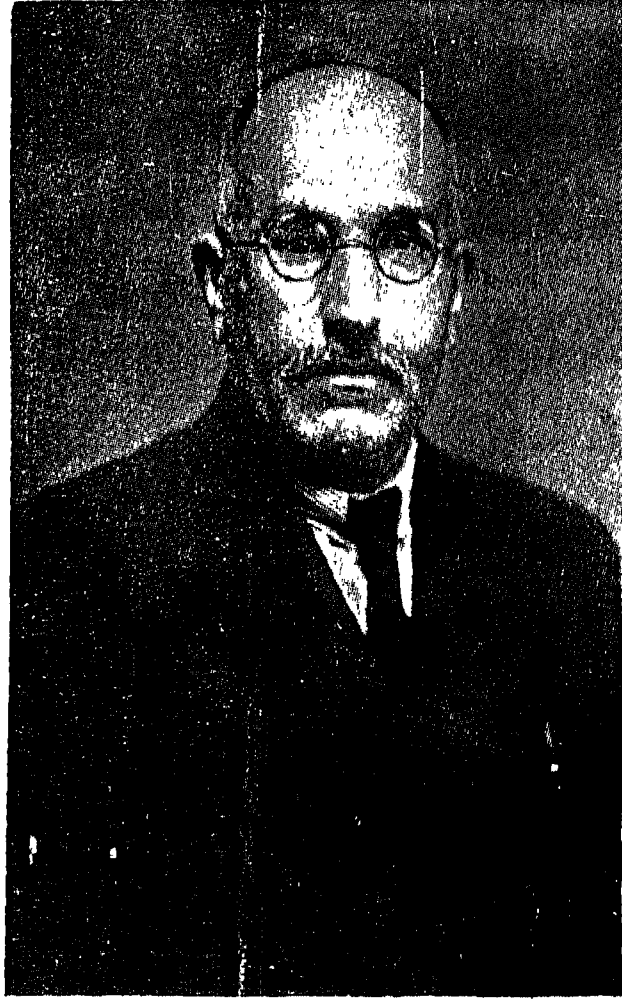
هذا مجمل ما في الكتاب من أبحاث قيمة ، تحتاج إلى جهد
كبير وعمل متواصل لمعرفة مصادرها ، وهي غالباً متفرقة ومشتتة
في عدة كتب مختلفة المواضيع والمباحث ، لا يقوى على جمعها
وتنسيقها إلا من أوتي صبر المؤلف وسعة اطلاعه وتضلعه في
العلوم العربية والإسلامية .

اضف الى ذلك حبه العظيم لبلده المعرة واعلامها الأفذاذ
وعلى رأسهم أبو العلاء ، كل ذلك ذلل له العقبات الكأداء التي
كانت تعترضه ، ومهد له السبيل لأن يؤلف هذا التاريخ القيم
الذي سيبقى خير شاهد بفضله وسعة علمه ودقة بحثه ، تغمده
الله برحمته وجازاه خير جزاء ، على ما قدم للعرب والاسلام
من خدمات جلى في التعليم والتأليف ، وعوض الله امته رجالاً
يسرون على هديه ويقتفون اثره .

ولا بد لي قبل ان اختتم كلمتي هذه من أن اتقدم بالشكر
الجزيل لوزارة الثقافة والارشاد القومي السورية ، على ما بذلت
من جهد لنشر هذا المؤلف الجليل ، كما أخص بالشكر
الاستاذ عدنان الدرويش أحد موظفيها على مساعدتي بتصحيح
شطر وافر من الجزء الأول من الكتاب ، والدكتور اكرم الخاني
على ما قدمه لي من معلومات واحصاءات ، والسيد عبد العزيز
دقماق وناصر الجندي على ما بذلا من جهد لمساعدتي في مهمتي
وسدد الله خطانا وهدانا سواء السبيل .

عمر رضا كمانه

دمشق في { ١٣ ربيع الأول ١٣٨٣ هـ
٣ آب ١٩٦٣ م



المؤلف

ترجمة المؤلف بهتله

ولدت في معرة النعمان في دارنا ، وهي أول دار تقع شمالي السوق والجامع الكبير ، وذلك في ليلة الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ١٢٩٨ هـ . وكان والدي رحمه الله يتدارس القرآن مع شيخه الشيخ صالح بن رمضان ، وجماعة من رفاقه في غرفة الجامع الكبير ، الملاصقة للمنارة من الشرق ، بعد صلاة التراويح ، فيقرون جزءاً في كل ليلة من رمضان في كل سنة . وكانت نوبته في القراءة تلك الليلة ، فبينما هو يقرأ قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سَاحِرٌ مَبِينٌ ^(١)) . دخل عليه ابن عمنا سعد بن أحمد الجندي ، فقال له : ابشرك بغلام ولد لك الآن ، يعني إياي ، فأشار عليه الحاضرون أن يسميني أحمد لهذا الاتفاق ، فقال لهم : إني

(١) سورة الصف الآية ٦ .

قطعت على نفسي عهداً إذا ولد لي غلام أن أسميه باسم أبي ،
والقبه بلقبه ، فسماني محمداً ، ولقبني بسليم كإبيه .

وأما نسي من قبل أبي فأنا محمد سليم بن محمد تقي الدين
ابن محمد سليم الجندي مفتي معرة النعمان ابن محمد الجندي مفتي
معرة النعمان وحمص ، وقد سبق أن نسبنا يتصل بالعباس بن
عبد المطلب عم النبي (ص) .

وأما نسي من قبل أُمي فوالدي نظيرة بنت شريف بن محمد
الحجي من بني السيد يوسف . وقد سبق أن نسبه يتصل بالعباس
ابن عبد المطلب أيضاً .

وقد نشأت في حجر والدي حتى بلغت السابعة من العمر
فوضعني عند الشيخ أحمد من بني ادريس المعري ، وكان شيخاً
صالحاً تقياً ، حائكاً قرأه ، فعلمني أكثر القرآن الكريم ، وكان
دكانه أول دكان على يسار الداخل إلى السوق من الشمال ، غربي
منارة الجامع الكبير ، ثم خرج الشيخ إلى بعض القرى لمزاولة
أعماله ، فنقلني والدي ، ووضعني عند رجل من التجار يقال له :
الحاج قسوم . . من أهل المعرة ، وكان شيخاً صالحاً ، وتاجراً
تقياً ، فاتممت القرآن عليه .

وفي سنة ١٣١٠ هـ دخلت مكتب الحكومة ، وكان يقال له :
المكتب الرشدي ، ومحلّه مسجد الشيخ عطا ^(١) . وكان فيه
أربعة صفوف ، يجتازها الطالب في أربع سنوات ، وكانت
الدروس في السنوات كلها قليلة سهلة ، وهي كتاب الأمثلة
والبناء في الصرف والعوامل في النحو ، وترجمان فيه كلمات
محدودة من العربية وما يرادفها من اللغة التركية ، وآخر فيه
كلمات عربية ومرادفها من الفارسية ، وكتاب علم الحال ،
ودريكتا باللغة التركية ، ونصيحة حكماء ، وكستان بالفارسية ،
وكنا نحفظ أكثر الألفاظ من غير أن نفقه معانيها ، فتسنى لي
أن أجتاز الصفوف الأربعة في سنتين ، واخذ الشهادة من
المكتب في المحرم سنة ١٣١٢ هـ .

وكان مدير هذا المكتب شيخاً تركياً من ديوريكي من عمل
اطنه ، فأقام في المعرة نحواً من ثلاثين سنة ، واستعرب ، وتزوج
امراً من غير المعرة ، وولد له بنون وبنات في المعرة ، ثم
فارقها إلى غيرها .

وكان يقرئ الطلاب الذين يتمون الدراسة في المكتب

(١) انظر تاريخ المعرة ١ : ٣٥٢ - ٣٥٤ .

المذكور ، وجماعة غيرهم في المكتب نفسه ، ويعنى بهؤلاء بقدر ما كان يتهاون بأولئك ، ولذلك لم يتعلم أكثر المتخرجين به في المكتب غير الخط ، وهو غير جيد أيضاً .

وقد قرأت عليه بعد خروجي من المكتب شرح العوامل والاظهار للبركوي ، وكتاب الرحية في الفرائض ، ورسالة في الربع المجيب .

ثم تفرغت للدراسة في المسجد الكبير في المعرة ، فقرأت على الشيخ صالح بن رمضان بعض دروس من الاجرومية ، ثم قطع القراءة ، وعهد بها إلى ابنه محمد صالح بن الشيخ صالح فقرأت عليه كتاب شرح الغاية للخطيب الشريني في الفقه الشافعي ، وحضرت دروساً في النحو .

وقرأت القرآن والتجويد على الشيخ حسن بن أحمد المطر المعري ، وكان رفيقاً لي في الدراسة ، وقرأت أيضاً على شيخه الشيخ عبده من بني الشحنة المعري ، وكان شيخاً جليلاً فقيهاً فقيراً عفيفاً ، صائم الدهر ناسكاً ، وكان يعلم الصبيان في الزاوية الداودية في المعرة ، وهو أعلم أهل بلده بالقراءة وقتئذ .

وقد أمرني والدي أن استظهر سوراً وآيات معينة من القرآن الكريم ، فاستظهرت طائفة منه مثل سورة الكهف ومريم وطه والسجدة والدخان والواقعة ونوح والدرج وجزء عمّ كله وغير ذلك .

وحفظت متن العوامل والاضمار للبركوي ، والكافية لابن الحاجب ، والفيّة ابن مالك في النحو ، ومتن إيساغوجي والسلم في المنطق ، ومتن الرحبية في الفرائض ، ومتن الجوهرة والأمال في التوحيد والعقائد ، ومتن الزبد في الفقه الشافعي . وكان شيخنا محمد صالح كأبيه يقرأ الدروس في الجامع الكبير ، وقرأ مرة في المدرسة التي تقدم ذكرها . وكان والدي كلما ظفر بقطعة جيدة من الشعر كتبها ، وحضني على حفظها ، وقد ولعت بشعر أبي العلاء المعري منذ حداثة سني ، وحفظت شيئاً كثيراً ، وكنت في عهد الحداثة والشباب سريع الحفظ ، ما سمعت بيتاً أو بيتين من الشعر الجيد إلا ورسخا في حافظتي . وقد تخرجت بالشعر والأدب واللغة بما درسته وحفظته من شعر أبي العلاء وغيره ، ثم ابتدأت بقرض الشعر في نحو

الثالثة عشرة من سني ، وظللت أنسج على هذا المنوال ، واحتدي على هذا المثال ، إلى أن كتب الله عليّ مفارقة الوطن ، ومن فيه من الأقارب والاخوان والاختدان .

وفي أخريات جمادى الاولى من سنة ١٣١٩ هـ هاجرت مع والدي إلى دِمَشْق ، ووضعت فيها عصي الحاضر المتخيم ، وأقمت في دارنا في محلة الشالة في سوق صاروجا ^(١) ، فقرأت على جماعة من علمائها الاعلام ، وعاشت طائفة من فضلائها وأدبائها وكتّابها وشعرائها وأعيانها وذوي الظرف فيها .

وقد وجدت الرغبة فيها ضعيفة في الفقه الشافعي ، لأن الفتوى كانت وقتئذ على مذهب الامام أبي حنيفة ، فكان الناس يرغبون في التفقه على مذهبه ليكون ما يتعلمونه موافقاً لما يحكم به القضاة ويفتي به المفتون .

فاتنقلت من تقليد الامام الشافعي إلى تقليد الامام أبي حنيفة وشرعت في التفقه على مذهبه على جهابذة العلم في دمشق . منهم استاذي العلامة الفقيه الشيخ محمد شكري بن راعب

(١) وأصل ذلك محلة الجالقي في سويقة صاروجا ولكن العامة حرقها (ج) .

ابن صالح الاسطواني الدمشقي المولود سنة ١٢٩٠ هـ ، وقد كان أميناً للفتوى في دمشق قبل ذلك الحين ، وبقي فيها إلى سنة ١٣٥٧ هـ ، فجعل وكيلاً للمفتي بعد وفاة المفتي الشيخ عطا الكسم ، ثم عين مفتياً عاماً للجمهورية السورية . وقد قرأت عليه كتاب مجمع الأنهر شرح ملتقى الأبحر في الفقه ، وشرح السراجية في الفرائض ، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك في النحو وكان يقرأ الدروس في المدرسة الشَّيْخِيَّة بجانب الجامع الأموي من الشمال ، وقد قرأ على جماعة من الأعلام منهم الشيخ محمد بن حسن البيطار تلميذ ابن عابدين المتوفى سنة ١٣١٠ هـ ، ومنهم الشيخ محمد المنيني مفتي دمشق المتوفى سنة ١٣١٦ هـ ، وقرأ العلوم الآلية على الشيخ بكري العطار المتوفى سنة ١٣٢١ هـ . .

وقرأت على الشيخ عبد القادر بَدْران الدوماني الأصل الدمشقي المنشأ والوفاة ، وقد قرأت عليه كتاب التلويح شرح التوضيح في الأصول لسعد الدين التفتازاني ، وشرح المختصر في علم المعاني والبيان والبديع لسعد الدين أيضاً ، وشرح شيخ

الاسلام على الحزرجية في العروض والقوافي ، وكان يقرأ في
المدرسة الشمينسية .

وقرأت على استاذي العلامة الشيخ عطا الله الكسم الدمشقي
مفتي دمشق السابق ذكره ، وقد كان أكثر الناس حفظاً لفروع
المذهب الحنفي . قرأت عليه الدر المختار شرح تنوير الأبصار
في الفقه الحنفي مع أكثر حاشيته ، رد المحتار ، وشرح المرأة
للزاميري في الأصول . وحضرت دروساً كثيرة في النحو والمنطق
كالفناري على إيساغوجي ، وشرح القطب على الشمسية ، وكان
يقرأ في داره في زقاق النارنجة في العقيبة ، ثم في داره عند
الجامع الأموي ، وأحياناً في الجامع نفسه .

وقرأت على الاستاذ الفاضل الشيخ حسين ابن الشاش
الدمشقي ، وكان مكيناً في العلوم الآلية ، قرأت عليه رسالة
السمرقندي في البيان ، وإيساغوجي في المنطق ، وكان يقرأ في
مدرسة نور الدين الشهيد في غرفة مختصة به .

وقرأت على استاذي العلامة المحقق شيخ المحدثين في عصره
الشيخ بدر الدين الحسني الجزائري الاصل الدمشقي المولد

والمنشأ والوفاة ، حضرت عليه قسماً كبيراً من كتاب التحبير
والتقرير لابن امير الحاج شرح التحرير لابن الهمام في الاصول ،
وجميع شرح جلال الدين المحلي على جمع الجوامع للسبكي
في الاصول ، وكتاب المسامرة لابن ابي شريف شرح المسامرة
لابن الهمام في التوحيد ، وشرح السنوسية الكبرى في التوحيد
ومعظم العقائد النسفية ، والتدريب شرح التقريب للسيوطي
في مصطلح الحديث ، وشرح المقولات العشر ، ورسالة في آداب
البحث ، وشرح العصام على رسالة العضد في الوضع ، وكان
يقرأ الدروس في مدرسة دار الحديث في دمشق في الغرفة
الملاصقة للإيوان من الجهة الشرقية في الطبقة الثانية .

وقرأت شيئاً من شرح المنار على الشيخ بهاء الدين الافغاني
وكان بعض رفاقي في الطلب يشاركني أولاً في مطالعة الدروس
واعادها قبل قراءتها على الاستاذ ، ثم رغب فريق منهم أن
يعيد قراءتها عليّ بعد الدرس ، فلييت طلبه ، ثم طلب فريق
آخر أن أقرأ عليهم الدرس قبل حضور درس الاستاذ ،
فأسعفت طلبه ، ثم كلفني فريق من الطلبة أن أقرئهم دروساً
في الصرف والنحو والمنطق ففعلت .

فلما اعلن الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ هـ كلف طلاب العلم الذين كانوا يعفون من الخدمة العسكرية لأجل العلم ، أن يؤدوا فصلاً في النحو والمنطق حسب النظام العسكري ، فاضطرني جماعة منهم إلى أن أقرئهم شرح الفناري على إيساغوجي ، والقطب على الشمسية في المنطق ، والكافية في النحو ، فكنت ابتداءً في الدروس في داري المذكورة قبلاً ، منذ طلوع الشمس إلى الظهر ، ومن بعد صلاة العصر إلى قرب نصف الليل . ثم طلب جماعة أن يقرأوا علوم البيان فلبيتهم ، وظللت على هذه الحال إلى اليوم الثاني من صفر سنة ١٣٣٢ هـ ، فتوفي والدي رحمه الله ، وترك ثلاثة بنين وخمس بنات ، فاشتغلت بأمورهم ، وتعهد ما خلف لي ولهم من عقار ، وأصابني علة الديزانتري مدة أشهر ، ثم اعلنت الحرب العامة في تلك السنة فأنصرفت عن التعلم والتعليم إلى مدافعة المصائب ، وتهئية ما فرضته الحكومة من المظالم والضرائب ، بأسماء مختلفة ، ما بين بدل عسكرية ، واعانة للأسطول ، واعانة للجمعية الهلال ، واعانة لغزة ، وضريبة جبرية باسم اعانة اختيارية ، واعاشة ، وما شاكل

ذلك من ضروب المظالم . واستولت على أكثر عقارنا فشغلته
بغير أجر ولا شكر ، وهدمت بعضاً منه لتوسيع الطرق ،
وعبثت بالأسعار حتى كاد أكثر الناس يموت جوعاً ، إلا من
عرف كيف يرضي الحكام والقواد .

وظللت أكابد هذه المشاق حتى وضعت الحرب أوزارها ، بعد
أن استولى جيش الإنكليز والعرب على دمشق في أيلول سنة ١٩١٨م ،
وألّفوا حكومة عسكرية يرأسها حاكم عسكري ، وقد ولي ذلك رضا
باشا الركابي الدمشقي ، وكان الأمير فيصل يشرف على أعمال الحكومة
فألّف الحاكم العسكري ديواناً للرسائل فدعيت إليه ، ووظفت
منشئاً أول فيه براتب قدره اثنا عشر ديناراً ذهباً ، ثم بعد
بضعة أشهر جعل الحاكم دمشق ولاية ، وحلب ولاية ، فوظفت
بميراً في ديوان الرسائل في الولاية براتب خمسة عشر ديناراً ،
ثم ان فيصلاً الغي تشكيل الولاية وألّف مجلس مديرين ،
وجعل مديراً للماخلية ، وآخر للمالية ، وللعديلة ، وللحرية .
وكان أخوه زيد يرأس هذا المجلس ، وجعل رجلاً يقال له :
رشيد طليع مديراً للماخلية ، فوظفت منشئاً أول فيها ، ثم

مميزاً بعد أن احدثت هذه الوظيفة ، وكان فوزي الغزي مديراً لديوان الرسائل ، ثم لما بويع فيصل وصار ملكاً على دولة سورية ألف مجلس وزراء ، وجعل رضا الصلح وزيراً للداخلية وبقي فوزي الغزي مديراً للرسائل ، وبقيت مميزاً في ديوانها . فلما استولى الفرنسيون على دولة سورية تغيرت الوزراء ، ثم جعل حاكم لدمشق يرأس الوزراء ، وجعل عطا الايوبي وزيراً للداخلية ، وبقيت في وظيفتي ، فلما نقوموا على فوزي الغزي جعلوه قائم مقام في تدمر ، فاستقال منها ، فعهد إلي بالوكالة عن مدير الرسائل فوق وظيفتي ، ولكن الفرنسيين غيروا اسمها مراراً ، فتارة كان اسمها مميزاً ، وثانية رئيساً لكتاب الديوان ، وثالثة معاوناً لرئيس الكتاب . .

ثم ألغيت وزارة الداخلية لاجراج الوزير منها ، لأن الحاكم كان غير راض عنه ، وبعض موظفيها ، فالحقوا بديوان الحاكم ، وكان هذا الديوان يتألف من قسمين عربي وفرنسي ، ويسمى قسم الترجمة ، فجعلت رئيساً لكتاب القسم العربي إلى اليوم السابع من شباط سنة ١٩٢٤ م .

ثم جعلت استاذاً للأدب العربي في مدرسة تجهيز الذكور في دمشق ، وبقيت إلى سنة ١٩٤٠ م ، فأحلت على التقاعد بلوغي سن الستين ، ولكن مدير المعارف اتخذ قراراً بتمديد مدتي سنة تنتهي في آخر ايلول سنة ١٩٤٠ م ، ولما انتهت هذه المدة رغب إليّ أن أقبل بتمديدها سنة أخرى ، فاعتذرت له بضخف جسيمي ، وانصراف نفسي عن مزاولة كل عمل إلى التماس الراحة من البطالة .

وفي ١٦ ايلول سنة ١٩٢٢ م انتخبت عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق .

وفي خلال أيامي السابقة ، وظفت استاذاً للأدب في مدرسة اللايك سنوات عديدة ، وفي مدرسة جمعية العلماء مدة سنتين . ووظفت استاذاً للدروس العربية في كلية الآداب التي أحدثتها الحكومة في دمشق سنة ١٩٣٠ م إلى أن أغلقتها ، وكنت أقرأ فيها دروس القواعد العربية والبلاغة والخطابة خمس ساعات في كل أسبوع ، وكان بعض الطلاب يقرأ عليّ دروساً خاصة في داري .

ثم عينت ناظراً للكلية الشرعية في دمشق سنة ١٩٤٢ م ،
ثم مديراً للكلية من سنة ١٩٤٤ م ، ثم استقلت منها طلباً
للراحة سنة ١٩٤٨ م .

و كنت في جميع هذه الأطوار التي قطعتها في حياتي شديد
التواضع ، لين الجانب ، انهج المنهج الذي سلكه معاوية (ض)
لو كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعتها ، وربما زدت عليه
حتى لو كان بيني وبين الناس شق شعرة ما قطعتها ، وكنت
شديد الخشية من الله ، مواظباً على الفرائض والواجبات الدينية
شديد الغيرة على مصلحة الاسلام والعرب ، وكل وطن اسلامي .
ولم أقترف شيئاً من المنكرات في جميع حياتي ، الا اللعب
بالنرد ، وشرب الدخان ، وكنت ولم أزل أقنع باليسير ، وأشكر
على القليل والكثير ، وأرضى من الوفاء باللقاء ، ولم ابذل ماء
وجهي قط لأحد ، لأنني أقابل الحسنة بمثلها ان عجزت عن
ضعفها ، واحتمل السيئة وأغضي عن الهفوة ما وجدت إلى
ذلك سبيلاً .

ولا أعرف لأحد علي فضلاً إلا قابله بمثله ، لأن الله

جل جلاله لم يحوجني إلى غيره في شيء ، ما خلا أساتذتي الذين تقدم ذكرهم ، فانهم علموني وهذبوني وأرشدوني لوجه الله ، من غير أن ينالوا مني أجراً ولا جزاء ، فجزاهم الله عني أحسن ما جازى به محسناً عن احسانه ، وقد احتذيت على مثالهم ، فعلمت مثات من الناس ، ولم أنل منهم أجراً قط ، ولا أذكر أني أخذت أجراً من رجل على تعليمه قط ، الا واحداً ألح علي كثيراً ، وألحت علي الحاجة وقتئذ ، فأثرت أخذ الأجر منه ، على اذلال نفسي في الاستدانة من أحد ، وكذلك لم أخذ قط صلة ولا جائزة على شعري .

وفي اليوم الثاني والعشرين من المحرم سنة ١٣٦٠ هـ الموافق ١٨ شباط سنة ١٩٤١ م منحتني الحكومة السورية وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الثانية ، تقديرًا للجهود الذي بذلته طوال ثلاثين عاماً في تعليم اللغة العربية وغيرها من العلوم العربية .

وأما آثاري من النظم والنثر فقد ولعت في فاتحة حياتي ولعاً شديداً بالشعر قرضاً ونظماً ، ثم بعد أن هاجرت إلى دمشق نظمت بعض قصائد في موضوعات مختلفة ، فصادفت

قبولاً من بعض الادباء وغيرهم ، فأفضى ذلك إلى أن يكثر
الناس طلب تواريخ مني ، لينقشوها على حجارة القبور
لموتاهم ، حتى مللت من ذلك ، وسئمت قول الشعر ،
فأمسكت عنه منذ بلغت خمسة وعشرين عاماً ، ودافعت
الناس فلم يندفعوا ، ولا أزال ازهد في قوله إلى هذا اليوم ،
ولا انظمه الا تكلفاً .

وكنت حين قرأت العروض والقوافي نظمت رسالة فيهما
فجاءت مطولة ، وقد بلغت مائتين وخمسين بيتاً فاستكثرتها ،
ورأيت اختصارها يحتاج إلى وقت طويل لا أجده في أيامي
الغابرة فزقتها وأحرقتها .

وأما النثر فقد استطعت على كثرة أعمالي ، وقلة أعواني
وضيق أوقاتي ، أن أضع بعض الكتب والرسائل ، وأنشىء
بعض مقالات في مواضيع مختلفة .

منها : المنهل الصافي في العروض والقوافي ، وقد جمعت
في هذا الكتاب من مسائل هذا العلم ما لم يجتمع في غيره ،
وربت مسائله ترتيباً محكماً ، حتى جعلته كالسلسلة المتصلة

الحلقات ، أخذاً بعضها برقاب بعض ، وأوضحته غاية الايضاح
وأكثر فيه من الشواهد ، ليتسنى لكل واحد فيهم مسائله
بأسلوب تمواه النفوس ، وتموى إليه القلوب ، وقد تم تأليفه
وانتهى ، وقد أعدده للطبع ان شاء الله تعالى .

ومنها : كتاب في النحو سميته مرفد المعلم ومرشد المتعلم ،
وهو كتاب جامع لاكثر ما تشتت من مسائل هذا العلم ،
وقد حرصت فيه على جمع الاشباه والنظائر ، وادخال كل
مسألة في بابها ، ورتبته على أسلوب يسهل معه الرجوع إلى
ما يريده الباحث من مسائله ، ولم يتم بعد .

ومنها : رسالة في احكام ما . ومن ، وقد استوفيت كل
ما يتعلق بهما من الأقسام والأحكام ، وهي من الدروس التي
قرأتها في كلية الآداب .

ومنها : رسالة في الكرم جمعت فيها كل ما يتعلق بالكرم
من حين يكون عوداً ثم يغرس ، إلى أن يثمر وينضج ، ويتخذ
طعاماً أو شرباً ، وذكرت ما لكل جزء من أسماء في كل
طور وما يعرض له ، ورتبته على ترتيب الكرم الطبيعي ،

امريء القيس ، وطائفة من أخباره ودراسة لأدبه ، وقد تم هذا ، وطبع في دمشق سنة ١٣٥٤ هـ وسنة ١٩٢٦ م .
ومنها : جزء يحتوي على طائفة من أخبار عبد الله بن الملقّع ، وجملة من كلامه ، ودرس لأدبه ، وقد تم وطبع في دمشق سنة ١٣٥٥ هـ .

ومنها : جزء يحتوي على ترجمة النابغة الذبياني ، وشرح ديوانه كله شرحاً وافياً ودراسة شعره ، وجملة من أخباره ، وقد تم وانتهى ، وطبع الجزء الاول المشتمل على ترجمته وأخباره ودراسة شعره في دمشق سنة ١٣٦٤ هـ .

ومنها : جزء آخر يحتوي على ترجمة أبي العلاء المعري ، وأخباره ، ودراسة أشعاره ، وهو لم يطبع ، وهو أجمع كتاب لأخبار أبي العلاء ودراسة أدبه ، وفيه تحقيق كثير لما كتب فيه ، أو نسب إليه ، وتصحيح لكثير مما وقع فيه العلماء من الخطأ والأخبار ^(١) .

(١) نشره المجمع العلمي العربي بدمشق بعنوان الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره ، بتحقيق الأستاذ عبد الهادي هاشم في ثلاثة أجزاء ، وقد صدر منه الجزء الأول والثاني .

ليسهل الرجوع إليه ، وقد يجد الباحث فيها ما لا يجده في غيرها ، وقد تمت وطبعت في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق^(١) .

ومنها : عدة الأديب ، وهي ثلاثة أجزاء صغيرة ، جمعت فيها طائفة من كلام البلغاء والحكماء والعلماء والشعراء ، وشرحتها شرحاً وافياً ، ووضعتها للصف الاول والثاني والثالث من طلاب المدرسة التجهيزية لكل صف جزء ، وقد شاركني في تأليفها الشيخ محمد الداودي الدمشقي المتوفى نحو سنة ١٣٤٧ هـ ، وقد طبعت في دمشق سنة ١٣٤٥ هـ .

ومنها : عمدة الأديب ، وهي كتب متعددة جمعت في كل واحد منها ما يتعلق بكاتب واحد ، أو شاعر واحد ، من أخباره وأشعاره ودراسة أدبه ، وقد تم بعضها .

منها : جزء يحتوي على شرح جملة من شعر

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ٩ : ٢٨٠ - ٢٨٨ ، ١٠ : ٢٤٤ - ٢٤٩ ،

٤٦٦ - ٤٧٤ ، ٥٦٢ - ٥٦٦ ، ٦٢١ - ٦٢٦ ، ٦٩٧ - ٧٠١ ،

٧٦٢ - ٧٦٥ .

ومنها : جزء يحتوي على ترجمة علي بن أبي طالب (ض)
وطرف من أخباره ، وطرف من آثاره ودراسة أدبه ، وقد
طبع في دمشق سنة ١٣٦٠ هـ .

ومنها : شرح وتحقيق رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري ،
وتفسير الشواهد فيها ، وبيان قائلها ، وتراجمهم ، وقد طبعت
في دمشق سنة ١٣٦٣ هـ .

ومنها : رسالة في الطرق ، وهذا الغرض لم أر فيه لأحد
من المتقدمين كتاباً ولا رسالة ، وقد سألت كثيراً من أوعية
العلم ، هل رأى أحد منهم شيئاً من هذا القليل ؟ فقالوا : لا ،
وقد ذكرت فيها أسماء الطرق وأقسامها وأنواعها ، في السهل
والجبل والأودية والموارد وغيرها . وذكرت طرق الماء والريح
وغيرهما . وقد طبعت معظمها في مجلة المجمع العلمي العربي في
دمشق ^(١) .

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٨ : ٤١١ - ٤١٦ ، ٥١١ - ٥١٩ ،

١٩ : ٢٣٨ - ٢٤٤ ، ٣٣٢ - ٣٣٨ ، ٥٣٢ - ٥٣٧ ، ٢٠ : ٣٣ ،

٤٠ - ١٢٨ - ١٣٧ ، ٢١٤ - ٢٢٣ ، ٣٣١ - ٣٣٥ .

ومنها : رسالة في الاودية ومسائل المياه جعلتها ملحقة برسالة
الطرق تتميماً للفائدة .

ومنها : رسالة في المعلمين ، وهي على وشك الاتمام ، وقد
اشتملت على كثير من أخبار المعلمين ونواديرهم ومزاياهم المحمودة
والمندومة ، وعلى منزلتهم عند الخلفاء والامراء والاعيان والناس
وربما كانت اجمع رسالة في هذا الموضوع .

وألفت كتباً آخر في مباحث لغوية وغيرها ، منها :
اصلاح الفاسد من لغة الجرائد ، وقد كنت انتقدت
كتاب لغة الجرائد الذي وضعه ابراهيم اليازجي ، وينت طائفة
من خطئة ، فانتصر له قسطنطين الخطي ، وكتب أربع
مقالات نشرها في مجلة فيمنا في بيروت ، وقد خبط فيها خبط
عشواء ، فبينت ما ارتكبه من الغلط ، وأيدت قولي بالنقول
الصحيحة ، والحجج الدامغة ، ونشرت ذلك في جريدة الفيحاء
في دمشق ، ثم جعلته كتاباً مستقلاً وسميته اصلاح الفاسد من
لغة الجرائد ، وقد طبعته في دمشق سنة ١٣٤٣ هـ .

ومنها : رسالة الاطعمة والاشربة في بلاد الشام وهي لم
تطبع بعد .

ومنها : رسالة العادات في بلاد الشام ، وهي لم تطبع بعد .
ومنها : رسالة الامثال العامة في بلاد الشام ، وهي لم تطبع بعد .
وأما المقالات فقد نشرت في المجلات والصحف مقالات
متعددة .

منها : مقالات نشرت في مجلة الرابطة الأدبية ، التي انشأتها
جمعية الرابطة الادبية في دمشق ، ثم ألغتها الحكومة سنة ١٩٢٣ م
وقد كنت أحد مؤسسي الجمعية والمجلة والمقائمين بأمرهما ، وهذه
المقالات منها ما هو تحت عنوان تهذيب الالفاظ ، وهي تبين الالفاظ
العامية والدخيلة والمحرفة عن الالفاظ الفصحى ، وما يقابل
ذلك من الفصيح ، ومنها : ما هو رد على من انتقد شيئاً مما
كتب في هذه المجلة ، لأنني توليت الرد والدفاع عن المجلة .
ومنها : مقالات نشرت في مجلة العرفان التي تصدر في
صيدا ، وهي تشتمل على أسماء لغوية للصناع والصناعات عند
العرب وغيرها .

ومنها : مقالة نشرت في مجلة الهلال التي تصدر في مصر ،
وهي تتضمن القول في نثر أبي العلاء وتبين أنه مجدد في نثره .

ومنها : مقالات نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق غير رسالة الكرم .

منها : مقالة في اخوان الصفا^(١) ، ومقالة في المزدكية^(٢) ، وتقريظ ديوان السيد جميل الزهاوي الخبدي^(٣) ، وتقريظ ديوان بدوي الجبل محمد سليمان الأحمد^(٤) ، وتقريظ ديوان خير الدين الزركلي^(٥) ، ومقالة في انعاش اللغة العربية^(٦) ، ومقالة في نقد كتاب تاريخ الادب العربي لاحمد حس الزيات تحت عنوان كتب الادب القديمة والحديثة^(٧) ، ومنها : مقالة في نقد كتاب زهر الآداب الذي طبعه الدكتور زكي مبارك^(٨) .

(١) وعنوانها أبو العلاء واخوان الصفاء ١٦ : ٣٤٦ - ٣٥١ (ج) .

(٢) وعنوانها أبو العلاء والمزدكية ١٦ : ٤٨٩ - ٤٩٧ (ج) .

(٣) وعنوانه ديوان الزهاوي ٥ : ١١٧ - ١٢١ (ج) .

(٤) وعنوانه ديوان بدوي الجبل ٥ : ٢٠١ - ٢٠٣ (ج) .

(٥) وعنوان ديوان خير الدين الزركلي ٥ : ٥٠٥ - ٥٠٦ (ج) .

(٦) وعنوانها انعاش العربية ٥ : ٣٩٧ - ٤٠١ (ج) .

(٧) ١١ : ٥٢٨ - ٥٣٨ (ج) .

(٨) وعنوانها كتب الادب القديمة والحديثة ١٢ : ٢٥٧ - ٢٦٩ ، ٤٠٣ .

- ٣١٥ ، ٦٨٢ - ٧٨٩ (ج) .

ومنها : مقالة في تقرير الحفوفات المختارة ، والموجز في علم المنطق ^(١) .

ومنها : مقالة عنوانها ثقافة المتني ومصادرها ^(٢) ، أقيمت مختصرة في حفلة مهرجان المتني التي أقيمت في مقر الجامعة السورية في ٢٩ تموز سنة ١٩٣٦ م .

ومنها : مقالة في التعريف برسالة الملائكة لأبي العلاء المعري التي ظفر بها المجمع العلمي العربي في دمشق ، ثم طبعها ، وهذه المقالة نشرت في مجلة المجمع المذكور ^(٣) ، وقد وضعت للرسالة المذكورة مقدمة ضافية تتعلق بهذا الموضوع ، وقد نشرت في مقدمة الرسالة المطبوعة سنة ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤ م .

وقد وضعت مقدمة لكتاب أوج التحري عن حيشة أبي العلاء المعري تأليف يوسف البديعي ، الذي صححه السيد إبراهيم الكيلاني ، وطبعه المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٤٤ م ، ونشرت هذه المقدمة في أول الكتاب .

(١) ١٢ : ٣٧٩ - ٣٨٢ (ج) .

(٢) ١٤ : ٤٠٢ - ٤٢٦ (ج) .

(٣) ١٩ : ١٢٢ - ١٣١ (ج) .

ومنها كلمة عنوانها دين أبي العلاء ، وقد أقيمت هذه الكلمة في الجامعة السورية ، في حفلة المهرجان الألفي التي أقيمت لأبي العلاء ، وتليت في الساعة السادسة والنصف تقريباً من يوم الأحد الأول من تشرين الأول سنة ١٩٤٤ م ، وقد نشرت في الكتاب الذي طبعه المجمع العلمي العربي في دمشق ، وسماه المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري سنة ١٣٦٤ هـ وسنة ١٩٤٥ م^(١). ومنها : مقالات نشرت في مجلة دمشق التي أصدرتها المفوضية العليا الفرنسية في دمشق سنة ١٩٤٠ م ، وهي تبين الخطأ في مناهج دراسة الأدب العربي ، وتبحث في غيره . ومقالات آخر نشرت فيها تحت عنوان (من دراسة في تاريخ الأدب العربي) و (دراسة في تاريخ الأدب العربي) ومنها : مقالات نشرت في جريدة المقتبس في دمشق سنة ١٣٤٣ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٤ م .

وهذه منها نوع يثبت فيه ما في كتاب قاموس الاعلام من الخطأ الواضح ، وهذا القاموس وضعه حلیم دموس من إبداء

(١) ص ٢٨٠ - ٢٩٢ (ج)

لبنان وشعرائها ، حين كان عضواً في جمعية الرابطة الادبية ، ذكر فيه الالفاظ التي تستعملها العامة خطأ ، وذكر بما ينوب عنها من النصيح ، فكان خطؤه فيه أكثر من صوابه ، وكانت العامة في استعمالها أقرب منه إلى الصواب ، وبعد أن نشرت نحو تسع مقالات تحوي على مئات من غلطه وخطائه ، رغب إلى بعض أعضاء الرابطة الادبية أن أمسك عن الكلام في ذلك ، فنزلت عند رغبته وامسكت .

ومنها : مقالات نشرت في المقتبس فيها بيان لخطأ بعض الادباء ، الذي طلب إلى علماء اللغة أن يتساحوا في استعمال الدخيل والعامي .

ومنها : مقالات نشرت في جريدة الفيحاء الدمشقية في مواضع شتى ، منها : بيان ما في كتاب تذكرة الكاتب لمؤلفه داغر^(١) من الخطأ والغلط اللغوي .

ومنها : مقالات نشرت في مجلة الاوقاف الاسلامية التي انشئت في دمشق سنة ١٣٦٤ هجرية .

ومقالات نشرت في مجلة التمدن الاسلامي ، منها : أثر الاسلام والقرآن في اللغة ، ومنها : الادب الجاهلي .

(١) أسعد بن خليل داغر .

وهناك كثير من المقالات التي نشرت في مجلة الحديث التي تصدر في حلب ، وفي مجلة الاديب التي تصدر في بيروت .
وقد وضعت رسائل متعددة تشتمل على دراسة جماعة من اعلام الادباء والشعراء ، كجرير ، والفرزدق ، والاخلط ، وعمر بن أبي ربيعة ، وزهير ، والاعشى ، والحطيئة ، والخباب وحسان ، وأبي تمام ، والبحري ، وأبي نواس .
وشرحت كثيراً من قصائدهم ، لاسيما جرير ، والاخلط ، وأبي نواس ، وأبي تمام ، وقد حال بيني وبين انجاز ذلك كثرة أعمالي على قلة اعواني ، واعتلال صحي ، فندسأل الله المعونة والتوفيق .

(وقد توفي المؤلف رحمه الله بدمشق في الساعة العاشرة والنصف قبل ظهر يوم الاثنين الواقع في ٧ ربيع الاول ١٣٧٥ هـ .
والموافق لـ ٢٤ تشرين الاول ١٩٥٥ م ودفن بمقبرة الدحداح) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد فاني بعد أن أنهيت الدراسة في مدرسة الحكومة الرشدية في المعرة نحو سنة ١٣١٢ هـ ، انصرفت نفسي إلى دراسة العلوم الشرعية واللسانية والعقلية على ندرتها في المعرة في ذلك العهد .

وكان والدي تغمده الله برحمته مغرياً^(١) بشعر أبي العلاء وآثاره ، حريصاً على أن أطلع عليها وأحفظ منها ما يقع الي ، فكان إذا ظفر بشيء منه أمرني بحفظه ، وكنت كلما اطلعت على شيء جديد من كلامه ازددت رغبة في الاطلاع على غيره لأن آثاره كانت أندر من الكبريت الأحمر ، وأعز من بيض الأنوق^(٢) ، وقد أتيح لي في سن الحداثة وعهد الدراسة والتعليم ،

(١) غري بالشيء : أولع به .

(٢) الأنوق كصبور : العقاب من جوارح الطير ، وفي المثل : أعز من بيض الأنوق : لأنها تحوزه في أوكارها في القلل الصعبة فلا يكاد يظفر به .

أن أطلع على تراجم رجال من أعيان المعرة وأعلامها ، وأقف على الجيد والنفيس من أقوالهم وآثارهم ، فنزعت نفسي الى الوقوف على معرفة أبي العلاء ونسبه وبلده ومذاهبه في الأدب والفلسفة . وطمحت الى معرفة طائفة من رجال المعرة ، لأنني رأيت فيهم القارئ المجود ، والمفسر المحقق ، والمحدث المؤثق ، والفقيه التحرير ، والكاتب المبدع ، والشاعر المفلح ، والمتفنن المخترع ، والصوفي الزاهد ، ولا تكاد تجد طائفة من علماء في علم إلا وجدت في رجالها أناساً من المتقدمين في ذلك العلم ، وكذلك رأيت فيهم القاضي المثبت ، والمفتي المتحري والمعدود من رجال الدهر ، ومن المنجذنين^(١) في السياسة وولاية الأمر ، وما عرفت رجلاً في القديم والحديث نال الإمارة بشعره إلا رجلاً من المعرة .

ونظرت إلى ما وصلت اليه المعرة في العصور الماضية ، من سعة العمران ، وازدهار الحضارة ، وزخور العلم ، وكثرة العلماء والشعراء والمؤلفين ، وإلى ما انتهت إليه في عهد الحكومة التركية من الخراب والانحطاط ، وتفشي الجهالة وندرة النابيين ، من العلماء والتابعين من الشعراء ، فرأيت البون شاسعاً بين العهدين .

(١) المنجذ كمعظم : المحرب والذي أصابته البلايا .

لأن المعرفة في القرن الرابع والخامس والسادس ، على حسب ما رأيت ، كانت تعج بالقراء والمفسرين والمحدثين واللغويين والمؤرخين والشعراء والمؤلفين في علوم مختلفة .

وفي الزمن الذي تركت فيه المعرفة ، وفيما قبله وبعده ، إلى أن جلّت عنها الأثر ، كانت خالية من عالم حقيقي ، أو كاتب صحيح العبارة ، أو شاعر يحسن نظم قصيدة سالمة من اللحن والخلل في الوزن .

وحسبك دليلاً على ما ذكرت أن أبا العلاء درس ثقافته الواسعة على جماعة من أهل بلده ، ولم يصح أنه قرأ على أحد من غير أهل بلده ، ولا حدثه نفسه باجتماع علم في غير بلده ، وأن ثمانين شاعراً أو أكثر وقفوا على قبره يوم وفاته ، ولم يحدثنا التاريخ أن أحداً منهم كان غريباً عن المعرفة .

وان الناس في نحو سنة ١٣١٩ هـ كانوا إذا أرادوا أن يمدحوا رجلاً ويصفوه بالفضل ، قالوا : إنه كاتب قارئ ، وإذا أرادوا أن يبالغوا في الثناء عليه قالوا : كاتب قارئ ، تركي عربي ، وملاؤا أشداقهم بهذه الكلمات لتدل على عظم الممدوح ، وعظم

ما مدح به ، وقد رأيت في المعرة مئآت من رسائل الأحياء
والأموات ، من رجال القرن العاشر إلى زمن هجرتي ، ومئات
من الفتاوى والحجج والصكوك التي تصدر عن المحاكم وغيرها ،
وكثيراً من النظم والنثر ، ولا أذكر أنني رأيت شيئاً منها سالماً
من الخطأ واللحن إلا في النادر .

وليست هذه البلية مختصة بالمعرة والمعرين ، بل كانت
أمهات المدن السورية ، بل الأمة السورية كلها على هذه الشاكلة
في تلك العصور .

فاني رأيت كثيراً من القصائد والخطب ، والرسائل الأخوية ،
وفتاوى المفتين وحجج القضاة وأحكامهم وصكوك المحاكم وغيرها ،
وبعض الرسائل والكتب لعلماء دمشق وغيرهم ، وكلها طافحة
بالخطأ واللحن في صيغ الألفاظ وإعرابها ، ولا أكون مغالياً
إذا قلت : إن أكثر البلاد السورية في هذا العصر لم تتغير حالتها
بتغير الزمن .

ومن نظر نظرة إنصاف إلى فتاوى المفتين في هذا العصر ،
وإلى الحجج والأحكام التي تصدر عن المحاكم الشرعية والمدنية ،

وإلى الصكوك التي ينظمها كتاب العدل ، والاتفاقيات التي يكتبها المحامون ، والمقررات التي تصدر عن المجالس النيابية ، والقوانين التي تسنها الحكومة . والمراسيم التي تصدر عن رؤسائها ، والأوامر التي تصدر عن الوزراء وغيرهم ، يجد فيها غرائب من اللحن وفساد التركيب .

وإن كنا لا نشكر أنها أحسن حالاً مما كانت عليه ، قبل نصف قرن فأكثر ، وهذا يدلنا على أمور : الأول أن الحكومة التركية كانت في عهدها الأخير جاهلة بسياسة الشعوب المنضوية تحت رايها ، غافلة عما يجب عليها ، غارقة في سباتها العميق . وأدل شيء على ذلك أنها كانت تشتغل في إخماد الفتن في مكان ، وإثارة الفتن في مكان آخر ، لتتخذ ذلك وسيلة لتوطيد قدمها في بعض الأمصار ، وفرض سيطرتها على بعض الشعوب ، وأنها كانت تجعل الولايات لقاء مال معين ، وأنها ترخي العنان لبعض عمالها ، حتى يمتص أموال الأمة التي يولى عليها ، ثم تستصفي أمواله ، فكان العمال جباة للوزراء والملوك ، وهذه المجموعة تععم من شقاء الأمة ، وكان هذا وأمثاله هو الشغل الشاغل لرجال الدولة وقصور الخلفاء ، وبينما هم منغمسون في

هذه الحماة . جادون في الحيلولة بين الشعوب والعلم ، بل بين أنفسهم والعلم ، طلعت عليهم أوربة بالقوى والأعتدة التي لم تكن في حسابهم ، ما بين بنادق ومدافع ، وهددتهم بالدبابات والمصفحات ، وغيرها من الأدوات التي تفتك على وجه الأرض ، وبالمدرعات والغواصات في جوف البحر وعلى وجهه ، وبالطائرات في أجواء الفضاء ، ولا تزال تطلع عليهم في كل يوم جديد ، بنوع جديد من الأسلحة التي تنيد الإنسان ، وتقوض العمران ، وهم يحدون ويدأبون ، ليدركوا شيئاً واحداً يفوتهم أشياء .

وان أمة هذا شأنها بالنسبة إلى مصلحتها ، لا يرجى منها لغيرها إلا التدمير والتأخير ، وقد فعلت ، وكان من حماقتها في السياسة أنها كانت تعمل على إبقاء الشعوب التي تحت سيطرتها منغمسة في حماة الجهل ، لأن إزلالها وهي جاهلة أيسر منه وهي عالمة ، وقد فاتها ان الشعب الجاهل الذي تحكمه ، يسهل على أعدائك صرفه عنك وجذبه اليهم .

وان دول أوربة فتحت مدارس مختلفة في العواصم والأمصار والقرى ، وقضت على الأمية ، ونبغ فيها مخترعون في كل فن ،

والدولة العثمانية لم تحدث مدرسة ابتدائية في المتصرفيات والأقضية ،
إلا في العهد الأخير .

وان المدارس الرشدية والابتدائية ، التي أنشأتها في الأقضية ،
لا يستفيد منها أحد إلا الموظفون في العمل فيها ، فانهم يتناولون
المرتب الشهري ، والاطفال لا يتعلمون إلا الشيء اليسير ،
وهو تعلم الخط والاعمال الاربعة من الحساب .

وكانت الحكومة التركية ترضى على العرب عامة والسوريين
خاصة ، فلا تفتح لهم مدرسة ثانوية ولا عالية ، ولا ترشدهم
الى شيء من هذا .

ولولا أن ترى المدارس الاجنبية التبشيرية ، قد انتشرت
في مصر ولبنان ، لما فتحت كتاباً في بلد عربي ، وخلاصة
ما يتحصل للمستقري الباحث عن أحوالها في تلك العصور ،
انها كانت عاجزة عن إدارة نفسها ، وعن حماية بيضتها والذود
عن حياضها .

الامر الثاني ان الامة السورية كانت في ذلك العهد ، مؤلفة
من أخلاط ، وعناصر مختلفة ، وقد كانت الكلمة المطاعة فيها

للأعاجم والمستعجمين ، وقد دهمتها فواجع وغشيتها غواش من
من الخمول والخنوع ، فأنحلت كل أصرة تربط الفرد بالفرد ،
والجماعة بالجماعة ، فكانت جمهرة الحكام والعمال والمتغلبين
من الغرباء ، وكانت لهم الكلمة النافذة والسيطرة القاهرة ،
وهؤلاء لا يهمهم إلا أن يعيشوا عيشة راضية ، وأن يشبعوا
نهماتهم ، ولا يبالي الواحد منهم بعد ذلك أصبحت البلاد
عامرة ، أم غامرة ، ولا يضيره أكان الشعب في نعيم أو بؤس ،
أو في جهالة أو علم ، بل يسره أن يكون الشعب كالأنعام ،
يسخره في منفعه ، ويصرفه في سيل ملاذه ، وإذا قلب الدهر
له ظهر المحن ترك البلاد في شقائها ، وفر إلى بلاده أو بلاد غيرها .

فكان السوري الحقيقي المستضعف ، يسعى جهده لإرضاء
المتغلب ليدفع عنه شره ، أو يقلل من أذاه ، ويعمل ليلاً
ونهاراً ، لينذل له ما يرضيه من الأموال ، ويعد نفسه موقفاً
إذا استطاع أن يرضيه بكل ماله .

ولا يزال السوري على هذه الوتيرة إلى يومنا هذا ، يسوده
الغريب ، ويتولى أمره الاجنبي ، فيحلب دره ، ويمتري خيره ،
ويسخره في مصالحه ، ويمتنه في عقر داره ، وهو أطوع له

من بنائه ، وأتبع من ظله ، وربما كان عوناً للغريب على أخيه وعيناً له .

ففقد السوري بسبب ذلك كل مقوماته ومميزاته من غيره ، وأصبح لا يعد في العير ولا في النفير ، فليس له كيان يستقر عليه ، ولا لون يثبت عليه ، وإنما هو كالماء يتلون بلون ما يجاوره أو يخالطه ، وقد يش من خير الحياة كلها ، فأصبح أكبر همه أن يعيش مستوراً أو يموت مستوراً ، بعد أن كان يطمح إلى معالي الأمور ، وكلما بلغ منزلة عالية اشرأبت نفسه إلى ما هو أعلى منها .

رأيت هذا كله وأشباهه ، فساءني أن يجهل أبناء هذه المدينة خاصة ، والناس عامة ، من تاريخها وآثار بنائها وأبنائها ، ما يرفع الرأس ، ويقر العين ، ويبهج النفس ، وأن لا يعلم الأسباب التي شوهت نضارتها وقوضت حضارتها .

فجب إلي أن أجمع ما أستطيع جمعه ، من أخبار هذه المدينة الفاضلة ، وأخبار أهلها ، وأضم إلى ذلك ما أقب عليه من آثارها وآثارهم ، حتى لا ينسى ماضيها وماضيهم ، ولا يقنط من مستقبلها ومستقبلهم ، فإن الذين عمروها في الماضي بأيديهم ،

وشهزوها بالسنتهم وأقلامهم ، كانوا أناساً مثلنا ، وفي وسعنا أن
نعمل ما عملوا النترك ما تركوا من الذكر الحسن والأحدوثة الطيبة .
ومن البين أن المعرة لم تكن في القديم والحديث ، عاصمة
لدولة معظمة ، ولا مقرأً للملك من الملوك ، ولا شاطئاً يتخذ
ثغراً لإقليم ، ولا معقلاً يذود عن حياض بملكة ، ولا وهبتها
الطبيعة بما يجعلها محجاً يؤمه الناس من كل حذب وصوب ،
فليست فيها بحسب ما علمنا وما سمعنا أنهار جارية ، ولا معادن
مغرية ، ولا مقاطع نادرة .

وإنما منحتما الطبيعة مركزاً ، جعلها حلقة واصله بين غربي
آسية الجنوبي ، وشرقي افريقية الشالي ، ومجازاً يعبر عليه أهل
الشرق الى الغرب برأ وبحراً ، فهي بهذا الاعتبار ملتقى
الشعوب والأمم :

ورزقها الله من عذوبة الماء ، ورقة الهواء ، وطيب المناخ ،
ما جعل المقيم ، أو المار فيها يستطيب الإقامة ، وجعل فيها بما
يدره الضرع ويخرجه الزرع ، ما يصيب النفوس ويطيها ، كما
جعل في سكانها من الخلال المحموده والمزايا المحبوبة والعبقرية

الباهرة ، ما يحمل الناس على أن يقصدوها ، وبذلك كونت من نفسها لنفسها مركزاً ، يغري الطامعين في الفتح ، والاستيلاء على الشعوب ، وموارد الثروة ، والطامحين الى اقتباس العلم والادب من منابعه الثّارة .

ولما أجمعت أمري على الشروع في تأريخ للمعرة ، يشتمل على أطوارها في العصور المختلفة ، ويضم طائفة من علمائها وأعلامها في تلك العصور ، اعترضتني عقبات صعبة المرتقى ، وعقد عسيرة الحل ، وهي كثيرة منها :

- ١- أنني لم أطلع على تاريخ مختص بها ، أتخذه أساساً أقيم عليه بنائي ، ونبراساً أهتدي به في هذا الطريق الاقيم المبهم .
 - ٢- أن كثيراً من النساخ لا يتحرون الحقيقة في النقل ، وإنما يتساحون فيه ، فيضعون موضع الكلمة ما يشابهها أو يقاربها ، وأكثر ما كنت أجده من هذا النوع لفظة المصري والمقري والمقري والمغربي وأشباهاها ، بدلاً من لفظ المعري وبالعكس .
- فكنت أصرف جهداً عظيماً في التمهيص والتثبت ، والرجوع إلى المظان ، لتكشف لي الحقيقة في ذلك ، وربما كنت لم أسلم من خطأ في هذا الباب .

٣- أنني لم أقف على تاريخ للبلاد السورية ، يذكر في كل بلدة ما يتعلق بها من الناحية السياسية والدينية والاجتماعية وغيرها ، ولا كتاباً يستوعب طائفة كبيرة من أهلها ، وكل ما استطعت الوقوف عليه بعد عناء طويل وجهاد شديد ، هو أنني وقفت على طرف من أخبار المدينة ، وما اتابها من جور الإنسان في الحروب الصليبية ، والفتن والحروب التي أعقبتها من المتنفذين والفاطحين والمتغلبين والمعتدين من الحاضرين والبادين .

وطرف آخر مما أصابها من قسوة الطبيعة . من زلزال يقوض عمرانها ، الى قحط يميز إنسانها وحيوانها ، الى طاعون يبيد سكانها ، الى فتن تمحو حضارتها وتشوه نضارتها .

وكثيراً ما كنت أتصفح الكتاب الذي تتجاوز صفحاته الألوف ، ولا أجد فيه إلا النزراً اليسير من مطلبي هذا ، وربما خرجت من الكتاب ، ولم أعثر على قليل ولا كثير ، فاحتملت هذا وذلك ، وقابلت بالصبر والتجلد كل عائق ، ودفعت كل مشط ، وصرفت كل صارف عن العمل ، حتى تيسر لي جمع شيء إذا توفر المرء على قراءته ، وقف على شيء من أخبار

المدينة ، وعرف طائفة صالحة من علمائها ومؤلفيها وشعرائها
وأدبائها ، ورآه صالحاً لأن يكون أساساً يبني عليه من يحاول
إتمام هذا العمل من بعدي .

وقد استفرغت المجهود في البحث والتنقيب والتحري ، في ماهو
مظنة لهذا الغرض .

فتبعت حجج المحاكم والصكوك والوثائق والفرامانات ،
وأوامر الحكام ومضابط المجالس وتوليات المتولين ، ومكاتبات
الولاة والعمال والامراء والقواد ، وظهور الكتب والرسائل ،
وما أشبه هذا .

وجمعت ما استطعت الوصول اليه ، مما كتب في جدر المساجد
والتكايا والزوايا والرُّبُط والمعاهد الدينية والمدارس والمنائر
والقبور والحفائر وما شاكلها ، وفتشت عما يتعلق بهذا الغرض
في كنب التاريخ والطبقات والتفسير والحديث والفقه والادب
واللغة .

ولم أدخر وسعاً في هذا السبيل على قدر ما ساعدت به
الأيام ، وساعدتني عليه الحال والصحة ، وأفرغت عصارة هذا
المجهود في هذا الكتاب .

وهو على صغر حجمه قد أحوجني إلى عمل شاق في التتقيب والجمع وتمحيص الحقيقة ، من أقوال متضاربة وآراء متشعبة وألفاظ محرفة ، وإبطال ما زعمه بعض الرواة والعلماء ، وإقامة الأدلة على صحة ما أقول ، وبطلان ما يقول هؤلاء ، ويجوز لي أن لا أستصغر عملي هذا ، لأنني جعلت شيئاً من لاشيء ، وبنيت هيكلًا من مادة كانت مبعثرة في بطون الكتب ، وصغت حلياً من معدن ، كانت ذراته متفرقة في نواحي الأرض المختلفة ، تفرق ذرات الذهب في بطون معادنه ، وغرست نواة سوف يحمد الناس ثمرتها ، وإني لأرجو الله أن يهيئ لها من يتعدها حتى تتم الفائدة المتوقعة من غرسها ، ويدعو من ينتفع بها بالخير لي ولوالديّ اللذين ربياني صغيراً وعلماي كبيراً ، ولشيوخه الذين أناروا لي السبيل وذلّلوا لي كل أبيّ ، وتعهّدوني حتى استفدت وأفدت :

وكنّت أود أن أقسم هذا الكتاب ، فأجعل قسماً منه خاصاً بعمران المدينة ، وثانياً خاصاً بحياة أهلها الاجتماعية ، وثالثاً بحياتهم السياسية ، ورابعاً بحياتهم الدينية ، وخامساً بحياتهم العقلية ، وأبين أطوار كل نوع في كل عصر على حدة وأبين

أسباب الارتقاء والتوقف والانحطاط في كل زمن ، لتكون الفائدة أعم وأجزل ، ويكون تناولها أيسر وأسهل ، ولكني وجدت ذلك مستحيلاً أو قريباً من المستحيل ، لأسباب جمّة منها :

١ - فقد المطان التاريخية الكافية لتحقيق هذا الغرض .

٢ - فقد الوسائل اللازمة للتنقيب والتفتيش في بطن الأرض ، وفوق ظهرها ، عن الآثار التي يتطلبها البحث والتحقيق .

٣ - عدم معرفتي بالآثار وما يميز كلاً منها في كل عصر وجيل ، وعجزني عن الاستعانة بفريق من العلماء الحاذقين بهذا الفن .

٤ - عدم مساعدة الايام على فراغ من العمل ، وسلامة من العلل ، لا تمكن من استيفاء كل ما أريد من بحث واستقصاء في سفر أو حضر .

فأثرت الاكتفاء بما سمحت به الايام وبلغته القدرة .

على أن ما جمع في هذا الكتاب يدل بصورة موجزة ، على ما وصلت اليه المدينة في عهدها ارتقائها وانحطاطها ، ويمثل صورة مجملة عما بلغ إليه أهلها من الرقي الفكري ، ويرينا مثلاً صالحاً من النوابع والعباقرة من أهلها في بعض العصور .

وبعد كل ما تقدم فإن عملي هذا لا يسلم من خطأ وتحريف
وغفلة ، لفقد المصادر الصحيحة ، ولكثرة التشابه بين لفظ
المعري ربه مما سبق ذكره ، ولتضارب الأقوال في الحوادث
وتواريخها .

ولكني بذلت الجهد في الجمع والتحري ، وإني أرجو من
وقف على خلل أو تحريف ، أو خطأ فيه أن يرشدني إليه ،
أو ينبه القراء له ، وفي كلتا الحالتين أكون من الشاكرين له .

محمد سليم بن محمد نقي الدين الجندري

مِعْرَةُ النُّعْمَانِ

معنى المعرة النُّعْمَانِ والعربي

لفظ المَعْرَةُ ، على وزن مَسْرَةٍ ، جاء في اللغة لمعان كثيرة ، منها : الإثم ، والغرم ، والأذى ، والدية ، والجناية ، وتلون الوجه من الغضب ، والشدة ، والأمر القبيح والمكروه ، وموضع المَعْرَةِ وهو الجرب ، وكوكب دون المجرة من ناحية القطب الشمالي .

وقد قيل لرجل نزل بين حيين : أين نزلت ؟ قال : بين المَجْرَةِ والمَعْرَةِ ، والمَجْرَةُ البياض الذي في السماء ، والمعرة ما وراءها من ناحية القطب الشمالي ، وسميت بذلك لكثرة النجوم فيها ، وقد أراد بين حيين عظيمين ، وأصل المعرة موضع القمر أي الجرب ، ولهذا سماوا السماء الجرباء ، لكثرة النجوم فيها ، فهي تشابه الجرباء .

ويقال: أرض معرة إذا انجحد نباتها ، وأرض معرة قليلة النبات .
وفي كلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: اللهم إني أبرأ إليك
من معرة الجيش ، أي أن ينزلوا بقوم ، فيأكلوا من زروعهم
بغير علم ، أو أن يقاتلوا بدون إذن الأمير .

والمعرة اسم لهذه المدينة ، ولقرى كثيرة من عملها ، وعمل
حماة ، ودمشق وأنصيين ، وغيرها ، منها : معرة علياء من بلد
المعرة المذكورة ، ذكرها ياقوت في المشترك^(١) . وفي التاج^(٢) : « هي
محلة في المعرة ، ولا تعرف في هذا العهد ، والمعروف أنها قرية بقرب
سرمين من عمل إدلب » .

ومعرة حرمة : قرية بالقرب من كفرطاب ، كما قال ياقوت^(٣) .
ومعرة بَيْطَر : من نواحي المعرة ، وكذلك معرة ماطر .
ومعرة عرب : من نواحي المعرة ، وكذلك معرة ماطر .
ومعرة الصين : وهي الآن مزرعة في الجهة الغربية ، من
قرية كفرنبيل : على بعد ساعة منها .

(١) ياقوت : المشترك وضعاً والمفتق صقلاً ص ٤٠١ .

(٢) الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٣٩٣ .

(٣) ياقوت : المشترك ٤٠١ .

ومعرة راف .

ومعرة سمولين : من نواحي أفامية .

ومعرة الإخوان .

ومعرة مَصْرِين ، أو نسرین : من عمل إدلب .

ومعرة باش : قرب يَبْرُود .

ومعرة صَيْدَنَايا : قرب منين ، وكلتاهما من أعمال دمشق .

وفي عمل معرة النعمان ، وما يقرب منها ، قرى كثيرة ،

اسمها مَعَر بلا تاء ، مضافاً الى اسم آخر .

منها مَعَر شَمْشَى : من عمل المعرة ، ولعلها التي تسمى الآن

معر شَمْشَى .

ومَعَرَاتَا : وهي قبلي المعرة ، على الجادة الآخذة الى حماة ،

ويقال لها الآن : معراتا بالتاء المشناة ، وابدال التاء بالتاء كثير

في المعرة وغيرها .

ومعر شَمَّارين : من ناحية المعرة .

ومعر دِبْسَى : على الطريق الآخذة من المعرة إلى إدلب .

ومعر تارح : من نواحي كَفَرطاب ، في شماليها .
ومعر تَرَوْح : بفتح التاء ، وسكون الراء ، وفتح الواو ،
وحاء مبهمة ، وهي على الجادة الآخذة من كفرطاب إلى حماة ،
ولعل أصل هذه ، والتي قبلها معرة أرح ، ومعرة أَرَوْح ،
فسهلت الهمزة فيها ، ونقلت حركتها إلى ما قبلها .
ومعر شمسين : من أعمال كفرطاب .
ومعر زاف : من عمل إدلب .

وفي تاج العروس ^(١) : ان مَعَر - بلا هاء - اسم لاحدى عشرة
قرية ، كلها بأعمال حماة ، وَمَعَرَيْن بزيادة ياء ونون بلد بنواحي
نصيبين ، وقرية بشيْزَر ، وأخرى بحماة ، وأخرى في عَزَّاز ،
وإذا تأملنا المعاني المتقدمة للفظ المعرة لانجدهم معنى مناسباً تمام
المناسبة لأن يكون هذا الاسم مشتقاً منه، وإذا أمكن ذلك بضرب من
التأويل في هذه المدينة ، تعذر مثله في غيرها ، ولذلك اختلف العلماء في
معناها الذي اشتقت منه ، فزعم بعضهم ^(٢) : ان المعرة معناها المغارة ،

(١) الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

(٢) كامل الغزي : نهر الذهب تاريخ في حلب ١ : ٤١٧ .

وانها سميت بذلك لأن هذه المدينة مشتملة على كثير من المغاور ،
وأن أصلها في السريانية مَعْرَتَا ، فتصرف بها العرب ، وقالوا :
معرة ، وتاؤها في اللغتين للتأنيث .

وقال آخر : لا يبعد أن يكون هذا الأصل في تسميتها ، فإن
أكثر أسماء القرى والمدن في الشام ، جاءت من الآرامية والسريانية .
وزعم آخر ، فقال : ينخيل اليّ أن أصله مُعَرَّس ، ثم ابدلت
التاء من السين ، وتلك لغة من لغات العرب ، ولما طال العهد
على استعمال هذه الكلمة ، فتحت الميم لتتفق مع الألفاظ التي
يألفها العرب المتكلمون بها .

وزعم آخر : أن أهل المعرة كانوا يسكنون سِيَاث ، فلما
افترس السبع ولداً للنعمان . دفنه في موضع المعرة ، وقال لأهل
سِيَاث : من كان يودني فليبن له موضعاً عند الموضع الذي ابتنيته ،
فبنى الناس المعرة كما سيأتي .

وزعم آخرون غير ذلك ، وقد سألت أحد العلماء باللغة
السريانية ؟ فقال : إن لفظ المعرة سرياني ، أصله معرتا ،

ومعناها المغارة والجمع مَعْرِي، بامالة الراء نحو الكسرة ،
لا بالكسرة الخالصة .

وإذا أمعنا النظر في هذه الأقوال وغيرها ، تبين لنا أنها كلها
من باب الظن والتخمين ، وحب الالتيان بالغريب ، وتعليل الشيء
بعد وقوعه ، ومثل هذا لا يصح أن يبنى عليه حكم موثوق به ،
وانما يتوقف على دليل تاريخي ، خال من الشبهة والشك ، وهذا
لم نجده على كثرة بحثنا عنه ، ولا نظن ان أحداً وجده ،
أو يجده ، وإذا سلمنا بعض هذه الأقوال ، أو كلها ، تعذر علينا
معرفة الشخص الذي حرف هذا اللفظ ، والاشخاص الذين
حرفوه ، ومعرفة الزمن الذي حرف فيه ، والسبب الحامل
على تحريفه ، ثم اتنا لا نعلم بعد ذلك من أين جاء تشديد
الراء ؟ مع أن الغالب في التحريف إرادة التخفيف ، لا التشديد .
وإذا أمكننا شيء من التأويل والتوجيه في معرة النعمان ، استعصى
علينا مثله في بقية الأماكن والقرى المسماة بالمعرة ، والمضافة إلى
لفظ آخر ، كمعرة الصين ، أو بَيْطَر ، أو الاخوان ، وغيرها ، لأن
التاريخ لم يخبرنا بأن الصين أو بيطر أو الاخوان ، نزلوا هذه

الاماكن ، كما لم يعرفنا من هم هؤلاء ؟ وبناء الحكم على ظنون
واهية ، لا قيمة له في نظر العلم ، وقول أبي العلاء :

يُعَيِّرُنَا لَفْظَ الْمَعْرَِةِ أَنَّهَا مِنْ الْعَرِّ قَوْمٌ فِي الْعُلَا غُرَبَاءُ

* * *

وَمَا لِحَقِّ التَّثْرِيبِ سُكَّانَ يَثْرِبٍ . مِنْ النَّاسِ لَكِنْ فِي الرِّجَالِ قَبَاءٌ^(١)
يشعر بأن لفظ المعرة مأخوذ من العر ، وهو لا يعيب أهل
هذه المدينة ، كما ان اشتقاق أو أخذ « يَثْرِب » من التثريب ، لم
يعب أهل المدينة المسماة بهذا الاسم ، ولا يمكن أن يراد من
هذا البيت غير هذا المعنى ، اذ لا يستقيم التمثيل بالبيت الثاني
إلا إذا حمل على هذا الوجه والتأويل ، وذلك يعين أن يكون
المراد اشتقاق المعرة من العر في رأي أبي العلاء .

والذي اعتقده أن جميع الاسماء لا تعلل ، ولا يجب أن يكون
بينها وبين مسمياتها مناسبة ، ولا يجب أن يكون لها أصل
تشتق منه ، وإذا تسنى لنا وجود شيء من هذا في بعض الأسماء

(١) أبو العلاء المعري : اللزوميات ٢١ : بوفيه :

« وهل لحق التثريب . . . لابل في الرجال . . . »

فلا يجب أن يكون ذلك عاماً مطرداً في كل اسم ، ولا سيما
أسماء الأعلام للأشخاص والأماكن .

وان التزام مثل هذا اضطر كثيراً من العلماء الى أن يأتوا
بضروب من التأويل البعيد عن العلم ، وعن مقاييس اللغة
في تعليل الاسماء ، وبيان أصولها التي اشتقت منها ، كما نرى
ذلك في مثل دمشق ، وحلب ، وحماة ، وحمص ، وإدلب ، وغيرها .
وإذا لم يكن لنا بد من التعليل وردّ الاسم الى اصل
كيفما كان ، فإن أقرب الوجوه الى السداد أن نقول : إن
المعرة مأخوذة من السريانية ، ثم حُرِّفها العرب على نحو ما تقدم .
هذا إذا لم نقل : إن أصلها عربي أخذها السريان من العرب ،
أو أنها بما اتفق فيه اللغتان ، فهي أصل في كليهما .

النعمان الذي أضيفت اليه المعرة :

اختلفت كلمة المؤرخين في النعمان الذي أضيفت إليه
هذه المدينة اختلافاً شديداً ، فذهب فريق الى أنها أضيفت
الى النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي الجليل (١) .

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج
الأنصاري ، وأمه عمرة بنت ربيعة أخت عبد الله بن ربيعة ، والنعمان —

وقيل : إنه كان والياً في حمص ، فاجتاز بالمرعة ، فمات

— وأبوه وأمه صحابيون ، شهد أبوه بشير العقبة الثانية وبدرأً وأحدأً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وبعثه في سرية إلى فدك في شعبان ، ثم بعثه في شوال نحو وادي القرى ، وهو أول أنصاري بايع أبا بكر ، واستشهد مع خالد بن الوليد بعين التمر بعد انصرافه من اليمامة سنة ١٢هـ أو سنة ١٣هـ . وأما النعمان فإنه ولد على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة ، وهو أول مولود من الأنصار بعدها ، وروي له عن النبي ﷺ مائة وأربعة عشر حديثاً ، وروى عنه ابنه بشير ومحمد والشعبي وآخرون ، وكان كريماً جواداً شاعراً ، استعمله معاوية على حمص ، ثم على الكوفة سنة ٥٩هـ ، ثم عزله يزيد عنها ، وولى مكانه عبيد الله بن زياد ، ثم بعثه إلى قومه في المدينة سنة ٦٢هـ ، لينضمهم عن مشاركة أهلها في الخروج على يزيد ، واستعمله على حمص . ولما مات معاوية بن يزيد ، كان على حمص ، فكان يدعو إلى ابن الزبير ، فاستمده الضحاك بن قيس ، فأمدته بشرحبيل بن ذي الكلاع ، فلما انهزم الناس من مرج راهط ، لحقوا بأجنادهم ، فانتبه أهل حمص إليها ، وعليهم النعمان ، فخرج هارباً ، وطلبه عمرو بن الجلي الكلاعي ، فقتله في أواخر سنة ٦٤هـ ، وقيل : في المحرم سنة ٦٥هـ ، وذكر في الإصابة ، أنه دعا إلى ابن الزبير ، ثم دعا إلى نفسه ، فواقعه مروان فقتله . ونجد ترجمته وأخباره وشيئاً من شعره في تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١ : ص ١٢٩ ، وأسد السادة لابن الأثير ٥ : ص ٢٣ ، والإصابة لابن حجر ٦ : ٢٤ ، وتاريخ ابن جرير الطبري ٦٠ : ١٧٦ ، ١٨٨ ، و ٧ : ٤٠ ، ٤٧ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١١ ، و ٥٢ ، و ٧٤ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١ : ٧٢ ، والأغاني للأصفهاني ١٤ : ١١٤ ، والكامل للبهرد ٢ : ص ٢٠٨ .

وقد ذكر بعضهم : أن قبر النعمان بن بشير في الطريق الممتدة بين حمص وسلمية (ج) .

له ولد فيها ، فدفنه ، وأقام أياماً حزيناً عليه ، فسميت به . وقيل :
لأنه تديرها ، فنسبت إليه ، وكانت قبل ذلك يقال لها : معرة
حمص ، ومن ذكر اضافتها الى النعمان بن بشير ابن خلكان ^(١) ،
والبلاذري ^(٢) ، وأبو الفداء ^(٣) ، وابن بطوطة في رحلته ^(٤) ،
وابن العديم ^(٥) ، وابن الأثير في الكامل ^(٦) .

(١) هو أحمد بن محمد البرمكي الاريبي المعروف بابن خلكان المتوفى
سنة ٦٨١ هـ ، له كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان فرغ من تأليفه
سنة ٦٧٢ هـ .

(٢) هو أحمد بن يحيى البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، له كتب منها :
فتوح البلدان ، وتاريخ الأشراف .

(٣) هو الملك المؤيد اسماعيل بن علي صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ،
له كتب منها : تقويم البلدان ، ومنها : المختصر في أخبار البشر رقبه على
السنين ، وانتهى فيه إلى سنة ٧٠٩ هـ .

(٤) هو محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ، المعروف بابن بطوطة ،
بدأ رحلته سنة ٧٢٥ هـ ، واستغرقت خمساً وعشرين سنة .

(٥) هو صاحب كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي ، المعروف بابن العديم ،
وابن أبي جراد المتوفى سنة ٦٦٦ هـ ، له كتب منها : بغية الطلب في
تاريخ حلب ، ومنها رفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري وورد اسمه :
كتاب الإنصاف والتجري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري .

(٦) هو أبو الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري
المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، له كتب كثيرة ، منها : الكامل في التاريخ أو تاريخ
الكامل ابتداء فيه من أول الزمان إلى سنة ٦٢٨ هـ .

وذكر ياقوت (١) هذا القول (٢) ، ثم قال (٣) : وهذا في رأيي سبب ضعيف لا تسمى بمثله مدينة . والذي أظنه انها مسماة بالنعمان ، وهو الملقب بالساطع ، وهو النعمان بن عدي بن غَطَفَان التوخي . وأنكر عليه ذلك ابن العديم ، فقال في الإنصاف والتحري عند كلامه على الساطع : « وبعض الجهال يقول : ان معرفة النعمان تنسب اليه ، وليس بصحيح ، بل تنسب إلى النعمان ابن بشير الأنصاري ، وكان والياً على حمص وقنسرين في ولاية معاوية وابنه يزيد ، ومات للنعمان بها ولد ، وجدد عمارتها ، فنسبت اليه ، وكانت أولاً تسمى ذات القصور » .

ثم قال : « وقيل إن سيّات كانت المدينة ، وهي أهلة ، فخرج ابن للنعمان بن بشير للتصيد ، وكان موضع المعرة أجمّة ، فافترسه السبع ، فجزع عليه ، وبنى له موضعاً عند قبره ، فبنى الناس لبنائه ، فسميت معرة النعمان لذلك ، وانما نسبت الجهال المعرة الى النعمان بن عدي المعروف بالساطع ، لأن أهلها كلهم أو بعضهم من بني الساطع ، فظنوا أنها منسوبة اليه » . ا هـ .

(١) هو ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، له كتب كثيرة ، منها : معجم البلدان ، ومنها : ارشاد الأريب الى معرفة الأديب ، والمشارك ، وغيرها .

(٢) أي إضافتها إلى النعمان بن بشير .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

وقال ابن العديم في بغية الطلب : « أخبرني القاضي أحمد ابن مدرك المعري ، فيما يأثره عن أهل معرة النعمان ، أن معرة النعمان انما نسبت الى النعمان بن بشير ، لأن موضعها كان أجمة قصب ، وكان سكنى أهل المعرة بسيّاث ، وهي كانت المدينة إذ ذاك ، وآثارها تدل على ذلك ، فخرج من سيّاث ولد النعمان يتصيد ، فافترسه الأسد عند الأجمة ، فدفنه في ذلك الموضع ، وبني منزلاً عند قبره ، وقال لأهل سيّاث : من يودني ، ويحب مرافقتي ، فليين له موضعاً عند الموضع الذي ابتنيته ، فبنى الناس معرة النعمان ، وسميت بذلك لما لحق النعمان من معرة الحزن على ولده .

ثم قال : قلت : والصحيح أن النعمان بن بشير جدد بناءها ، وزاد فيه ، واختارها للمقام أيام ولايته ، فنسبت اليه ، وقد كانت مدينة معروفة قبل ذلك ، فتحها أبو عبيدة ، وأكثر أهلها من تنوخ . ونقل انها منسوبة الى النعمان بن بشير ، لأن معاوية كان أقطعه اياها فنسبت اليه ، وستأتي تنمة كلامه عند الكلام على ذات القصور .

وقال أبو العباس الشَّريشي : « النعمان اسم للجبل المطل على
المعرة فأضيفت إليه ^(١) ». وقال مثل هذا ابن بطوطة ^(٢) .

وقال مغلطاي في تاريخ سلاطين مصر والشام في ذكر
ما فتحه الفرنج : « معرة النعمان بن المنذر » .

ونسبها آخرون الى النعمان بن امرئ القيس ، لأنه غزا
بلاد الشام غير مرة ، وأكثرَ المصائبَ والسي في أهلها .

هذا كلام طائفة من العلماء والمؤرخين في المعرة والنعمان .
ومن البين أن كل ما ذكروه من الوجوه والعلل في تسميتها
واضافتها ، قائم على الظن لا يستند الى شيء من الحقيقة ، وكله
بعيد عن الصواب . أما ما ذكره ياقوت ^(٣) من استبعاد اضافتها
الى النعمان بن بشير فواضح ، ولا يعرف في المعرة أجمة ،
وموضعها الآن بعيد عن أن يكون أجمة ، ولكن في شمالها وغربها
أودية يفيض فيها الماء في الشتاء وأول الربيع ، وفيها ركايا

(١) الشريشي : شرح المقامات للحريري ص ١٢١

(٢) ابن بطوطة الرحلة ٣٩

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥

ينبجس منها الماء فيجري على وجه الأرض أحياناً . وقد يحوز أن يكون فيها في القديم آجام ، لا أجمة . ولكن المعرة أعلى من هذه الأماكن ، وليس فيها ماء يسبح على وجه الأرض في وقت من الاوقات ، ولا يعرف فيها قبر لابن النعمان ، ولو كان هناك قبر لاحتفظ الناس به أو بآثاره ، كما احتفظوا بكثير من قبور الصالحين ، وإن لم يكونوا مقبورين فيها ، كما يزعم الناس في قبر أُوَيْسَ الْقَرْنِي ، على أن ياقوتاً ناقض نفسه إذ قال في مادة معرة النعمان ما تقدم من أنها منسوبة إلى الساطع ، وهو قبل الإسلام كما سيأتي . ثم قال في مادة « سِيَاث »^(١) : بكسر أوله وبعد الألف ثاء مثناة ، كانت بليدة بظاهر معرة النعمان ، وهي القديمة ، والمعرة اليوم محدثة ، كذا ذكره ابن المُنْهَذَّب في تاريخه ، واجتاز بها القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين المعري ، والناس ينقضون بنيانها ، ليعمروا به موضعاً آخر فقال :

(١) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٢٠٧ .

مَرَزْتُ بِرَسْمٍ فِي سِيَاثٍ فَرَاغَنِي بِهِ زَجَلُ الْأَحْجَارِ تَحْتَ الْمَعَاوِلِ^(١)
 تَنَاوَلَهَا عِبْلُ الذَّرَاعِ كَأَنَّمَا رَمَى^(٢) الدَّهْرُ فِيمَا بَيْنَهُمْ حَرْبَ وَائِلِ
 اُتْلَفَهَا^(٣) شَلَّتْ يَمِينُكَ خَلَهَا لِمُعْتَبِرٍ أَوْ زَائِرٍ أَوْ مُسَائِلِ
 مَنَازِلُ قَوْمٍ حَدَّ تَتَنَاحَدِ يَتَنَاهَدُ وَلَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْ حَدِيثِ الْمَنَازِلِ
 وذكر ابن العديم عن أبي العلاء المعري : أن هذا الشعر
 لأخيه أبي الهيثم عبدالواحد، وأنه كتبه على حائط من حيطان
 سيات وروايته :

مَرَزْتُ بِرَبْعٍ مِنْ سِيَاثٍ
 وسيأتي في ترجمة زيد بن أبي الهيثم انه مرَّ على سيات ،
 وهي قرية إلى جانب معرة النعمان خراب ، فوجد رجلاً يهدم
 أبنية بها ، ويستخرج منها حجارة ، فكتب على حائط من
 حيطانها بمعول :

مَرَزْتُ بِرَبْعٍ
 وكانت وفاة أبي الهيثم سنة ٤٠٥ هـ ، وهذا يدل على أن

(١) ذكر هذه الأبيات ابن العديم في الإنصاف والتحري ، انظر تعريف
 القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٤ . وفيه : « برقع من سيات .. » .
 (٢) في الإنصاف : « جنى الدهر .. » .
 (٣) في الإنصاف : « اتملفها .. » .

سياثاً لم تزل آثارها باقية إلى هذا العهد ، وأن المعرة كانت عامرة .
ويدل على أن المعرة كانت عامرة قبل الإسلام ، معروفة
بهذا الاسم ، ما ذكره ياقوت ^(١) ، وابن الشحنة ^(٢) ، والبلاذري ^(٣) ،
وغيرهم ، ففي كلام هؤلاء الآتي أن في المعرة قبر عبدالله بن
عمار بن ياسر الصحابي ، وقبر يوشع بن نون ، وأن أبا عبيدة
لما فرغ من فتح حماة مر بالمعرة سنة ١٥ هـ ، فصالح أهلها
على صلح أهل حماة .

فهذا يدل دلالة صريحة ، على أن المعرة كانت عامرة ،
وكانت تسمى بهذا الاسم قبل الإسلام . أما نقض أهلها
بنيان سياث ليعمروا به موضعاً آخر ، فلا يوجب أن يكون
ما يعمرونه به مدينة المعرة نفسها . بل ربما كانوا يزيدون به في
بنائها ، وأهل المعرة إلى هذا اليوم كلما عثروا على بناء قديم ، نقلوا
حجارته ، وبنوا بها بناء جديداً . وكثيراً ما أذهبوا هياكل عظيمة ،
ومحووا معالم جليلة في نظر التاريخ وعلماء الآثار في سبيل ذلك .

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥ .

(٢) ابن الشحنة : الدر المنخب ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

وأما قول من قال : ان النعمان الذي أضيفت اليه هو جبل ، فلا نعرف جبلاً يطل على المعرة مسمى بهذا الاسم ، بل لا يطل عليها جبل مطلقاً ، وانما يتصل بها من الغرب جبل صغير يقال له : جبل عَطَّال ، ويتصل بها من ناحية الشمال جبل يقال له : المقاطع ، ويتصل بجبل الزاوية ، وكان يقال له : جبل بني عَلَيم ، وهو على مقربة من مكان يقال له : المَحْتَا ، ويقال : إنَّ فيه قبر شيث عليه السلام ، ولا يبعد أن يكون شيث محرّفاً عن سِيَاث ، وعنده عين ماء يقال لها : عين آسية .

وربما كان اسم واحد من هذين الجبلين النعمان ثم غيّر ولكن ذلك يحتاج الى نص تاريخي ، ولا يجوز بناء الحكم فيه على الظن وحده ، على أنني سمعت من بعض اهل المعرة ان الجليل الغربي الذي يقع غربي وادي الخطيب إلى النخيا ، يقال له : النعمان ، ولكنني لم أعرّ على ما يؤيد ذلك ، وكذلك إذا قيل : إنها مضافة إلى النعمان بن المنذر ، أو النعمان بن امرئ القيس ، لا يمكن أن يعول عليه حتى يؤيده دليل ، ولم نعثر على هذا الدليل .

وأما إضافتها الى النعمان بن عدي الملقب بالساطع فهي كغيرها
تحتاج إلى ما يؤيدها ، وقد ذكروا ان تنوخ ملكوا عليهم الساطع ،
وكانت له وقائع وحروب مع ملوك الفرس ، ولما هلك تفرقت
كلمة تنوخ ، وتنازعوا الرياسة بعده ، ثم غزا ملك الفرس الروم ،
فاكثر فيهم القتل والسيي وخراب العامر ، فاستنجدوا بتنوخ ،
فقاتلوا مع الروم ، ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس
منفردين عن جند الروم . فأجابهم إلى ذلك ، فقاتلوا الفرس
وظفروا بهم ، فأعجب بهم ملك الروم وقربهم وأقطعهم
سورية وما جاورها من البلاد الى الجزيرة ، وسورية مدينة
بقرب الأخص .

وهذا يدل على أن الساطع لم يقدم المعرة ، وإنما تملك
ومات أو قتل في العراق ، ومن البعيد أن تنسب إليه مدينة
وهذه حاله ، ولعل ياقوتاً نظر الى أن المعرة كانت صليبة تنوخ ،
أي فيها جمعهم المستكثر ، وأن جمهرة المؤرخين ذكروا أن
المعرة كانت لتنوخ ، وأن كل أهلها أو جلمهم من بني الساطع ،
فزعم أنها منسوبة إليه .

وقد يشهد لهذا القول ما سيأتي عن البلاذري وغيره ، من أن تنوخ كان لهم حاضر قنشرين ، مذ أول ما تنخوا بالشام ، نزولوه وهم في خيم الشعر ، ثم ابتنوا المنازل ، ثم دعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم ، وأن تنوخ قدموا مع أبي عبيدة ، فنزلوا منبج ، وسورية ، وحماة ، ومعرة النعمان ، وكفرطاب ، وغيرها ، وكانوا نصارى ، فامتنعوا عن أداء الجزية ، وأنهم قدموا على عمر لما قدم الشام ، فدفع فريق منهم له الجزية على اسم الخراج ، وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبي العلاء ، وأجداد بني الفصيص ولاية قنشرين .

ولكن ذلك كله ليس فيه ما يدل على قدوم الساطع المعرة ، أو نسبتها إليه ، بل يدل على أن المعرة كانت تسمى بهذا الاسم قبل الإسلام .

وفي المعرة أرض يقال لها : الساطعية إلى يومنا هذا ، وهي في شمالي المعرة ، ولكنني لا أعلم إلى أي ساطع تنسب .
والغالب على الظن أنها تنسب إلى ساطع بن عبد الباقي بن المحسن التنوخي من بني أبي حصين ، كان شاعراً مجيداً ، مقرباً عند الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب ، مرض في حلب ، وحمل إلى المعرة فمات في الطريق سنة ٦٢١ هـ .

إضافتها الى حمص :

ذكر فريق من المؤرخين أن هذه المدينة كان يقال لها :
معرة حمص ، ثم أضيفت الى النعمان بن بشير ، منهم صاحب
الوفيات ^(١) ، والبلاذري ^(٢) ، وأبو الفداء في حوادث سنة ١٥ هـ ^(٣) ،
وابن بطوطة في (رحلته) ^(٤) ، وقال ابن الأثير في (الكامل) ^(٥) : معرة
حمص ، وهي معرة النعمان نسبت بعد الى النعمان بن بشير الأنصاري .
وقال ياقوت ^(٦) : إنها من أعمال حمص .

وقالوا : إن سبب إضافتها إليه ، أنها كانت مضافة إليه مع
حمص في خلافة معاوية ، أو أن ولده توفي فيها على نحو ما ذكرنا .
وفي (المسالك والممالك) لابن خردادبه ^(٧) : من أقاليم حمص
أقليم معرة النعمان ، وأقليم كَفَرطاب ، وأقليم تل مَنَس .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٤٢ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ١٣١ .

(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١ : ١٦٨ .

(٤) ابن بطوطة : تحفة النظار ٣٩ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ٢ : ٢٠٨ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥ .

(٧) ابن خردادبه : المسالك والممالك ٧٥ .

اضافتها الى حلب :

ذكر الواقدي في (فتوح الشام ص ١٠١) : أن أبا عبيدة ضم لخالد بن الوليد أربعة آلاف فارس ، وقال له : شنّ بهذه الكتيبة ، واقصد بها المعرة ^(١) ، واقرب من معرة حلب ، وشنّ بها الغارة على بلد العواصم .

تسميتها بذات القصور :

وذهب جماعة من المؤرخين إلى أنها كانت تسمى ذات القصور ، ثم نسبت الى النعمان بن بشير ، منهم : ابن العديم في (الإنصاف والتحري ^(٢)) . ونقل في (بغية الطلب في تاريخ حلب) عن أبي عبد الله محمد المسعودي أنه قال ^(٣) : معرة النعمان منسوبة الى النعمان بن بشير الصحابي ، كان والي حمص ، والعواصم ، وتلك النواحي ، وكانت المعرة قديماً تسمى ذات القصور ، فلما مات للنعمان ابن هناك قيل لها : معرة النعمان . ونقل عز ، أبي الحسن الهـرّوي أنه قال : كان اسمها قديماً ذات

(١) كذا في الأصل . (ج)

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٧ عن الإنصاف - لابن العديم .

(٣) المصدر السابق ص ٥٨٨ عن بغية الطلب - لابن العديم .

القصور ، فنسبت الى النعمان بن بشير ، لأن ابنه مات بها ،
وقال : وبلغني من غيره ان التي تعرف بذات القصور هي معرة
مَصرين ، والأول أصح .

وقد سماها ابن الوردي في قصيدته الضادية ذات القصور ،
وذلك حيث يقول :

سَلَامٌ عَلَى ذَاتِ الْقُصُورِ وَأَهْلِهَا وَمُسْتَقْبَلٍ مِنْ حُسْنِ حَالٍ وَمَا مَضَى ^(١)

وأما شيخ الروبة ^(٢) فقد قال في كتابه (نخبة الدهر) : معرة
النعمان وتعرف بذات القصرين ، ولعل ذلك تحريف من النساخ ،
لأن المشهور أنها ذات القصور .

المعرة من العواصم :

قال ياقوت في (معجم البلدان) ^(٣) : العَوَاصِمُ حصون موانع ،
وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية ، وقصبتها أنطاكية ، كان قد بناها

(١) ابن الوردي : الديوان ٣٢٢ .

(٢) شيخ الروبة : نخبة الدهر ٢٠٥ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٧٤١ .

قوم واعتصموا بها من الأعداء ، وأكثرها في الجبال ، فستبت بذلك .
وقال البلاذري (ص ١٣٨)^(١) : فلما استخلف أمير المؤمنين
الرشيد هرون بن المهدي ، أفرد قنشرين بكورها ، فسير ذلك
جنداً واحداً ، وأفرد منبج ، ودُكوك ، ورعبان ، وقورس ،
وأنطاكية ، وتيزين ، وسماها العواصم ، لأن المسلمين يعتصمون
بها ، فتمنعهم إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر ،
وجعل مدينة العواصم منبج ، فسكنها عبد الملك بن صالح بن
علي سنة ١٧٣ هـ ، وبنى بها أبنية .

وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان)^(٢) : ومن الأماكن المشهورة .
بالشام العواصم ، قال ابن حوقل : وأما العواصم فاسم الناحية ،
وليس موضعاً بعينه يسمى العواصم ، وقصبتها أنطاكية^(٣) . وعدت
ابن خردادبه^(٤) العواصم فكثرتها ، وجعل منها كورة

(١) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٨ .

(٢) قال المؤلف : من نسخة خطية في مكتبي . كتبت سنة ٧٤١ هـ .
وانظر للسنة المطبوعة .

(٣) في المسالك لابن حوقل ص ١١٩ النص الآتي : « والعواصم اسم الناحية
وليس بمدينة تسمى بذلك وقصبتها أنطاكية » .

(٤) ابن خردادبه : المسالك والممالك ٧٥ .

منبج ، وعد منها شيزر ، وأفاميّة ، وإقليم معرة النعمان .
وقال ابن خلّكان^(١) في ترجمة علي بن محمد بن بسام الشاعر :
والعواصم كورة متسعة بالشام ، قصبتها أنطاكية ، وقد ذكرها
المعري بقوله :

مَتَى سَأَلْتُ بَغْدَادَ عَنِّي وَأَهْلَهَا فَأَنِّي عَنْ أَهْلِ الْعَوَاصِمِ سَأَلْتُ^(٢)
وإنما قال هذا ، لأن بلاد معرة النعمان من جملة العواصم .
وقال الطبري في (تاريخه) : إن هرون الرشيد عزل الثغور كلها
من بلاد الجزيرة وقنشرين ، وجعلها حيّزاً واحداً ، وسميت
العواصم ، وذلك في سنة سبعين ومائة للهجرة^(٣) .

وفي (صبح الأعشى) نحو من قول ابن حوقل السابق ،
وقال أيضاً : أول من سماها بذلك هرون الرشيد حين بنى
مدينة طرسوس سنة ١٧٠ هـ ، ثم قال : وذكر عماد الدين

(١) ابن خلّكان : وفیات الأعيان ١ : ٤٤٥ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٣ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٦ : ٤٤٤ .

صاحب حماة في تاريخه^(١) : أن الرشيد عزل الثغور كلها من الجزيرة وقنّسرين وجعلها حيزاً واحداً وسماها العواصم . وهذا موافق لقول الطبري ، وهو يقتضي أن تكون الثغور والعواصم اسمين لمسمى واحد .

وقال التبريزي في (شرح سقط الزند) عند قوله

وَلَكِنْ بِالْعَوَاصِمِ مِنْ عَدِيٍّ^(٢)...

إنه سأل أبا العلاء وقت القراءة عليه عن العواصم فقال : العواصم من حلب الى حماة ، لأنها حصون وجبال يعتصم بها الناس ، وفُسر العواصم بمثل هذا في غير موضع من شعره . ويشير الى هذا قول أبي العلاء الآتي :

فَأِنِّي عَنْ آلِ الْعَوَاصِمِ سَأَلُ^(٣) .

وغیره من الآيات .

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ١٣ .

(٢) صدر بيت من لامية في السقط مطلعها :

أعن وخذ القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا
وعجزه : « أمير لا يكلفنا السؤال » .

شروح سقط الزند : ق ١ ص ٨٥ .

(٣) صدره : « متى سألت بغداد عني وأهلها ... »

انظر ما سبق ص ٤٠ .

النسبة إليها :

قال السمعاني في (الأنساب) ^(١) عن أبي نصر الرامشي : أن النسبة الصحيحة إليها معرني ، وإلى معرة مسرين معرمسي . قال أبوسعدي : غير أن أكثر أهل العلم لا يعرف ذلك .

وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان) ^(٢) : « قال في اللباب : ومعرة النعمان مدينة من الشام . وقال السمعاني في الأصل ، أعني كتاب (الأنساب) : والنسبة إلى المعرة معرني ، قال : لأن ثم معرتين : معرة النعمان ، ومعرة نسرين ، فالنسبة إلى الأولى معرني ، وإلى الثانية معرني . غير أن أكثر أهل العلم لا يعرف ذلك . أقول : إني رأيت هذا النقل في الأنساب ، ولم أجده في اللباب » اهـ .

وأنا أقول لعل هذه النسبة رأي ارتآه قائله للتفرقة بين النسبة إلى البلديتين ، ولكن لا نعلم أحداً نسب إلى واحدة منهما على هذه الصورة ، لا في القديم ، ولا في الحديث .

(١) السمعاني : الأنساب ق ٥٣٦٢ .

(٢) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

والتسوية في النسبتين توجب أن يقال : معمرى ، أو معرنوى ،
أي أن يؤخذ الحرف الأول والثالث من مسرين أو نسرين ،
كما أخذنا من نعمان . وقد رأيت اختلاف الرواية بين مسرين
ونسرين والمشهور الآن مَصرين . ورأيت أن النسبة غير جارية
على قاعدة مطردة في الأسماء كلها ، وإن أحداً لم ينسبها على هذا
النمط ، وهذا كله يدل على أن هذا الرأي لم يرضه غير قائله ،
ولم يكتب له الرواج عند أحد ، والمعروف منذ القديم أن
النسبة إلى معرة النعمان معري فقط ، وعليه يدرج المتأخرون
اليوم .

المقدمة :

١ - الذي يظهر من كلام المؤرخين والأدباء ، أن هذه
المدينة كانت موجودة قبل الإسلام ، بدليل ما تقدم من أن
بعض التوخين أقاموا في ديارهم لما دفعوا الجزية باسم الخراج ،
ومنهم أجداد أبي العلاء ، وولاة قنشرين .

وقد قال أبو الفداء : إن ملوك غسان كان ابتداء ملكهم

قبل الإسلام بأكثر من أربعمئة سنة ، وكانت قبلهم في الشام
قبيلة يقال لها : الضجاعة ^(١) .

وقال القلقشندي ^(٢) : ومن الناس من يطلق تنوخ على
الضجاعة ودؤس الذين تنتخوا بالبحرين .

وقال الحمداني : ولتنوخ بقايا بالمعرة من بلاد الشام . وقال
مرة أخرى : إن المعرة من بلاد الشام هي صليبة تنوخ .

وقال السمعاني : تنوخ اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً
بالبحرين ، وتحالفوا على التوازر والتناصر ، وأقاموا هناك ،
فسموا تنوخاً ^(٣) ، والتنوخ الإقامة ، وجماعة منهم نزلوا معرة
النعمان ^(٤) .

وقال اليعقوبي ^(٥) نحواً من هذا .

ويمكن أن نستخلص من مجموع هذه الأقوال ، أن التنوخيين
كانوا في المعرة قبل الإسلام بقرون كثيرة .

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١ : ٧٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ١ : ٢١٨ (ج) .

(٣) كذا في الأصل . (ج)

(٤) السمعاني : الأنساب ١ : ١١٠ .

(٥) انظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٥٤١ ، ٦٠٧ .

وسياتي ما يدل على أنها كانت عامرة أيضاً قبل أن ينزلها
التوخيون .

٢ - يمكن الجمع بين الروايات المتناقضة بأن يقال :
إنها كانت تسمى في القديم معرة النعمان ، وذات القصور ،
كما يقال : دمشق ، وجلِّق ، والفيحاء . ثم لما جعلت من
عمل حمص ، قيل : معرة حمص .

أما ما ذكره من الأسباب في تسميتها بالمعرة ، واشتقاقها
وإضافتها إلى النعمان ، فلا يمكن الجزم بشيء منه لما أسلفنا
ذكره ، ولئن ساغ لنا التماس وجه مقبول في معرة النعمان ،
فمن الصعب الشاق أن نجد مثله في معرة الصين ، ومعرة عليا ،
وبيطر ، وباش ، وغيرها . والغالب أن الأسماء لا تعلل ، وأن
التماس العلل لا يخلو من بعد عن الحقيقة ، على ما فيه من
التكلف والعنت .

٣ - أن المعرة من العواصم والثغور .

٤ - أن النسبة إليها معري ، وكذلك نسب إليها جماعة
كثيرون ، وإذا اقتصر على هذه الصورة في النسبة فهي المرادة
دون غيرها .

ذكر المعرة في شعر أبنائها وفي شعرهم :

أهل هذه المدينة كثيرو التغي بها والحنين إليها ، وقد لهج جماعة كثيرون منهم ، وتشوقوا إليها حين نزحوا منها ، أو بعدوا عنها . وذكروها في أشعارهم في مواطن الهزل والجد ، تارة بلفظ المعرة ، وأخرى بغير هذا اللفظ .

أما ذكرها بلفظ المعرة فقد وقع في كلام أبي العلاء في مواطن من شعره ونثره .

فمن الأول قوله في (سقط الزند) :

سَرَى بَرَقُ الْمَعْرَةِ بَعْدَ وَهْنٍ . قَبَاتَ بِرَأْمَةٍ يَصِفُ الْكَأَلَا^(١)
وقوله :

فَيَا بَرَقَ لَيْسَ الْكَرْخُ دَارِي وَإِنَّمَا دَمَانِي إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لَيْالٍ^(٢)
فَهَلْ فِيكَ مِنْ مَاءِ الْمَعْرَةِ قَطْرَةٌ تُغِيثُ بِهَا ظِمَانَ لَيْسَ بِسَالٍ

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٧٨

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٥ .

وقوله في اللزوم :

يُعَيِّرُنَا لَفْظَ الْمَعْرَةِ أَنَّهَا مِنْ الْعَرِّ قَوْمٌ فِي الْعِلَا غُرَبَاءُ^(١)

وقوله في رواية :

نَجَّى الْمَعْرَةَ مِنْ بَرَأَيْنِ صَالِحٍ رَبِّ يُفَرِّجُ كُلَّ ذَا مُغْضِلٍ^(٢)

وقال الأمير أبو الفتح الحسن بن أبي حصينة المعري :

وَزَمَانٍ لَهْوٍ بِالْمَعْرَةِ مُوْتَقٍ بِسَيِّئَاتِهَا وَبِجَانِبِي هَرَمَاسِهَا^(٣)

وقال في مرثية أبي العلاء :

وَعَجِبْتُ أَنْ تَسَعَ الْمَعْرَةُ قَبْرَهُ وَيَضِيقُ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْهُ الْأَوْسَعُ^(٤)

وقال أبو الحسن [علي] بن محمد بن الدويرة من أبيات تأتي

في ترجمته :

أهل المعرة تحت أقبح خلة وَيَهِيمُ أَنَاخَ الْخَطْبُ وَهُوَ جَسِيمُ

(١) أبو العلاء - اللزوميات ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٠ وفيه : « نجى المعاشر » .

(٣) ديوانه ٣٥٥/١ ،

(٤) ديوانه ٣٧٣/١ .

وقال محمود بن علي بن المهنا المتوفى سنة ٥٠٥ هـ بعد أن أخذ

الفرنج المعرة :

مَعْرَةُ الْأَذْكِيَاءِ قَدْ حَرِدَتْ عَنَّا وَحَقُّ الْمَلِيحَةِ الْحَرْدُ
فِي يَوْمِ الْأَثْنَيْنِ كَانَ مَوْعِدُهُمْ فَمَا نَجَا مِنْ خَيْسِهِمْ أَحَدُ
وقال أبو الهيثم أخو أبي العلاء :

أَدْرِكْ بِإِذْرَاكِ الْمَعْرَةِ مُنْجَةً تَفْنَى عَلَيْكَ مَخَافَةٌ وَحِذَارًا^(١)
وقال عبد الله بن محمد أخو أبي العلاء :

وَأَخْلِفْ بِأَنَّكَ لَا تَعُوذُ إِلَى الْمَعْرَةِ بِالطَّلَاقِ^(٢)
وقال أبو اليسر شاذان بن عبد الله حفيد محمد أخو أبي العلاء :

وَإِنِّي الْمَعْرَةَ مَسْرَعًا فِي سُرْعَةِ الْمَاءِ الْمَرِاقِ
لِلَّهِ حَسَنُ جَنَانِهَا بِالزَّهْرِ أَوْ رَوْضِ الرِّفَاقِ
وقال القاضي عبد الرحمن بن مدرك من حفدة أخو أبي العلاء :

مَا لِلْمَعْرَةِ مُشَبِّهٌ فِي أَرْضٍ مِصْرَ وَلَا عِירَاقِ

(١) البيت التاسع والعشرون من قصيدة ذكرها ابن العديم في الإنصاف ،

انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٦ .

(٢) البيت من مقطوعة في الإنصاف لابن العديم ، انظر تعريف القدماء

بأبي العلاء ص ٤٩٨ .

وقال النعمان بن وادع من حفدة أخي أبي العلاء المتوفى سنة ٥٠٠هـ :
 سَقَى اللَّهُ قَبْرًا بِالْمَعْرَةِ مُفْرَدًا سَحَابًا مِنَ الْغُفْرَانِ لَيْسَ بِمُقْلِعِ
 وقال عمر بن الوردى :

رَأَى الْمَعْرَةَ عَيْنًا زَانَهَا حَوْرٌ لَكِنَّ حَاجِبَهَا بِالْجُودِ مَقْرُونٌ^(١)
 مَاذَا الَّذِي يَفْعَلُ الطَّاعُونَ فِي بَلَدٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ بِالظُّلَمِ طَاعُونَ
 وقال :

لِي فِي الْمَعْرَةِ شَمْسٌ رِضَاهُ عَيْنُ مُرَادِي^(٢)
 فَلَا تَذْهُوهُ إِلَيَّ أَدْرَى بِشَمْسٍ بِلَادِي
 وقال :

مَعْرَةُ النُّعْمَانِ عَيْنِي إِذَا ذَكَرْتُهَا تُفْرِطُ فِي سَبِيلِهَا^(٣)
 كَمْ زَهْرَةٍ تَضْحَكُ فِي كُفِّهَا وَنَسَمَةٍ تَغْتُرُ فِي ذَيْلِهَا

(١) ابن الوردى : الديوان ١٨٥ وفيه :

« ما الذي يصنع الطاعون . . . » .

(٢) ابن الوردى : الديوان ٢٠٨ .

(٣) ابن الوردى : الديوان ٢١١ - ٢١٢ وفيه :

« . . . إِذَا فَكَرْتُهَا تُفْرِطُ . . . »

٢ (٤)

وقال :

لَيْتَنِي أُبْصِرُ الْمَعْرَةَ قَاعًا صَفْصَفًا كَالْقِفَارِ أَوْ كُثْبَانًا^(١)
لَوْ تَوَلَّى فِي يَوْمٍ الْاِثْنَيْنِ فِيهَا وَاحِدٌ طَلَّقَ الْحَيَاةَ ثَلَاثًا

وذكرها غير مرة في قصيدته التي يقول في مطلعها^(٢) :

قَفْ وَقَفَّةً الْمُتَأَلِّمِ الْمُتَأَمِّلِ بِمَعْرَةِ النُّعْمَانِ وَأَنْظُرْ بِي وَلِي
وكذلك ذكرها في قصيدته التي مطلعها^(٣) :

رَعَى اللَّهُ عَيْنًا بِالْمَعْرَةِ لِي مَضَى حَكَاهُ ائْتِسَامُ الْبَرْقِ إِذْ هُوَ أَوْ مَضَا
وذكرها عم والدي السيد أمين بن محمد الجندي في قصيدة مدح
بها الوزير المشير علي رضا باشا والي الشام ، وأرخ مساعيه بتلافي
أحوال المعرة ، وذلك حيث يقول :

وَلَمَّا قَدْ عَرَا الْمَعْرَةَ مِمَّا نَاهَا مِنْ طَوَارِقِ الْأَكْدَارِ
وَدَعَا جُلَّ رِيفِهَا مَسْكَنَ الْبُؤْسِ مِ وَقَدْ كَانَ مَوْطِنًا لِلْهَزَارِ

(١) ابن الوردي : الديوان ٢٨٠ ولعل كلمة « كُثْبَان » معرفة عن « كُثَيَّات »
« وسياث هي البليدة التي كانت بظاهر المعرة ودرست على حد قول
ياقوت في معجم البلدان .

(٢) هي في ديوانه ص ٢٦٢ (ج) .

(٣) هي في ديوانه ص ٣٢١ (ج) .

إلى أن قال :

كَيْفَ لَا وَهِيَ مِنْ أَجْلِ بِلَادِ الشَّامِ قَدْرًا فِي سَالِفِ الْأَعْصَارِ
سَادَ فِي مَدْحِ مَا تَبَا وَهَوَاهَا فِي الْبَرَائِيَا قَوَائِلُ الْأَشْعَارِ
جَبَلَتْ أَهْلَهَا عَلَى الصَّدْقِ وَالنَّخْوَةِ وَالْجُودِ وَالْوَفَا وَالْبِدَارِ
لَيْسَ يُشْنِيهِمُ التَّعَسُّفُ عَمَّا حَاوَلُوا مِنْ مَكَارِمٍ وَفَنَاءِ
وقال خال والدتي السيد محمد بن السيد عمر اليوسفي من أسرة

السيد يوسف الشهيرة بالمعرة :

إِنَّ الْمَعْرَةَ وَالَّذِي فَلَقَ النَّوَى بَلَدُهَا أَهْلُ الْمَكَارِمِ لَمْ تَزَلْ
يَأْمَنُ نَجَاهُ فَضْلَهَا سَفْهَا فَسَلْ رَكْبًا بِأَطْلَالِ الْحِمَى فِيهَا نَزَلْ
وقد ذكرتها في قصيدة تشتمل على وصف أماكن فيها ، ووصف
أيام الصبا التي قضيتها فيها ، وعلى وصف أهلها والحنين إليهم وإليها
منها قولي :

يَا صَيْبَ الْمَزْنِ مِنْ سَارٍ وَمُبْتَكِرِ حَيِّ الْمَعْرَةَ فِي الْأَصَالِ وَالْبُكْرِ
دَارُ قَضَيْتُ بِهَا عَهْدَ الصَّبَا مَرَحًا خَلَوُا مِنْ الْهَمِّ وَالْأَوْصَابِ وَالْكَدْرِ

تَحَالُ أَرْجَاءُهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مُلْتَفَّةً مِنْ نَسِيجِ الدَّهْرِ فِي أَزْرِ

تَحَالُ أَنْ الرِّبْعَ الغَضَّ حَلَّ بِهَا فَلَمْ يُفَارِقْ مَعَانِيهَا وَلَمْ يَسِرْ

إِذَا النِّسِيمُ عَلَى وَاْدِي النِّسِيمِ سَرَى وَمَا جَ مَا فِيهِ مِنْ نَجْمٍ وَمِنْ شَجَرٍ
حَسِبْتَ بَحْرًا خِصْمًا جَاشَ فَاضْطَرَبَتْ

أَمْوَاجُهُ مِنْ صُنُوفِ الزَّهْرِ وَالشَّعْرِ
فَالْعَيْنُ تُبْصِرُ أَمْطًا مُنْمَقَةً مِنْ الْأَزَاهِرِ فِيهَا مَتْعَةُ الْبَصَرِ
وَالْأُذُنُ تَسْمَعُ لَحْنَ الطَّيْرِ سَاجِدَةً كَأَنَّهَا هِيَ أَعْوَادُ بِلَا وَتَرٍ
وَالْأَنْفُ يَنْشَقُّ مِنْ أَرْجَائِهِ أَرْجَا مُجِيبِي النُّفُوسِ بِرِيَا زَهْرِهِ الْعَطِيرِ
وَالْمَاءُ يُنْشِدُ شَعْرًا فِي تَحْدِيرِهِ فَتَكْتُبُ الرِّيحُ فَوْقَ الْمَاءِ بِالْإِبْرِ

وَأِنْ نَظَرْتَ إِلَى وَاْدِي الْجِنَانِ وَمَا حَسِبْتَ أَنَّ جِنَانَ الْخُلْدِ قَدْ كُسِيتَ
بِحِمَا فَتَيْهِ مِنَ الرُّوضَاتِ وَالْخَضِرِ مِنْ سُتُودِ قَبَدَتِ فِي أَرْوَاعِ الصُّورِ

يَفِيضُ فِي جَوْفِهِ الْهَرَمَاسُ مُصْطَلِحِيَا كَالْبَحْرِ مُنْهَدِرًا مِنْ رَأْسٍ مُنْهَدَرٍ
فَيَمْلَأُ الْعَيْنَ حُسْنًا فِي تَكْسِيرِهِ وَيَمْلَأُ الْعَيْنَ مِنْ مُسْتَعَذِبٍ نَمِيرٍ

وَفَتْنَةٍ كَيْتِيمٍ الدُّرُّ فِي شَرَفٍ لَابِلٌ هُمْ كَالدَّرَارِيِّ الْغُرِّي فِي الْخَطَرِ
صَحِبَتْ مِنْهُمْ مَغَاوِيرًا جَحَاجِحَةً غُرًّا مَيَّامِينَ لَا يُرْمُونَ بِالْخَصْرِ
مِنْ كُلِّ أَرْوَاعٍ فَوْقَ الدُّرِّ مَنْطِقُهُ مَا يَبْنِي مُنْتَظِمٍ مِنْهُ وَمُنْتَشِرٍ

وَكُلُّ أَذْهَرٍ فَوْقَ الْغَفْرِ^(١) مِنْهُ وَإِنْ أَقَامَ عَلَى الْغِبَاءِ وَالْعَفْرِ^(٢)

فَقُلْ لِغَيْرِ تَغَايٍ عَنْ مَا يُرِيهِمْ وَمَا لَهُمْ مِنْ حِجِلِ الذِّكْرِ وَالْأَثَرِ
سَلِ الْمَنَابِرَ هَلْ مِنْ قَبْلِهِمْ سَمِعَتْ أَوْ أَبْصَرَتْ أَسْدًا يَنْطَفِنُ بِالْذَّرْرِ
وَسَائِلِ الْخَيْلِ هَلْ مِنْ قَبْلِهِمْ عَرَفَتْ فِي الْحَرْبِ أَسْدًا بِلَا نَابٍ وَلَا ظُفْرِ
وَسَائِلِ الْأَرْضِ هَلْ مِنْ قَبْلِهِمْ دَرَجَتْ فِيهَا مَلَأَتُكَ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ

أُولَئِكَ الْقَوْمُ قَوْمِي لَا أَرَى شَبَهًا فِي الْمَكْرُمَاتِ لَهُمْ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ
وَتِلْكَ الدَّارُ دَارِي لَا أَرَى بَدَلًا يَهَاوُ لَوْ كَانَ فَوْقَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

وذكرها جماعة منهم في نثرهم ، منهم : أبو العلاء ، فقد ذكرها

في رسائله وكتبه ؛ مرة بلفظ المعرة كما في (رسالة المنيع
ص ١٥ ، ١٦)^(٣) و (ص ٨١)^(٤) ومرة أخرى بلفظ معرة النعمان

(١) الغفر : من منازل القمر .

(٢) الغفر : ظاهر التراب .

(٣) يقول أبو العلاء في ص ١٥ : « لنشرت المعرة صحف الافتخار ... »

وفي ص ١٦ : « ولعل المعرة قد نظرت أصح النظر ... » .

رسائل أبي العلاء لشاهين عطية .

(٤) يقول في رسالة بعث بها إلى أهل معرة النعمان : « هذا كتاب إلى

السكن المقيم بالمعرة . . » انظر الرسائل شرح شاهين عطية .

كما في رسالته إلى خاله أبي القاسم (ص ٦٧)^(١) . ومرة ثالثة بلفظ
البلدة المضافة الى النعمان كما في رسالته الى القاضي أبي الطيب حيث
يقول (ص ١٠٠)^(٢) : « مِنْ « الْمُسْتَقَرِّ فِي الْبَلَدَةِ الْمُضَافَةِ إِلَى
النَّعْمَانِ » . وفي (رسالة الاغريض ص ٥٢)^(٣) : « وَغَيْرُ مَلُومٍ
سَيِّدُنَا نَوْ أَعْرَضَ عَنْ شَقَائِقِ النَّعْمَانِ الرَّبْعِيَّةِ ، وَمَدَائِحِ
الْيَرْبُوعِيَّةِ ، مَلَلًا مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ الْمُضَافِ إِلَى هَذَا الْاسْمِ » .
وقال في (الفصول والغايات ص ٣٠٧) : « مَا أَنَا وَالْبَلَدَ الْمُضَافَ
إِلَى النَّعْمَانِ بَعْدَ صُجْبَةِ قُرَيْطٍ وَالْهَرَّاجِ » .

وذكرها في (رسالة الغفران) بلفظ معرفة النعمان في (ص ١٣٥)
و (ص ١٩٢)^(٤) .

(١) يقول : « ... ورسا ثبير ، من معرفة النعمان ، ولكل نبا مستقر » .
الرسائل - شرح شاهين عطية .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق وفيه : « ... ملاك من أهل البلد المضاف ... » .

(٤) رسالة الغفران طبعة أمين هندية سنة ١٣٢١ ويقول في ص ١٣٥ :

« رُئِيَ يَصْلِي بِمَوْضِعِ مَعْرِةِ النَّعْمَانِ ... » وفي ص ١٩٢ : « كَانَ حَقُّ
الشَّيْخِ إِذَا أَقَامَ فِي مَعْرِةِ النَّعْمَانِ سَنَةً ... » .

وأما لفظ العواصم فقد جاء في كلام أبي العلاء ، منه قوله
في السقط :

مَتَى سَأَلْتُ بَغْدَادُ عَنِّي وَأَهْلَهَا فَأَنْتَ عَنِ أَهْلِ الْعَوَاصِمِ سَأَلْتُ^(١)
وقوله فيه :

نَدِمْتُ عَلَى أَرْضِ الْعَوَاصِمِ بَعْدَمَا غَدَوْتُ بِهَا فِي السَّوْمِ غَيْرَ مُغَالٍ^(٢)
وقوله فيه :

تَذَكَّرَنْ مِنْ مَاءِ الْعَوَاصِمِ شَرِبَةً وَزُرْتُ الْعَوَالِي دُونَ زُرْقِ جَمَامِهِ^(٣)
وقوله في اللزوم :

لَوْ قَامَ أَمْوَاتُ الْعَوَاصِمِ وَحْدَهَا مَلَأُوا الْبِلَادَ حُزُونَهَا وَسُوءَهَا^(٤)
وله أبيات يذكرها فيها من غير أن يصرح باسمها ، كقوله
في السقط :

وَمَا بِلَادِي كَانَ أَنْجَعَ مَشْرَبًا وَلَوْ أَنَّ مَاءَ الْكَرْنِخِ صَبَّاهُ جَرِيَالًا^(٥)

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠٧ .

(٣) المصدر السابق ق ١ ص ٨٥ .

(٤) لزوم ما لا يلزم ص ٢٠٧ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٤ والجريال : صبغ أحمر وماء الذهب ، وسميت الحمر جريالاً لشبهها بالذهب ومائه .

وقوله فيه :

لَدَى مَوْطِنٍ يَشْتَأُهُ كُلُّ سَيِّدٍ وَيَقْصُرُ عَنْ إِدْرَاكِهِ الْمُتَطَاوِلُ^(١)

وقوله فيه :

فَيَا وَطَنِي إِنَّ فَاتِنِي بِكَ سَابِقُ مِنَ الدَّهْرِ فَلْيَنْعَمْ لِسَاكِتِكَ الْبَالُ^(٢)
فَإِنْ أَسْتَطِيعَ فِي الْحَشْرِ أَنْكَ زَائِرًا وَهَيْهَاتَ ذَلِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْغَالُ

وأما ذات القصور ، فلم أجدها ذكرا إلا في بيت
ابن الوردي المتقدم .

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٢٧ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٨ .

المِعْزَةُ فِي الْقَدِيمِ

لم نقف على شيء تثق به من أخبار المعرة قبل أن يمتد فوقها رواق الإسلام ، ولا أحطنا علماً بما بلغت إليه من العمران والمدنية في القرون الخالية ، ولا بمن نبغ فيها من العلماء والعظماء . وجل ما نعلمه من ذلك أنها جزء من سورية ، اشترك معها فيما تعاقب عليها من الأطوار والأدوار ، وانضوى تحت اللواء الذي كان يرفرف فوق أرجائها الفسيحة التي كانت منذ برأ الله الخليقة ولم تنزل إلى يوم القيامة مطمحاً لأنظار الغزاة والفاطحين ، وميداناً تطحن فيه المطامعُ الدولَ والأمم ، ومجزرة للبشر يقرب فيها القوي الضعيف ضحية لأطباعه وشهواته ، وقد شهدت هذه البقعة المباركة من الوقائع والفضائع ما لم يشهده غيرها ، وضمت بين جوانحها من الأنبياء والملوك والأبطال والعظماء ما ينخيل إلى المرء أن أديم أرضها من تلك الاجساد ، وها نحن أولاء نقص عليك طرفاً من نبأ

الأولين ، وإن كنا لا نجزم بصحة شيء منه ، ولا نتحمل عهدة فيه غير صحة النقل عمن كتب في تاريخ سورية خاصة ، أو فيها وفي غيرها عامة . على أنه وإن لم يطابق كله الصواب ، فإن القارئ يجد فيه من اللذة والاستطراف ما يحده في قراءة الاساطير ، وإنما غایتنا من ذكره أن نبين أن سلسلة الحروب والتنازع في هذه الدار متصلة الحلقات منذ فطر الله الناس عليها ، وأن حب الاستئثار والتمتع بتربتها الطيبة ومائها العذب وهوائها السجسج ، كان من أكبر العوامل في درس معالمها وتقويض أركان حضارتها ، ولم يزل علة العلل في تطاحن الأمم من أجلها ، ولو أتاحت لها النجاة من أطماع الفاتحين ومخالب الطامعين إلى مدينتها الزاهرة ، لكانت مثلاً جامعاً لمدينة البشر وتقلبه في جميع أطواره .

المعرة أو سورية قبل الطوفان :

زعم بعض الباحثين أن المعرة ، وهي جزء من سورية ، كانت أهلة بالناس قبل الطوفان اقربها من مهد الانسانية ، ولطول العهد على وجود البشر وحياتهم فوق ظهر البسيطة ، فإن بين

آدم والطوفان ما يقرب من ألفي عام ، بحسب ما جاء في بعض الكتب السماوية ، ولكن تعاقب العصور وعدم العثور على شيء من آثار الأمم التي كانوا يقطنونها ، جعل تاريخها أخفى من السهي ، وجعلنا لا نستطيع الجزم بشيء مما يقال .

بعد الطوفان

وأما بعد الطوفان فقد كان أيضاً في منتهى الخفاء والغموض ، حتى اكتشف الخط الهيروغليفي والمسماري وغيرهما ، فأرشد الباحثين والمنقبين إلى معرفة كثير ممن كانوا لا يُعلمون من الدول والأمم ، وأزاح النقاب عن كثير من القضايا التاريخية كانت مجهولة أو مبهمه ، حتى زعم بعضهم ان الحثيين ، وهم الأمة التي امتد سلطانها من جنوبي سورية إلى البحر الأسود شمالاً ، وحاربت فراعنة مصر وملوك آشور وبابل ، لم يعلم من أمرها شيء قبل ذلك . ومتى تم اكتشاف تلك الخطوط وما أشبهها ، تسنى للباحث أن يرى من أخبار الأولين وآثارهم ما يكاد يعد من ضروب المحال . واليك خلاصة مما ذكره المؤرخون عن سورية بعد الطوفان ، وهو غاية ما انتهى إليه البحث ، وأرشد إليه التنقيب في زعم هؤلاء الزاعمين .

استيلاء الكنعانيين على سورية ودمولهم إليها :

زعموا .. أن الآراميين من أبناء سام بن نوح كانوا يقطنون سورية ، وكانت مساكن الكنعانيين في سواحل الخليج الفارسي كالقطيف والبحرين . وكانت لهم في تلك الأصقاع مدينتان عظيمتان ، تدعى إحداهما صورا والثانية اروادا ، فشببت بينهم وبين ملوك بابل حرب اضطرتهم إلى هجر منازلهم ، فرحلوا إلى سورية وسكنوا في السواحل ، وسموا بلدين صورا وأروادا باسم تينك البلدين ، ثم تغلبوا على الآراميين ، وتفرقوا في أنحاء سورية إلى أربع فرق ، أقامت إحداهما في بلاد فلسطين . والثانية في سواحل الشام ما بين جبل لبنان والبحر وهم الفينيقيون . واستولت الثالثة على الديار المصرية ، ومنهم الملوك العمالقة . وتوغلت الرابعة في الجهة الشمالية من الشام وسكنت في وادي نهر الأرونت ^(١) « العاصي » وهذه أعظم الفرق قوة وعدداً ، وكانوا يسمون الجثيين نسبة إلى حث بن

(١) وفي تاريخ حص لعيسى أسعد ١ : ٥٩ : من أسماء العاصي اورانتس وارونط ، وسماء أبو الفداء : الارنط .

كنعان بن حام بن نوح ، وذلك قبل ميلاد عيسى عليه السلام بنحو ألفين وخمسمائة سنة ، وكانت قادس عاصمة ملكهم ، وهي بلدة عظيمة كانت في بحيرة حنص . ورسخت قدمهم في هذه البلاد ، وعظمت دولتهم ، إلى أن غزا سورية توتمس الاول أحد فرائنة مصر ، وأخضع بلاد الحثيين والسوريين عامة ، وبلغ الفرات ، وذلك في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، ثم هب السوريون لمحاربة المصريين ، فالتقوا بتوتمس الثالث سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ولكنهم لم يفلحوا ، ثم غزاها ثانية وأخذ من اهلها ذهاباً كثيراً وعبيداً وبقراً وغيرها .

ولما ولي مصر توتمس الرابع غزا بلاد الحثيين ، وقتل كثيراً من رجالها ، وأخذ منها غنائم جمّة . وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد غزا رعمسيس الاول ملك مصر سورية ، فلما بلغ وادي العاصي لقي فيه جيوشاً جرارة ، يقودها سابات ملك الحثيين ، فأوجس في نفسه خيفة منهم ، وصالحهم على أن تكون كلتا الدولتين رداً للأخرى ، ودام ذلك حتى ملك مصر ساتي بن رعمسيس المذكور ، فأجلب على السوريين بنخيله

دولتهم على يد بُخْتَنْصَر ملك بابل، وكان ابتداء استيلائهم على سورية قبل ميلاد عيسى بنحو أحد عشر قرناً . ولم أقف على شيء من عاداتهم وآثارهم في سورية .

استيلاء الآشوريين على سورية :

وفي سنة ١١٣٠ قبل الميلاد غزاة تجلت قلاصر^(١) ملك بابل بلاد الحثيين ودوخها ، كما وجد ذلك منقوشاً على تمثال في بابل بعبارة هذا معناها « أنا تجلت قلاضر المحارب الشريف ذلك بلاد سويير الفسيحة ، وقد استحوذ أربعة آلاف من فصائل الحثيين العصاة على مدينة سوبرتا ، فروعتهم مخافة سلاحه ، فأذعنوا وذلت رقابهم لنيري ، فغنمت أموالهم وأخذت مائة وعشرين من مركباتهم ووهبتها لرجال بلادي ، وجيشت جنودي المظفرة ، وزحفت الى بلاد ارام وسرت الى مدينة « كركميش » في بلاد الحثيين ، فعبرت الفرات ، ووضعت بهم ملحمة كبرى ، وغنمت من عبيدهم وأموالهم ما لا يدركه عدد ، وافتتحت بعض مدنها ونهبها وحرقتها ، وسرت الى جبل اللكّام . فنكلت بأهلها ونهبت أموالهم فدانوا لي صاغرين » اهـ .

(١) في تاريخ حص لعيسى أسعد : ١ : ١٧٠ تغلت بلاسر .

ورجّله ، وأتى في طريقه على العرب فخضد شوكتهم ، ثم دخل سورية ، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، وافتتح قادس بعد حرب ضروس ، ولكن ذلك لم يفتّ في عضد الحثيين ولم يوهن عزائمهم ، فقد كانوا يدافعون عن أوطانهم دفاع الأبطال ، ثم تصالح الفريقان على أن تعاد إلى الحثيين أملاكهم المغصوبة ، وإن لا يظهر ملكهم موتار مظهر العداء للمصريين ، ولم تكد تطفئ هذه الجذوة الملتبهة من قبل المصريين ، حتى شبت من جهة بابل وبنوى وما إليها ، واندلع لهيب الأطماع من تلك الأصقاع ، وتداعت جيوش الفتح الى سورية تداعي الجياع إلى القصاص .

استيلاء بني إسرائيل على سورية :

ذكر أبو الفداء^(١) وغيره من المؤرخين : أن داود - عليه السلام - استولى على سورية ، وفتح فيها فتوحات كثيرة من أرض فلسطين وعمان وماب و حلب ونصيبين وغيرها ، وامتدت شوكة الاسرائيليين في ذلك الحين ، وبقيت في حوزتهم الى أن انقرضت

(١) أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر ١ : ٢٥٠ .

وفي سنة ٨٨٣ ق.م غزا سورية ملك بلاد الاشوريين البابليين « آشور نسيربال » ووجدت غزوته هذه منقوشة في صخرة ، وقد ذكر فيها أنه سار بجيوشه على جانبي العاصي أياًما ، إلى أن بلغ لبنان ، وأنه قهر أكثر ملوك سورية وأخضع بلادها . ثم غزاها بعده ابنه سلمناصر ، حتى وادي العاصي ، وقتل ألفاً وستمائة رجل ، وأسر أربعة آلاف واستاقهم الى نينوى ، فتبعته سكان العاصي بجيوش عظيمة ، فأعاد عليهم الكرة ، وقتل بهم فتكاً ذريعاً ، ولم يزل سائراً بجيوشه حتى بلغ حماة ، فخرج لمحاربه ملكها ايدكولينا ، وانضمت اليه ملوك سورية ، وفيهم اخاب ملك الاسرائيليين وتسعة ملوك أخر ، فتغلب على السوريين ، وقتل أربعة عشر ألفاً من رجالهم ، ثم تبعه أهل دمشق ، فقتل منهم عشرين ألفاً ، وأراد قتل ملكهم فهرب إلى البحر ونجا بنفسه .

ثم ملك بلاد الاشوريين بعد سلمناصر حفيده « نير » فأغار على السوريين .

وفي سنة ٧٤٥ ق.م تولى ملكة الاشوريين تجلت قلاصر الثاني ، فسار إلى سورية بجيوش عظيمة ، وضعضع أهلها ،

واستسلم اليه « انبال » ملك حماة ، وأسر منها ومن غيرها الوفأ
واستاقهم إلى بلاده ، ثم عاودها ثانية ، فخرّب البلاد وهلك
وقهر خمسة وعشرين ملكاً من ملوك سورية .

وفي سنة ٧١٧ ق.م ملك بلاد الآشوريين سرعون ، وكانت
بينه وبين الحثيين شحناء تغلي مراجلها ، فأغار على بلادهم ، وقتل
من رجالهم عالماً لا يحصى عدده ، وأخذ من نجا من القتل
أسيراً إلى بلاده ، فأسكنهم نينوى عاصمة الآشوريين ، وأسكن
من قومه أناساً غيرهم في بلادهم ، وبذلك انقرضت مملكة الحثيين
في وادي العاصي ، وأصبحت مساكنهم خالية منهم كأن لم تغن
بالأمس ، ثم انتشر بعدهم الآراميون سكان دمشق الأقدمون
المنسوبون إلى سام ، فلهذا يطلق على السوريين عامة اسم الساميين ،
لأن سكان وادي العاصي وصور وأزواد ، وإن كانوا من ذرية
حام ، إلا أنهم انقرضوا ، واندمج من بقي منهم في الساميين
وغيرهم ، فمن يسمون بالآراميين نسبة لأرام بن سام .

نقايب الحثيين وعاداتهم وعباداتهم :

أما صنائعهم فأعظمها العهارة ، ونحت الحجارة ، واتقان

التحصين واستخراج المعادن الحديدية ، والزراعة ، وغرس
الأشجار وصناعته وغيرها .

وأما أزيائهم فقد كانوا يلبسون ثوباً قصيراً له شقان طويلان
من جانبيه ، يشدون في وسطه نطاقاً يضعون فيه الخنجر ، وكانوا
يلبسون في رؤوسهم قبعة طويلة ، مستديرة على الرأس ، مخروطة
من فوق ، يحزمونها بمناديل ملونة ، فيها نقوش غريبة ، وكانوا
لا يحلقون لحاهم ، وإنما يحلقون رؤوسهم ، ويتركون في وسطها
قرعة ، ويتخذ الرجل منهم حلقة في أذنه ، وأما نساؤهم فقد
كانت تلبس ثوباً طويلاً يستر الكعبين ، يشدون عليه حجاباً
ويعقدونه من خلف .

وأما أسلحتهم فهي الفأس ذو الحدين ، والرمح ، والقوس ،
والعصا ، وأما أشكالهم فقد كانوا يبيض الوجه مشربة بحمرة .
وأما عاداتهم فقد كانوا يحتفلون بالميت كثيراً ، فيستأجرون
النائحات عليه ، ويدفنون معه أعز شيء عنده ، ويضعون في القبر
شيئاً من الزيت ، وينزلون مع المرأة حليها وثيابها الفاخرة ،
وكانوا ينحتون القبر حجراً كبيراً كالصندوق على قدر حجم

الميت ، ويقفون حوله ، ثم يهيلون عليه التراب ، ولهم في كل اسبوع مجتمع حافل يبيعون فيه ويشترون ، ويقدم اليه خلق كثير من الأماكن القريبة .

وأما عباداتهم فقد كان السوريون جميعاً يعبدون الصنم المشهور المسمى بَعْل ومعناه الاله ، ويعتقدون انه هو الاله . وهو في نظر العوام منهم ذات الشمس أو المشتري وكانت مدينة بَعْلَبَك محلاً لعبادة السوريين عامة ، وقلعتها بيت للصنم القديم ، كانوا يؤمنونه من كل فج عميق في أيام معلومة ، وينهمكون في أحوال وحشية من الرقص على نغم المزامير والطبول ، ويحلبون أنفسهم بالسياط إلى أن تسيل الدماء ، وربما قطع الواحد منهم يده أو رجله ، وذبح الأب ولده ، ونذرت المرأة اباحة نفسها مدة من الدهر تقرباً للصنم ، وكانوا لا يأكلون السمك ، ويحترمون الطيور ، وكان في حصص هيكल للصنم ، ويقال : ان أهل حماة كانوا يعبدون صنماً يسمى سيبا .

استيلاء اليونان على سورية :

وفي نحو سنة ٣٣٢ قبل الميلاد استولى الاسكندر اليوناني على

من عهد الحكومة التي أعقبت اليهود في الاستيلاء على سورية مخالفة لهم . وكان الرومانيون إذا مات لهم ميت حملوه في نعش ، ومشوا أمامه يحملون تمثاله وتماثيل أسلافه ، ويعضون في فم الميت شيئاً من النقود ليعطيها للشخص الموهوم المسمى شارون ، يزعمون أنه موكل بنقل الأموات الى نهر الموت ، وان هذه النقود أجرتة ، فإذا انتهوا إلى مكان دفنه ، أخذت الكهنة ماء ورشوا به من كان مع الجنازة ، وكانوا يحرقون أمواتهم ، فيطرحون جسم الميت على حطب مرتب على شكل مذبح ، ثم يدور الحاضرون حوله بكل هدوء وسكينة ، على أصوات الآلات الموسيقية ، ثم يأتي أحد أقرباء الميت بشعلة من نار فيضرم الحطب ، وأناس يلقون الطيب والروائح الطيبة ، حتى إذا احترق الميت أطفأوا النار بالحمر ، ثم جمعوا الرماد ، ووضعوه في اناء ثمين ، ودفنوه مع الميت . وكان من عادتهم انهم يطرحون مع الجندي سلاحه ، ومع المرأة حليها .

وفي سنة ٦١٥ بعد ميلاد عيسى - ﷺ - غزا كسرى ملك الفرس سورية ، وباع المسيحيين من اليهود بأبخس الأثمان ،

سورية ، وبقيت تحت حوزة اليونانيين إلى ما قبل الميلاد
بنحو ٦٢ سنة .

استيلاء الرومانيين على سورية :

وفي سنة ٦٤ قبل ميلاد عيسى تم استيلاء الرومانيين على
سورية ، وعظمت شوكتهم فيها ، ونشروا في أرجائها لواء الحضارة
والعمران ، فازهرت البلاد وازداد سكانها ، واخصبت جميع
أنحائها ، وقد كانت في عهدهم جنة زاهرة .

عادات الرومانيين :

كان الرومانيون كغيرهم من الأمم التي كانت قبلهم
يتخذون يوماً من الاسبوع ، يجتمع فيه أهل القرى للبيع
والشراء ، وأهل المعرة اتخذوا يوم السبت إلى يومنا هذا للبيع
والشراء ، فتزى أهل القرى الضاحية والبلاد القرية ، كادلب
وأريحا ، وجسر الشُّعر ، يؤمنونها من كل حذب وصوب ، يبيعون
فيها سلعهم ، ويبتاعون هيرتهم وما يحتاجون إليه . ولا أعلم
السبب في اتخاذ يوم السبت دون غيره إلا أن يكون موروثاً

فأما تواتر كثير منهم بأنواع من العذاب ، ثم انتصر عليه هرقل ،
وثار عليه أكبر أبنائه المسمى شيرويه ، وصالح هرقل ، وأطلق
سبيل الأسرى الرومانيين .

ولاشك ان المعرفة كان لها نصيب وافر من كل فاجعة ،
لأنها على مفترق الطريق ، فإن لم يصبها وإبل منه فطل .

المعرفة في الإسلام :

تقدم أننا لم نقف على شيء من أخبار هذه المدينة قبل
أن يمتد فوقها رواق الإسلام ، ولا أحطنا علما بما كانت عليه
من الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية والدينية في تلك
القرون الخالية .

ولا وقفنا إلى معرفة أحد من أبنائها النابغين في تلك العصور .
وكل ما أمكن معرفته بطريق الاستنباط من الأقوال
المجمل والمقايضة بالآثار الماثلة هو ما يأتي :

ان التوحيين كانوا نصارى ، فلما جاء أبو عبيدة امتنعوا
عن أداء الجزية . ولما سار عمر - رضي الله عنه - إلى الشام قدموا
عليه فقال : ما أقنع منكم إلا بالدخول في الإسلام أو

السيف ؛ وأمهلم سنتين ثم الزمهم الجزية ، فأبوا عليه وقالوا :
خذ المال منا على اسم الصدقة دون اسم الجزية ، فأبى ، ثم قبل
أن يأخذها على اسم الخراج ، فاستجاب له قوم منهم ، وأقاموا
بديارهم . ومنهم أجداد أبي العلاء ، وأسلم بعضهم في أيام
أبي عبيدة وبعضهم في أيام المهدي .

ولا نعلم من المعاهد الدينية النصرانية في المعرة الا موضعين ،
أحدهما : كنيسة الاعراب وقد ذهبت معالمها ، وأصبحت محلة
معروفة بالكنيسة ، وهي في الجهة الغربية من المعرة .

والثاني : الكنيسة العظمى وهي التي جعلت مسجداً ، بمقتضى
الصلح كما سيأتي . وأما حالتها السياسية ، فقد كانت عملاً
من أعمال الرومانيين ، خاضعة للنظم والأوضاع التي كانت
ترزح تحتها سائر المدن الشامية قبل أن تنضوي تحت
راية الإسلام .

وكذلك حالتها الاجتماعية شبيهة بحالة الأمصار التي يقطنها
العرب في ذلك العهد ، وتسيرها النظم الرومانية .

وقد سلف أن الروم استنجدوا بتَنُوخ لما تغلب عليهم
الفرس ، فأبلوا بلاء حسناً في قتالهم ، ثم تولوا قتالهم منفردين
عن جند الروم فظفروا بهم ، وأن ملك الروم فرق فيهم الدنانير
وقربهم وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد إلى الجزيرة .
وسياقي إيضاح ذلك مفصلاً ، وهو يدل على أن حالتهم كانت
شبيهة بالبدواة وإن كانوا حضرا .

. ولم نقف على شيء يمثل لنا الحياة العقلية فيها في ذلك
العصر ، لأن تاريخ هذه المدينة مبعثر في بطون الكتب ، ولم
نعثر على تاريخ خاص بها ، أو تاريخ يوضح لنا ذلك كما تقدم .
ويسعنا أن نقول بطريق الإجمال : إن هذه المدينة جزء
من البلدان الشامية ، تعاقب عليه ما تعاقب عليها من الكوارث
التي كانت تنتابها من الغزاة والفاثحين من قتل وحرق وهدم
وسي وما شاكل ذلك من الفظائع التي يقتربها ذئاب البشر .
وأن هذه البقعة المباركة لم تزل مطمحاً لأنظار الطامعين
في تضحية البشر في سبيل شهواتهم ، كبقية الأصقاع الشامية .

وقد شهدت من الحروب الدامية والوقائع والفظائع ما شاهده
غيرها من غزاة الفراعنة ، والآشوريين ، واليونانيين ، والفرس ،
والرومانيين ، وغيرهم .

وبلاد الشام طيبة التربة ، غنية الماء ، نقية الهواء . وقد
كانت ولم تزل طريقاً تلتقي فيها الأمم ، وميداناً تتطاحن في
سبيل الاستئثار به الدول . ولعل هذا علة العلل في تقويض
حضارتها القديمة ، وطمس معالمها الزاهرة ؛ ولو أتيت لها
النجاة من مخالب الطامحين إليها ، لكانت لوحاً جامعاً لمدينة
البشر وحضارته المختلفة في عصوره المتعددة .

وقد ذكر المؤرخون أن الرومانيين استولوا على بلاد الشام سنة ٦٤
قبل ميلاد عيسى — ﷺ — ، واشتدت شوكتهم فيها ، ونشروا في
أرجائها الفسيحة حضارتهم ، فازدهرت وأخصبت ، حتى
أصبحت جنة زاهرة . وإن المكان المعروف بالبلعاس كان
في عهدهم كورة عظيمة ، ذات قرى أهلة ، وأشجار مشمرة .
وكانت لهم عناية عظيمة في زرع الزيتون والعنب .

وفي المعرة وضواحيها كثير من معاصر الزيتون والعنب ،
مبينة تحت الأرض . ومنها ما يرجع إلى عهد الرومانيين .
وفيه كثير من آثار الهياكل الضخمة ، والنواويس المنقورة
في الجبال وفي باطن الأرض .

وأهل المعرة ينسبون إلى الرومانيين كل ما عثروا ويعثرون
عليه من تلك الآثار ، مع أن منها ما هو قبل الرومانيين ،
ومنها ما هو إسلامي ، والسبب في ذلك جهل الناس بمعرفة
الآثار وما عليها من النقوش والكتابة ، فيرون أقرب شيء
إليهم نسبتها إلى أقرب أمة كانت مستولية عليها قبل الإسلام ،
وهم الرومانيون ، ويشجعهم على ذلك كثرة ما للرومانيين من الآثار
الحالدة في المدينة وضاحيتها .

المعرة بعد الإسلام :

لما افتتح أبو عبيدة دمشق ، أتى مدينة حمص فصالح أهلها
واستخلف عليها عبادة بن الصامت الأنصاري ، ثم مضى نحو
حماة فصالح أهلها على الجزية في رؤوسهم ، والخراج في أرضهم ،
وجعل كنيسهم العظيم جامعاً ، ثم مر بالمعرة ، وقد خرج إليه

أهلها يقلسون بين يديه ، فصالحهم على مثل صلح أهل حماة ، وذلك سنة خمس عشرة للهجرة^(١) ، وذكر ابن الأثير في الكامل^(٢) : أنه صالحهم على صلح أهل حمص ، وهو صلح أهل دِمَشْق ، وقد ذكر ابن جرير^(٣) : أنه صالح بعضهم على دينار وطعام على كل جريب أبدا ، أيسروا ، أو أعسروا ، وصالح بعضهم على قدر طاقته إن زاد ماله زيد عليه ، وإن نقص نقص وذلك سنة ١٥ هـ ، ثم استخلف معاوية بن أبي سفيان ، فولى النعمان بن بشير حمص ، وأضاف إليه المعرة كما سبق ، وكانت قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص ، حتى ولي يزيد بن معاوية ، فجعل قنسرين وأنطاكية ، ومنبج ، وذواتها جنداً واحداً .

ثم لما استخلف هرون الرشيد ، أفرد قنسرين بكورها ، فصيرها جنداً واحداً ، وأفرد منبج ، ودُلُوك ، وأنطاكية ،

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١ : ١٦٨ ، والبلاذري : فتوح البلدان

١٣٧ ، ١٣٨ ، ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٧٤١ ، ٧٤٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢ : ٢٤٢ (ج) .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٤ : ١٥٤ (ج) .

ومعرة النعمان وغيرها مما سبق ذكره ، وسماها العواصم ،
وذلك سنة ١٧٠ هـ ، وقد ذكر المقدسي في (أحسن التقاسيم في
معرفة الأقاليم) المؤلف سنة ٣٧٥ هـ ان معرة النعمان من مدن
قنشرين ، وقصبتها حلب^(١) .

ثم تعاقبت عليها دول مختلفة ، فكانت تارة من عمل حمص ،
وثانية من عمل حماة ، وثالثة من عمل حلب ، ورابعة اقطاعاً
لأمير . وكان لها في كل عهد نصيب وافر من قتل أهلها ،
وسبيهم ، وخراب عمرانها . وإذا سلمت في بعض السنوات
من مثل هذه الفظائع من الأمراء والملوك والمتغلبين ، نالت
نصيباً وافراً من عبث البداة وغاراتهم ، فإذا سلمت من كلا
الأميرين ، نالت قسطاً وافراً من ظلم الطبيعة وجورها ،
ما بين زلزال يقوّض أركانها ، وطاعون يفني سكانها ، وقحط
يبعد انسانها وحيوانها ، فإن سلمت من ذلك كله ، قام بمثل
هذا الواجب طاغية متغلب من أهلها ، ففعل فيها ما لا يفعله الزلزال
والطاعون والطبيعة .

وهي لا تزال الى هذا اليوم ، تنسج على هذا المنوال ،

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٥٤ .

وتحتذي على هذا المثال ، ومن استقرى ما لقينته من المحن والبلاء ،
يعجب كيف كتب لها الخلود إلى هذا العهد ، ولم تمح من
صحيفة الوجود .

وصف المعرة وتحميدها منذ الفتح الاسلامي الى هذا العصر :

لم أقف على شيء مفصل من أخبار المعرة يوضح كيف
كان عمرانها وحياة أهلها في صدر الاسلام وما بعده إلى
القرن الرابع .

وقد عثرنا على بعض نصوص تاريخية ، تشير بصورة مجملة ،
إلى ما كانت عليه من العمران والازدهار في القرن الرابع
فما بعده ، فأثبتناها على ما فيها من الاجمال والغموض ،
ليتضح لنا شيء من أحوالها ، إذ ما لا يدرك كله لا يترك كله ،
وهذا شيء من ذلك .

قال ابن حوقل البغدادي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ في (المسالك
والممالك) : والمعرة مدينة كثيرة الخير والسعة والتين والفسق
وما شاكل ذلك من الكروم .

ونقل عنه ابن العديم : أنها هي وما حولها من القرى أعزاء
ليس بنواحيها ماء جار ولا عين^(١) . وذكر ابن العديم : أنه شاهد
عين ماء من قبلي المعرة على الطريق بالقرب منها .

رحلة ناصر مفسر القبادباني^(٢) :

أنشأ رحلته من بلاده سنة ٤٣٧ هـ ، وعاد إليها سنة ٤٤٤ هـ ،
وقد وصف البلاد التي اجتاز بها ، ومنها معرة النعمان فقال :
وبعد ستة فراسخ عن سَرْمِين ، تقول لك معرة النعمان :
ها أنا ذه ، وهي مدينة أهلة بالسكان كثيراً ، ويحيط بها سور
من حجر ، وقد شاهدت بالقرب من باب هذه المدينة سارية
من الحجر ، كتب عليها بحروف غير عربية . فسألت أحدهم
عن ذلك ، فأجابني أن هذا طَلَسَم يحول دون العقارب ودخول
المدينة والبقاء فيها ، فإذا جيء بعقرب من الخارج ، وأطلق
يفر ويبتعد ، وقد رت أن هذه السارية كان علوها عشرة أذرع .

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ١١٨ .

(٢) ترجم هذه الرحلة طه حسين ، صاحب ذكرى أبي العلاء ، والراجح كوني
والاستاذ محمد كرد علي في مجلة المجمع ج ٢ مجلد ٦ ص ٦٦ وفي بعضها
مغايرة لبعض آخر (ج) .

وأسواق المعرة طافحة بالأرزاق والخيرات ، وجامعها الأعظم
مبني على أكمة قامت وسط المدينة ، ومن أي جهة اتجهت الى
هذا الجامع ، كان عليك أن ترتقي سلماً ذا ثلاث عشرة
درجة . ولا يزرع في هذه الجهات إلا الخنطة ، وتغل غلة
حسنة . ويكثر في قراها أشجار الزيتون والتين والفسق واللوز
والكرمة ، ومياه المعرة تجمع من المطر ، أو تمتاح من الآبار . اهـ
وذكر اليميني^(١) أن [ناصر خسرو] دخل المعرة في ١٣
رجب سنة ٥٤٣٨ هـ ، ولم يلبث فيها إلا يومين .

الطلسم الذي كانه في المعرة :

وهذا الطلسم ذكره غيره من المؤرخين ، قال ابن الشحنة^(٢) :
وبمعرة النعمان عمود فيه طلسم للبق ، ذكر أهل المعرة أن
الرجل كان يخرج يده وهو على سور المعرة إلى خارج
السور ، فيسقط عليها البق فإذا أعادها زال عنها . وأخبرني
رجل من أهلها قال : رأيت أسفل داري عموداً ففتحت موضعه

(١) اليميني : أبو العلاء وما اليه ص ٢٤٤ .

(٢) ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ١٢٩ ، ١٣٠ .

لأستخرجه ، فأنخرق إلى مغارة ، فأنزلت إليها إنساناً ظناً مني أنها مطلب ، فوجدناها مغارة كبيرة ، ولم نجد فيها شيئاً ، ورأيت في الحائط صورة بقّة ، فمن ذلك اليوم كثر البق في معرة النعمان . وذكر أهل المعرة أن حياتها لا تؤذي كما تؤذي غيرها ، ثم قال : وقال كمال الدين ابن العديم سمعت ابراهيم ابن أبي الفهم رئيس المعرة يقول : إن العمود القائم في مدينة المعرة هو طلسم الحيات ، وهذا العمود قائم مستقر على قاعدة بزرّة حديد في وسطه ، يميله الإنسان فيميل ، وكذلك تعمل فيه الرياح القوية ، وإذا مال يضع الناس تحته الجوز واللوز فينكسر . ١٥

وأمر هذا العمود غريب ، وتناقض الأقوال فيه أغرب . فقد جعله ناصر خسرو سارية بالقرب من باب المدينة ، وجعله طليماً للعقارب . وفي كلام ابن الشّحنة أنه عمود قريب من السور وهو طلسم للبق .

وفي كلام ابن العديم : أنه عمود يميله الانسان والريح ،

وهو طلسم للحيات ، وصاحب نهر الذهب جعلها عمودين :
أحدهما للبقر والثاني للحيات . ولعل هذا من المزاعم الموروثة
عند أهل ذلك العصر .

أما في عصرنا الحاضر فإن العقارب والأفاعي في المعرة أكثر
من الحصى عند جمره العقبة ، وهي تفتك فتكاً ذريعاً في
الناس ، وكثيراً ما أودت بحياة لدينها ، وإن البق - أي البعوض -
ينتشر في الصيف والخريف انتشاراً عظيماً ، وينقل جراثيم
الملاريا وغيرها ، وقل من سلم من أهلها منها ، وهو ينبعث من
المستنقعات والمراحيض المتكونة في المدينة وأطرافها .

وقد كانت في المعرة مستنقعات عظيمة ، منها : الرام الكبير ،
والرام الصغير ، وهما جنوبي المدينة ، ومنها : الهارب ، وهو
في عرفهم بحيرة تنصب إليها المياه القذرة التي تسيل من الحمامات .
وكان في المحلة القبلية هارب لحمام السيد يوسف ، وهذه البحيرة
نسقي بمائها الأرض المتصلة بها ، وفي البحيرة أقذار متراكمة
منذ مئات من السنين .

وكان في المحلة الشمالية هارب أعظم من هذا ، وهو شرقي
الجامع الكبير ، يفصل بينهما طريق من الشمال إلى الجنوب ،

وهذا الهارب تنصب فيه المياه التي تخرج من الحمام الصحتاني ،
والتي تخرج من حمام التكية ، والاقذار التي تفيض من مراحيض
الجامع الكبير . وهذه المياه لونها أسود ، وهي خائفة من كثرة
ما يخالطها من الاقذار والاساخ ، ويسقى بها زرع الأرض
المتصلة بها ، وتسمى أرض الهارب ، وما زاد عن السقي يذهب
في الأرض ويتبخر في الهواء ..

وقد عنت الحكومة في العهد الأخير بإزالة هذه المستنقعات
الضارة ، وقلّت الملاريا بسبب ذلك ^(١) .

وسياتي القول في زراعة المعرة ومياها وجامعها وأسواقها .
وذكر ابن جبير في رحلته سنة ٥٧٨ هـ : أنه خرج من
تسنرين يريد حمص ، قال : فرأينا عن يمين طريقنا بمقدار
فرسخين بلاد المعرة ، وهي سواد كلها بشجر الزيتون والفسق

(١) وقد باشرت بلدية المعرة في عهد ريسها الدكتور اكرم الخاني سنة
١٩٦٢ م بإنشاء مجاري عامة لمدينة المعرة ، وبعد من انشاء الفرع الجنوبي
منها ، وبلغت تكاليفه ما يقارب ٣٠٠٠٠ ثلاثين ألف ليرة سورية ، وسيباشر
قريباً بإنشاء الفرع الشمالي والفروع الداخلية ، وقد رصدت البلدية لهذه
الأعمال ١٧٨٠٠٠ مائة وثمانين وسبعين ألف ليرة سورية .

وأأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساآئنها وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهي أأصب البلاد وأكثرها أرزاقاً^(١) .

ونقل ابن العديم^(٢) عن أبي الفتح عبد العزيز ... بن زبيد المصري أنه قال : وصلت معرة النعمان ، فوجدتها واسعة الأسواق ، كثيرة الأرفاق ، صحيحة الهواء ، واسعة الفضاء ، مياهها غزيرة ، وفواكهها كثيرة ، وأهلها يميلون الى الخير والتعفف ، ويعيشون بالقناعة والتعفف ، وفيهم بعض الحمية ، وشيء من العصبية ، ولهم مع هذا معرفة بالشر والخصومة ، وعادة السعاية والنميمة ، غير أن ذلك لا يتعداهم ولا يتجاوزهم الى أأحدسواهم .

وقال ابن العديم في (بغية الطلب)^(٣) : قرأت بخط محمد بن أأحمد ابن الحسن الكاتب في روزنامج (أي كتاب الأخبار اليومية) أنشأه وذكر فيه رحلته من بلاد أذربيجان الى الحج ، وعوده منه ... قال فيه : ونزلنا سمرمين ، فاستقبلني القائد بها بالأكرام والانععام ، وركب في صحبتي الى معرة النعمان ، بل مقر الروح والريحان ، بل زهرة العين وألجنان ، بل معدن البيان

(١) ابن جببر : الرحلة ٢٣٤ .

(٢) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩٠ - ١ عن بغية الطلب لابن العديم .

واللسان والرجحان ، في الأدب والشعر والإتقان ، بل محل كل كريم وهيجان . وهي مدينة تبل غلة الظمان ، وتفثا غلة الغرثان السقبان .

وقال ابن واضح الكاتب : ومعة النعمان مدينة قديمة خراب ، وأهلها تنوخ^(١) .

وقال ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ^(٢) : هي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة ، مأوئم من الآبار وعندم الزيتون الكثير والتين .

وقال ابن بطوطة في رحلته (تحفة النظار)^(٣) التي أنشأها سنة ٧٢٥ هـ : والمعرة مدينة كبيرة حسنة ، أكثر شجرها التين والفسق ، ومنها يحمل الى مصر والشام .

وقال العريزي : هي مدينة جليلة عامرة ، كثيرة الفواكه والثمار والخصب ، وشرب أهلها من الآبار .

(١) انظر تاريخ يعقوبي ٢ : ٥٤١ ، ٦٠٧ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥ .

(٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ٣٩ .

ونقل أبو الفداء^(١) في (تقويم البلدان) قول العزيزي هذا ،
ونصه : ومعة النعمان مدينة جيدة عامرة

وقال محمد الانصاري شيخ الرّبوة^(٢) : معة النعمان وتعرف
بذات القصرين ، ولها عمل من أحسن الاعمال ، وهي شعراء^(٣)
ممدودة ، وغالب شجرها التين والفسق واللوز والمشمش والزيتون
والرمان والتفاح وكثير من الفواكه ، وسائرها يشرب من ماء
السبماء ، لا يعتني بفلاحته أكثر من الحرث تحتها ، وجبل الشماق
من أعمر الارض وأعملها فلاحا ، من رآه ورأى الاندلس ،
لم يفرق بين فلاحتها وفلاحة الاندلس .

وقال القزويني في (آثار البلاد) المتوفى سنة ٦٨٢ هـ : معة
النعمان بليدة بين حلب وحماة ، كثيرة التين والزيتون .
وقال ابن العديم في (بغية الطلب^(٤)) ما خلاصته : المعة مدينة
حسنة ، وكان لها سور من الحجارة ، وأبنيتها أبنية حسنة ،
وهي كثيرة الاشجار والفواكه ، لا سيما التين والفسق والزيتون ،

(١) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٥ .

(٢) شيخ الرّبوة : نخبة الدهر ٢٠٥ .

(٣) أرض شعراء : كثيرة الشجر .

(٤) انظر ما سبق ص ٨٣ .

وكان الفرنج هجموها ، وتشتت أهلها ، ثم فتحها أتابك زنكي
ابن آق سُنْقُر ، ورد على أهلها أملاكهم ، فعادوا إليها وسكنوها ،
وعمرت المدينة عمارة حسنة ، لكن سورها خرب .

وبنى بها الملك المظفر محمود بن ناصر الدين محمد بن عمر
شَاهِنْشَاه قلعة حسنة حصينة ، وانتزعها من يده الملك
صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز غياث ، فزاد في عمارتها
وتقويتها ، فقويت قلوب أهلها بالقلعة ، ورغبوا في عمارة البلد
وسكناء ، وهي اليوم من أعمار البلاد ، وقد صار أكثر عبور
القوافل عليها . وقد وصفها أبو العلاء في رسالة بَعَثَ بها إلى أمير فقال :
« وهذه جمل من صفة المعرة هي ضد ما قال الله عز وجل :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ^(١) ﴾ .
الآية .. اسمها طيرة ، وعند الله ترجى الخير ، المورِدُ بها مُحْتَبَسٌ
وظَاهِرُ ثَرَاهَا يَبَسٌ ، لَيْسَ لَهَا مَاءٌ جَارٍ ، وَلَا تَغْرَسُ فِيهَا
غُرَابُ الْأَشْجَارِ ، وَإِذَا أَنْبَرَزَ لِأَهْلِهَا ذَبْحٌ ، يُؤْمَلُ بِهِ لَدِيهِمُ
الرَّبْحُ ، تحسبه صيغ بخطر ، فَكَأَنَّمَا يَرْمُقُ بِهِ هِلَالَ الْفِطْرِ ،
وقد يجيئها وقت يكون فيه جَدْيُ الْمَعْرِ فِي الْعِزَّةِ كَجَدْيِ
الْفَرَقْدِ ، ومثل حَمَلِ الْكَوَاكِبِ حَمَلِ النُّهْدِ ، وَيُبَكِّرُ فَقِيرُهَا

على الهداية ، قَبَلَ أَبِي الْفَرَحْنِ ابْنَ دَايَةَ ، حتى يقف ببائع
الرسل ، فَكَأَنَّمَا وَقَفَ بِرِضْوَانٍ يَسْتَوْهِبُهُ مَاءُ الْحَيَوَانِ ، فَإِنْ
سَبَقَهُ ضِيَاءُ الْفَجْرِ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ خَائِباً ... » :

وهذا وصف حقيقي للمعرة في ذلك العهد ، وإن كان في
بعضه مبالغة ، وأكثره تبدل بتبدل الزمان . فإن العرة ليس فيها
ماء جار على وجه الأرض ، ولكن فيها ينابيع ثرارة في باطن
الأرض ، يستخرج ماؤها بواسطة الدواليب وغيرها ، فتألف منها
بساتين كثيرة ، وقد غرس فيها غرائب الأشجار التي يمكن أن
تعيش في إقليمها ، كالزيتون والرمان والخب والتين والفسق
واللوز والتفاح والخوخ والأجاص والكمثرى وغيرها ، ولكن
أكثره لا يدوم طويلاً ، لشدة الحر في الصيف والبرد في الشتاء .
وهناك أنواع من الشجر لا تعيش فيها كالنخل والموز والليمون
والبرتقال وما شاكل ذلك .

أما اللحم وما تولد من الحيوان ، فيكثر في زمن الربيع ،
ويقل في زمن الشتاء ، وكذلك كل نوع من المأكول ، يكثر
في موسمه ويقل بعد ذلك .

ولذلك أسباب كثيرة ، منها : بعد الأمصار العامرة عن
المعرة كحلب وحماة ، وقلة الوسائط لنقل الاقوات والارزاق
والسلع وتشعث الطرق ، وكثرة الاحوال فيها في الشتاء ، ولأن
أصحاب الغنم يبتعدون بها عن المدينة بعد زمن الربيع ، وهذا
شأن أكثر المدن في ذلك العهد .

أما في عصرنا الحاضر فهي كغيرها من البلاد الشامية ، تعج
أسواقها بالارزاق والغلات والثمرات التي تزيد عن حاجة
أهلها ، وعما يصدرونه إلى غيرها من المدن . وأهلها إلى هذا
العهد يبكر كل واحد منهم لأخذ ما يحتاج إليه من طعام
وشراب من الاسواق ، ثم ينصرف الى عمله ، والذي يحملهم
على التبكير ان الإنسان إذا بكر وجد الشيء الجيد والثمرات
الطيبة ، وإذا تأخر لا يجد غير الفضلات من كل شيء ، وربما
فقد حاجته في الاوقات التي يقل فيها الشيء ، أو في الاشياء
التي تجلب من خارج المدينة .

أما قلة الجدي والحمل واللبن على نحو ما وصف ، فلم نره
ولم نسمع به الى زمن هجرتنا من المعرة سنة ١٣١٩ هـ .

وقد وصف المعرة كثيرون في عهد أبي العلاء وبعده وقبله ، وتكاد تتفق كلمتهم على كثرة فواكهها وثمارها ، حتى ان منها ما يحمل إلى مصر والشام . ويجوز أن يكون اللحم في ذلك العهد قليلاً لسبب لم نعلمه ولم نسمع به .

وقد أهدى أبو العلاء بعض أصحابه شيئاً من الفستق ، وقال فيه : « وفي هذا البلد فستق رديء ، يسمى غيظ الجيران ومعنى هذا الكلام أنه إذا كسر ظن جيران السوء أنه ملآن ، فحسدوا عليه ، وهم لا يعلمون أنه فارغ ، وقد وجهت منه شيئاً ليعبث به أتباعه ، ولولا علمي بشرف أخلاقه وكرم نفسه لم أجسر على ذلك ، وما أولاه بأن يحبرني على العادة في التفضل إن شاء الله تعالى » اهـ .

وقد كانت في دارنا في المعرة شجرتان ، تحمل احدهما فستقاً كبير الحجم يتشقق لعظم قلبه ، ولا تحمل الثانية مثله ، ويسميا الناس ذكراً ، فاستثقلنا ما يسقط منها من الديدان والورق وقطعناها ، فصارت الأولى تحمل فستقاً فارغاً ، فصارت غيضاً لنا لا للجيران .

وما لاشك فيه أن قول أبي العلاء في الجدي والحمل واللبن
مبالغ فيه ، وإنما يراد به التقليل ، وقد استنبط الأستاذ الميمني
من قول أبي العلاء « إذا أبرز لأهلها ذبح ، يؤمل به الربح ... »
أن أهل المعرة يوصفون بالبخل ^(١) وأن القفطي يؤيده في قوله
الآتي ، وسيأتي ما يبطل القولين معاً .

وكذلك قول أبي العلاء : انه وجه شيئاً من الفستق الفارغ ..
لا يراد به حقيقته ، لأنه يبعد كل البعد أن يهدي ذلك ، وإنما
أراد تحقير شأن الهدية بالنسبة إلى عظم من أهديت إليه .
وقال في بغية الطلب : ومن أحسن ما وقع إلي في وصفها
آيات قالها الوزير أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن
المغربي ^(٢) ... والآيات :

مَا عَلَى سَاكِنِي الْمَعْرَةِ لَوْ أَنَّ ۲ دِيَاراً نَبَتْ بِهِمْ أَوْ طُلُوعاً

(١) الميمني : أبو العلاء وما إليه ص ١٨ .

(٢) هو الوزير أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن علي من ولد بهرام
جور ملك فارس ، ويعرف بالوزير المغربي ، أديب شاعر كاتب ، ولد سنة ٨٣٧٠
وتوفي سنة ٤١٨ هـ أنظر بغية الطلب ج ١ : ١٧٩ ، ووفيات الأعيان

يَسْكُنُونَ الْعُلَا مَعَا قِلَ شُمَا وَيَرُونَ الْأَدَابَ ظِلًّا ظَلِيلًا
 مَنَزِلٌ شَاقِي أُنَيْسٌ وَمَا كَا نَ دُسُومًا نَوَاحِلًا وَطُلُولًا
 حَيْثُ يُدْعَى النَّسِيمُ فَظًّا وَيُلْفَى سَبَلُ الْغَادِيَاتِ شَكْسًا بَخِيلًا
 أَيْنَمَا تَلْتَفِتْ نَجْدٌ ظِلٌّ طَوْبَى وَتَجِدْ كَوْنًا أَعْرَ صَقِيلًا
 تُرْبُهَا طَيِّبُ الشَّبَابِ فَمَا يَصُحَّبُ إِلَّا الشُّرُودَ فِيهَا تَخِيلًا
 فَتَرَى اللَّهْوَ إِنْ أَرَذْتَ طَلِيلًا وَالتَّقَى إِنْ أَرَذْتَ مَغْلُولًا
 وَإِذَا مَا اعْرَضَ بِهَا الْأَكْبُ الْعُذُ رِيٌّ جَاؤُوا عِمَارَةً وَقَبِيلًا
 كَيْتَ لَا يَعْنِفُ السَّحَابُ عَلَيْهَا كَيْتَهُ جَادَهَا عَلِيلًا كَلِيلًا
 وَسَلَامٌ عَلَى بَنِيهَا وَلَا زَا لَ نَعِيمُ الْحَيَاةِ فِيهِمْ نَزِيلًا
 وقال الاصطخري^(١) في المعرة : هي وما حوالها من القرى
 أعداء ، ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين . وقد تقدم نحو
 هذا عن ابن حوقل .

وقال ابن العديم في (بغية الطلب) : « وقد شاهدت عين ماء
 من قبلي المعرة على الطريق بالقرب منها » . اهـ

(١) الاصطخري : مسالك الممالك ٦١ .

وأنا أقول : لعل هذه العين هي العين التي عند مَرَحَطَاط وهي جنوبي المعرة على يسار الذهاب إلى حماة على بعد ساعة تقريباً من المعرة .

وقال صاحب التنوير في شرح قول أبي العلاء ^(١) :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْخَاضِ وَحَارِمٍ . كَتَّابُ يُشْجِنُ الْفَلَاحِيَّامُ
وَمَخَاض : نهر بقرب المعرة ، وكذلك قال الخوارزمي في
(ضرام السقط) ، وكذلك قال الفيرُوزَابادي في (القاموس)
والزبيدي ^(٢) في (تاج العروس) .

وقد نقتب كثيراً فلم أجد نهراً بقرب المعرة ، ثم رأيت
التبريزي يقول في (شرح سقط الزند) : المخاض نهر يخاض في
الأرض التي تعرف بالروج ، وهي قريبة من معرة النعمان ،
والتقى في هذا الموضع عسكران ، أحدهما للمسلمين ، وأمير
العسكر الذي للمسلمين بنجوتكين ^(٣) التركي ، الذي اصطنعه

(١) التنوير على سقط الزند ، وانظر شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٦٠٣ .

(٢) الزبيدي : تاج العروس ٥ : ٨٥ .

(٣) هكذا جاء في التبريزي والبطليني وفي غيرهما « منجوتكين » (ج)
وانظر شروح السقط ق ٢ ص ٦٠٣ .

أبو منصور نزار الملقب بالعزیز بن معد الملقب بالمعز ، فتقاتل
العسکران والمخاض ینہا ، ثم عبر المسلمون الیہم ، فانہزموا .
وذكر البَطَلِیُّوسِی فی (شرح سقط الزند) نحواً من هذا ، وقال :
المخاض نهر یخاض قریب من المعرة بأرض تعرف بالزوج .
وبما تقدم یتبین ان المخاض لیس بنهر ، ولا قریب من المعرة
قرب اتصال ، بل ینہا مسافة بعيدة .

وقد وصفها عمر بن الوردی المعری المتوفی سنة ٧٤٩ هـ فی
مواطن من شعره ، ووصف الطیعة فیها ، وذكر كثيراً من
الأماكن الجمیلة ، ومواضع التنزه ، وسمى بعض العیون التي
ینبجس منها الماء ، فقال من قصیدة مطلعها :

قِفْ وَفَقَّةَ الْمَسَائِلِ الْمُتَأَمِّلِ بِمَعْرِةِ الثُّغَمَانِ وَأَنْظُرِي وَلِي

* * *

[منها] :

يَا سَعْدُ زُرْ أَرْضَ الْمَعْرِةِ نَائِباً	عَنِّي وَسِرْ فِيهَا مَسِيرَ مُبْجَلٍ
وَأَدِي الْمَعْرِةِ فِي النُّفُوسِ مُعْظَمٌ	لَا سِيَّماً زَمَنَ الرَّيِّعِ الْمُقْبِلِ
هَرَمَاسُهَا لَمَّا تَخَضَّبَ سَيْفُهُ	بَعَثُوا إِلَيْهِ مِنَ النَّسِيمِ بِصَيْقَلٍ

* * *

[منها] :

وَأَرَى نَضَارَتَهَا وَبَابَ شَبَابِهَا ^(١) ضَمِنَا لِسَاكِنِهَا بِسَعْدٍ مُكْمَلٍ
 قَلْبِي لِعَيْنِ زُرَيْقٍ صَادِشِينَ مَنْ أَلِفَ الْعِتَابَ وَلَا مَ لَوْمْ مُضَلِّلٍ
 لَوْ زُرْتُهَا لَفَتَحْتُ بَابَ جَنَّاتِهَا وَأَقُولُ يَا نَفْسُ اطْمَئِنِّي وَادْخُلِي
 إِنَّ الْقُلُوبَ إِلَى الْقُلُوبِ مَشُوقَةٌ قَدْ أَذْكَرَتْهَا بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

وهي في ديوانه ^(٢)

ووصفها في قصيدة ثانية مطلعها :

رَعَى اللَّهُ عَيْشًا بِالْمَعْرِةِ لِي مَضَى حَكَاهُ ابْتِسَامُ الْبَرْقِ إِذْ هُوَ أَوْ مَضَا
 وَعَصَرَ شَبَابٍ فِي سِيَاثٍ قَطَعْتُهُ وَفِي أَرْضِ حَنْدُوتَيْنِ فِي ذَلِكَ الْفَضَا
 أَعَاذِلُ لَوْ شَاهَدْتُ بَابَ جَنَّاتِهَا لَمَّا كُنْتُ يَوْمًا نَاهِيًا بِلَ مُحَرَّرًا
 وَلَوْ عَايَنْتَ عَيْنَاكَ وَادِي فَضَالَةٍ عَذَرْتُ صَحِيحَ الْوُدِّ بِالْبُعْدِ مُمَرَّضًا
 وَلَوْ عَيْنَ مَعْرَاثٍ رَأَيْتَ صَفَاءَهَا لَا ضَبَحْتَ مِنْ غَيْظِ الْمَلَامَةِ رَيْضًا
 فَصِيفْ لِي عُيُونًا بِالْمُنَابِعِ قُبُضًا أَرِيكَ عُيُونًا بِالْمَدَامِعِ قُبُضًا
 وَلَا تَبْدُرَا بِالْبَيْدَرَيْنِ فَأُضْلِعِي أَخَافُ مِنَ الْأَشْوَاقِ أَنْ تَتَفَضَّضَا

(١) لعله : « سيافها » . (ج) .

(٢) ابن الوردي : اللسان ٢٦٢ (ج) .

وَلَا تُجْسِرْ بَالِي ذِكْرَ جَرِيَا وَنَحْوِهَا رَبِّي تَجَادَهَا غَيْثٌ فَرَوَى وَرَوْضَا
فَقُسْتُهَا عِنْدَ ابْتِسَامِ ثُغُورِهِ يُضَاحِكُ بَرَقًا قَدْ أَضَاءَ بِذِي الْأَضَا
وَقَلَعْتُهَا عِنْدِي وَإِنْ بَانَ أَهْلُهَا كَأَنَّ طَوْلَ مَنْ شَهِدِي عَلَيْهَا وَأَعْرَضَا
وَعَيْنُ زُرَيْقِي بِي إِلَى مَا نَهَا ظَلَمًا أَلَمْ تَرَ لَوْ أَنَّ أَلَمَاءَ أَزْدَقَ أَيْضًا
وَكَمْ لِعَلِيَّاتِ الْعَسِيلِ حَلَاوَةٌ وَإِنْ مَلَحَتْ فِي عَيْنٍ مَنْ مَرَّ مُعْرِضَا
وَشَوْقِي إِلَى أَنْوَارِ مَشْهَدِ يُوشَعٍ تَشَوَّقُ مَنْ ضَاقَتْ بِهِ سَعَةُ الْفَضَا
وَلَوْ ذُرْتُ وَادِي دَيْرِ سَمْعَانَ سَاعَةً لَكُنْتُ أَيْلَ الشَّوْقِ مِنْ عُمَرِ الرِّضَى
وَيَا مَا شِئًا فِي مُلْكِ فَارِسَ رَاجِلًا

سَعِدْتُ فَكُنْ عَنْ مُلْكِ فَارِسَ مُعْرِضَا
لَقَدْ طَالَ بِالْهَرَمَاسِ عَهْدِي وَمَا نِي إِذَا مَا جَرَى كَالسَّيْفِ أَحْمَرُ مُنْتَضَى
ثم وصف الهرماس وما يكتنفه في مجراه ، ومدح المعرفة
وأعرب عن حنينه إليها وأسفه لفراقها ، ثم قال :
سَلَامٌ عَلَى ذَاتِ الْقُصُورِ وَأَهْلِهَا وَمُسْتَقْبَلٍ مِنْ حُسْنِ حَالِهَا مَضَى
وهي في ديوانه^(١)

(١) ابن الوردى : الديوان ٣٢١ (ج) .

طول المعرة وعرضها :

وقال [القَلْقَشَندي] في (صبح الأعشى)^(١) في حدود حماة :
وحدّتها من الشمال آخر حدود المعرة من الغرب .
وذكر لها ثلاثة أعمال ، ثالثها عمل المعرة ، قال : وهي مدينة
من مُجَنَّدِ حِمص واقعة في الإقليم الرابع . قال في كتاب
الأطوال : طولها إحدى وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة ،
وعرضها خمس وثلاثون درجة .

وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان)^(٢) : القياس أن طولها إحدى
وستون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة
وخمس وأربعون دقيقة ، وتعرف بمعرة النعمان ...

أبواب المدينة :

قال في (الروض المعطار) : ولها سبعة أبواب ، باب حلب ،
والباب الكبير ، وباب شيث ، وباب الجنان ، وباب حمص ،

(١) القَلْقَشَندي : صبح الأعشى ٤ : ١٤١ (ج) .

(٢) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

وباب كذا^(١). قال : ويذكر أن قبر شيث بن آدم - عليه السلام -
عند الباب المنسوب إليه فيها ، وداخلها قبر يوشع بن نون عليه
السلام ، وعلى ميل منها دَيْرِ سَمْعَانَ^(٢) ، الذي به قبر عمر بن
عبد العزيز ...

ولعل البايين اللذين لم يذكرهما باب حُنَّاك ، وقد ذكره
أبوالمجد ابن ابن أخي أبي العلاء بقوله :
يَا مَغَانِي الصَّبَا بِيَابِ حُنَّاكِ لَا بِيَابِ الْغَضَا وَوَادِي الْأَرَاكِ^(٣)
وباب تَلَمَّسَ .

وقال الغزي في (نهر الذهب) :^(٤) وكانت المعرة بلدة
عظيمة ، تدل أطلال سورها على أن طولها ساعة في عرض
مثلها ، وكان لها من جهة القبلة باب يسمى باب نصره عند
تل كبير يذكر أن فيه كنزاً ، ومن جهة الغرب باب يدعى
باسم السيد شيث ، يبعد عن قلعتها نحو عشر دقائق ، وكانت

(١) مكدا في صبح الأعشى ج ٤ : ١٤٢ (ج) .

(٢) ويقال : دير سمعان بالكسر .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٣٤٩ .

(٤) كامل الغزي : نهر الذهب ١ : ٤١٩ .

القلعة في وسط البلدة ، ومن جهة الشمال باب يدعى باب
أبلّة ، عنده باب ضخم يدل على أنه من بناء السريان ، ومن
جهة الشرق باب يدعى باب مَنْس ، لأنه يخرج منه الى تَلْ
مَنْس ، وهي الآن قرية معروفة كان ظهر فيها عاديّات
زجاجية وأسس ضخمة اه .

هذا ما نقلته عن المتقدمين ولم تتبين فيه الأبواب السبعة ،
والعامة من أهل المعرة يزعمون أن للبلدة سبعة أبواب ، باب
شيث ، وهو في موضع يقال له : النّحيا في الشمال الغربي من
المعرة . وباب الزيت عند موضع يقال له : رام الزيت .
وباب الهنا أو باب حناك عند أطلال حصن حُناك . وباب
نصرة عند تل بَنْصُرة الواقع في جنوبي المعرة . وباب فارس
على مقربة من مدفن عمر بن عبد العزيز في الدير الشرقي
المعروف بدير سمعان . وباب منس على مقربة من قرية يقال لها :
تل منس . وباب إيلا على الطريق الآخذة من المعرة الى حلب ،
وان كل واحد من هذه الأبواب على بعد ساعة من المعرة .
ولا شك أن هذا الزعم قائم على الوهم والتخمين ، ولعل

سببه أن العامة سمعوا أن المعرة كانت مدينة جلييلة ، لها سبعة أبواب ، منها باب شيث وغيره ، فوضعوا أبواباً سبعة ، وضافوا كل باب الى شيء . وأخذ صاحب (نهر الذهب) كامل الغزي قول العامة فعول عليه ، والدليل على ذلك وعلى بطلانه ، أننا لا نعرف في عصرنا ولا سمعنا من شيوخ المعرة الذين أدركوا العصر الذي قبله ان هناك باباً يقال له : باب نصرة ، وانما المعروف أن هناك تلاً يقال له : تل بنصرة ، والعامة تزعم أنه محرف عن باب النصر . وسيأتي أن باب إيلأ قرية على بعد ساعة من المعرة . وليس بينهما ما يدل على انها كانت باباً للمعرة ، وأن القلعة ليست في وسط المدينة ، بل تبعد عنها أكثر من عشر دقائق . كما ان باب شيث لا يبعد عن القلعة أكثر من هذا القدر ، ولو كانت في وسط المدينة لكان باب شيث في طرفها أو فيها . وكذلك لا يعرف أهل هذا العصر باباً في جهة الشرق يقال له : باب منس .

والذي يخيل إليّ أن هذه الابواب كانت للسور ، منها : باب شيث ، وهو في الجهة الشمالية ، وباب الجنان ، وهو في الجهة الغربية يخرج منه الى وادي الجنان . وباب حنّاك وهو

في الجنوب الغربي يخرج منه الى حصن حُناك ، وهذا الباب ذكره أبو الجُد^(١) محمد ابن ابن أخي أبي العلاء في قوله الآتي :

يا مَغاني الصِّبا بباب حُناك

وسياتي ان داره بباب حُناك ، وتعرف بدار القبة . وباب حِمْص في الجهة الجنوبية ، على الطريق الآخذة الى حماة ، وهو الذي احرقه قرعونه سنة ٣٦٤ هـ كما سياتي . وباب حلب في الجهة الشرقية على الطريق الآخذة الى حلب . وأما الباب الكبير فلعله في الجهة الشرقية ايضاً . ولعله الذي زعم الناس انه باب مَنَس ، وأما الباب الآخر فلم اهتم اليه .

قلعة المعرة :

سياتي أن المعرة صارت في سنة ٦٢٦ هـ للملك المظفر محمود صاحب حماة ، وفي سنة ٦٣١ هـ نزلها ، وفيها تم بناء قلعتها ثم شحنها بالسلاح والرجال .

(١) في الأصل : « ذكره أبو الجُد محمد أخو أبو العلاء » . وأبو الجُد كنية لعلي بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سليمان ، وهو أخو أبي العلاء ، والثاني محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ، وهو ابن ابن أخي أبي العلاء . والبيب لهذا الأخير كما عزاه إليه المؤلف في الصفحة ٩٧ وكما في ياقوت ٣٤٩/٣ .

وفي سنة ٦٣٥ هـ حاصر الحلييون قلعة المعرة ، ثم اخذوها وخربت المعرة بسبب ذلك ، وقد استنجد الحلييون عسكرياً من الخوارزمية ، واستنجدوا كيخسرو بن كيقباز^(١) فأمدهم بخيار عسكريه فملكوا المعرة .

وفي سنة ٦٣٨ هـ نهبتها الخوارزمية بعدما خربوا حلب .
وفي سنة ٦٥٨ هـ قدم التتر على المعرة وخربوا قلعتها وأسوارها .
فيكون بناؤها قد تم سنة ٦٣١ هـ وقد هدمت سنة ٦٥٨ هـ ومدة بقائها عامرة سبعاً وعشرين سنة ، وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على الحصون والقلعة والسور .

المعرة مركز للبربر والحمام الزاجل :

وذكر القلقشندي في (صبح الأعشى^(٢)) مراكز البربر في طريق حلب ، وعدد المراكز إلى حمص ، ثم الرستن ، ثم حماة ، ثم المعرة ، ثم أنقراتا ، ثم إياد ، ثم قنشرين ، ثم حلب .
وذكر أيضاً في مطار الحمام الرسائي وأبراجها المقررة الآخذة من دمشق وما يتفرع عنها فقال : وأما

(١) في قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ٥ : ٣٩٤١ : كيقباز .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ١٤ : ٣٨١ (ج) .

إلى جهة حلب ، ففسرَح من دِمَشق إلى قارا^(١) (كذا) ، ثم من قارا إلى حِمص ، ثم من حِمص إلى حماة ، ثم من حماة إلى المعرة ، ثم من المعرة إلى حلب .

وقال^(٢) في الكلام على نيابات حماة : وليس بخارجها نيابات ، بل يقتصر فيه على ثلاث ولايات ، ولاتها أجناد ، يوليهم النائب بها ، الأولى ولاية بَرِّها كما في دمشق وحلب ، الثانية ولاية بارين ، الثالثة ولاية المعرة ، وليس بها عرب ولا تُزكَّمان .

واجتاز بالمعرة السائح التركي أوليا چلي^(٣) سنة ١٠٥٩ هـ وذكرها في رحلته المطبوعة في الأستانة ، وهذه خلاصة ترجمتها : المعرة قاعدة لواء يرأسه باشا ، ويتبع إيالة حلب ، وهذا اللواء منح بطريقة الأربهلقي^(٤) إلى الدفتردار^(٥) إبراهيم باشا ، أخي أحمد باشا الهزاربارة^(٦) ، وذلك حين كان ذا ثلاثة أطواغ .

(١) في معجم البلدان لياقوت ٤ : ١٢ ، ١٣ : قارة .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ٤ : ٢٣٩ .

(٣) اسمه محمد ظلي .

(٤) أي عيناً أو نقداً .

(٥) هو مدير المال .

(٦) أي صاحب الألف قطعة .

وكان يُحصل للدفتردار المذكور منه أربعون ألف قرش ،
ومقدار الخاص العائد لباشا هذا اللواء (٢٣٠٠٠٠) آقجة ^(١) ،
وفيه سبع زعامات ، وسبع وثمانون تيارا ^(٢) ، ورئيس جند ،
وأmir لواء ، ورئيس مئة . ويبلغ عدد جنده مع ما يجتمع
من الجيجية وجند الباشا نحو (١٥٦٠) ، وقضاؤه شريف يبلغ
مرتبه ثلاثمائة آقجة ، ويحصل لقاضيه ستة أكياس . وفيه شيخ
إسلام ، ونقيب أشرف ، وكان أهله فقراء ، ولذلك لم يكن
عندهم حكام زائدون . وقلعة المعرة خراب ، والبلدة في مكان
محجر ، وفيها (٨٠٠) دار مشيدة بالحجر جميلة ومختصرة
في الجملة ، وفيها ستة وعشرون معبدا ذا محراب . وماؤها نبع
يكون في شهر تموز بارداً كالثلج ، وهذا الماء هو أحد المياه
ذات الرائحة ، وقد اشتهر بذلك في كل مكان .
ثم سرد حكاية أبي العلاء المعري لما كان ببغداد ، وأتوه بماء
المعرة والتذبه ، وقال : سبحان الله لا بد أن يكون هذا ماء المعرة ،
أو أن ماء المعرة أتى به إلى هنا ، لذلك اشتهر بين أهل البلاد العربية
مثل : سبحان الله هذا ماء المعرة ، فأين هواؤها . وفي الحق
أن ماء المعرة وحلب وهواءهما لا نظير لهما في الأقاليم السبعة ،

(١) هي قطعة من النقد الصغير المتداول في ذلك العصر .

(٢) هو محصل الاعشار من الأرضين .

وفي المعرة خان وحمام وأربعون إلى خمسين دكاناً ، وفيها
انتشرت كروم التوت والزيتون ، وفي أرض المعرة القديمة
دفن يوشع بن نون عليه السلام ، عاش مائة وعشرين عاماً ، وقد
رأيت له قبرين ، الأول في طَرَأْبُلُس الشام ، والثاني في المعرة ،
ولعل أحدهما مقام له . وفي المعرة مقام ومزار حضرة
أبي العلاء المعري . ١٠٤ .

ما تعاقب عليها من الكوارث والكوارث ، وما حدث فيها الى عهد جديد ،

الترك هنرا :

قد رأيت ما عثرنا عليه في كلام المتقدمين من وصف
المعرة وضاحتها مما يمثل لنا شبحاً ضيقاً مما بلغت إليه من
الحضارة والعمران ، وكنا نود أن نقسم الكلام في ذلك إلى
أنواع ، نبين في كل نوع حالتها السياسية والاجتماعية والعقلية ،
ولكن قلة المأخذ ، وفقدان تاريخ خاص بها ، اضطرنا إلى
الاكتفاء بما أوردناه على النمط الذي تخيرنا . وقد تعاقب على
هذه البلدة الطيبة ضروب من الكوارث والمصائب التي طمست
معالمها وشوهدت نضرتها من - روب طاحنة وقتن مدمرة ،

وقاسى أهلها من العذاب والهون والسيى والقتل والنهب من المتغلبين والخارجين على السلطان وغيرهم ما لم يقاسه أحد. ولم يسعفنا التاريخ بالاطلاع على تلك الحوادث تامة، حتى نوردتها متناسقة، ونميز كل نوع من غيره، فبين كلا منها في فصل على حدة، ونضيف إلى ذلك فصلاً فيمن وليها من الأمراء، وآخر فيمن تغلب عليها، وآخر في القضاة وغيرهم. ولكننا نزلنا على حكم الضرورة، فسررنا الحوادث المختلفة على ترتيب السنوات، وسلكنا سبيل الإيجاز بقدر الطاقة.

في سنة ١٤١ هـ أسكن أبو جعفر المنصور بعض العشائر في البلاد الخالية المجاورة بلاد المردة في لبنان، فجلا الأمير فند بن مالك وأخوه الأمير أرسلان بجماعة من عشيرتهما من بلاد المعرة، فنزلوا في وادي التيم في الحصن المعروف بحصن أبي الجيش، ثم تفرقوا في جبل لبنان، وعمرؤا الخالي من أرضه^(١).

في سنة ٢٠٨ هـ قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين وزير

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ١ : ٦٨ (ج).

المأمون لهدم حصون الشام ، فهدم سور المعرة ، وحِصن الكَفر ،
وحصن حُناك ^(١) ، وغيرهما من حصون المعرة ^(٢) .

وفي سنة ٢٢٦ هـ قلد الراضي محمد بن رائق أمير الأمراء
بيغداد طريق الفُرات ، وديار مُضَرَ ، وجُندِ قنَّسرين والعواصم ،
- وقد بينا أن المعرة منها - .

وفي سنة ٢٣٢ هـ ولي ناصر الدولة بن حَمْدان على أعمال
ابن رائق كلها .

وفي سنة ٢٤٥ هـ حدث زلزال عظيم في الشام في شباط ،
وسقطت من ذلك كنيسة حناك الكبرى وغيرها .

وفي أيام المستعين بالله وثب بالمعرة المعروف بالفصيص ،
وهو يوسف بن ابراهيم التنوخي ، فجمع جموعاً من تَنُوخ وصار
إلى مدينة قنَّسرين ، فتحصن بها ، ولم يزل بها حتى قدم محمد المولد
مولى أمير المؤمنين ، فاستماله واستعمل عطيف بن نعمة ، وصار
إليه ، ثم قتل عطيفاً وهرب إلى الجبل الأسود ، وكانت
خلافة المستعين من سنة ٢٤٨ هـ إلى سنة ٢٥٢ هـ تقريباً .

(١) سيأتي بيانها . (ج)

(٢) وجد في هامش الدر المنتخب لابن الشحنة أن ذلك كان سنة ٢٠٧ هـ (ج) .

وفي سنة ٢٧٦ هـ ملك الثغور والعواصم والرقّة أحمد بن طولون ، ثم ملكها اسحق بن كنداج بعد وفاة ابن طولون ، بعد أن استأذن الموفق بذلك .

وفي سنة ٢٨٨ هـ حفر لؤلؤ^(١) والي المعرة غلام وصيف ابن صوراتكين أمير حمص ، خندقاً على المغرة ، وحاصرها جهير بن محمد التنوخي ، وبنو كنانة ، وطال الحرب بينها ، ثم انصرف عنها ، ولم يستطع فتحها .

وفي الانصاف لابن العديم أن جهير بن محمد التنوخي ولي معرة النعمان .

وفي سنة ٢٩٠ هـ حضر القرمطي ، واسمه الحسين ، ثم تسمى أحمد أبا العباس الملقب بصاحب الشامة المهدي ، لشامة كانت في وجهه ..

وأغرى أبا الحجر المؤمل بن المصباح ، وهو رجل كردي تولى أفامية من قبل الخليفة نجواربعين سنة ، فأوقع بأهل المعرة ،

(١) لعل لؤلؤا هذا هو الذي اخرج من حصن من قبل الإخشيدية لقتال المتني ، حين ادعى النبوة في بادية السماوة ونحوها ، كما ذكر ذلك التنوخي صاحب نشوار المحاضرة ص ٦٠٩ (ج) .

حتى قتلهم قتلاً ذريعاً ، ثم لما قتل القرمطي أسرى إلى هذا
الكردي ابراهيم وأنجوا إبنه الفصيبي فأوقعوا به ، فهرب
حتى ألقى نفسه في بحيرة أفامية فأقام بها أياماً ، وقتل ابنه ،
فقال فيه بعض شعراء المعرة :

تَوَهُّمَ الْحَرْبَ شَطَرْنَجاً يُقَلِّبُهَا لِلْقَمَرِ يَنْقُلُ مِنْهُ الرِّيحُ وَالشَّاهَا
بَجَازَتْ هَزِيمَتُهُ أَنْهَارَ فَامِيَةٍ إِلَى الْبُحَيْرَةِ حَتَّى غَطَّى فِي مَاهَا

وذكر ابن خلدون في تاريخه^(١) : أن القرمطي هذا استباح
حِمَصَ وحِمَاةَ والمعرة ، وخطب له فيها . وقال ابن المهذب المعري
في تاريخه : إن القرمطي قتل في معرة النعمان بضعة عشر ألفاً ،
وأقام يقتل وينهب ويحرق خمسة عشر يوماً ، وأنه التقى سنة
٢٩١ هـ بعساكر الخليفة المكتفي في تمنع ، وهي من المعرة
على الطريق الآخذة من حماة إلى حلب ، فانهزم أبو شامة ،
وابن عمه المدثر ، وغلّام رومي ، ثم أمسكوا ، وقتلهم الخليفة
في بغداد .

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤ : ٨٦ (ج) .

وذكر ابن خلدون في تاريخه^(١) : أن ذُكِرَ وَثِيَه بن مهدي^(٢) .
داعية القرامطة سار من حنص إلى حماة والمرة وبَغْلَبَك ،
ثم إلى سَلَمِيَّة ، فقتل جميع من فيها حتى النساء والصبيان
والبهائم ، ونهب سائر القرى من كل النواحي .

وفي (إعلام النبلاء)^(٣) : أن المكتفي لقي القرامطة ، بين تل
بنش وكفرطاب في عشرة آلاف فارس ، فنصره الله عليهم ،
وما ذكرناه أقرب إلى الصواب وإلى ما ذكره المؤرخون ،
ولعله تَل مَنَس ، ولعل تمنع هي القرية المعروفة الآن
بالتمانعة ، وهي قرب خان شيخون شرقي طريق السيارات
الاخذة من المرة إلى حماة .

وفي مجلة الجمع العلمي العربي^(٤) : نحو ما ذكرناه عن
ابن المهذب وابن خلدون وكذلك في الشذرات^(٥) في حوادث

(١) ابن خلدون : المعبر ٤ : ٣٠٩ (ج) .

(٢) وفي أعلام الزركلي : زكروية بن مهرويه .

(٣) راغب الطباخ : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ١ : ٢٣٢ .

(٤) مجلة الجمع العلمي العربي ١٢ : ٦٠٨ (ج) .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ٢ : ٢٠٦ .

سنة ٢٩١ هـ ، وفي (مرآة الجنان) لليافعي^(١) أيضاً : أن القِرْمَطي قتل وسبى في المعرة .

وفي سنة ٣٢٣ هـ عملت الجهة القبلية في المسجد الجامع في المعرة بالرخام والفصوص والجص ، وقد صنع ذلك أخوان من دمشق ، اسم أحدهما متوكل ، وبقي إلى أن أحرقه نقفور سنة ٣٥٧ هـ^(٢) .

وفي سنة ٢٢٥ هـ وردت بنو كلاب من نجد ، وأغارت على المعرة ، فخرج إليهم والي المعرة مُعَاذ بن سعيد بجنده ، وتبعهم إلى البراغيثي ، فعطفوا عليه وأسروه وأكثر جنده ، وأقام فيهم أياماً يعذبونه حتى خلصه والي حلب أبو العباس أحمد بن سعيد ابن الكلابي^(٣) .

وفي سنة ٣٣٢ هـ استعمل ناصر الدولة بن حَفْصَان محمد بن علي بن مُقَاتِل على قَنَسَرين والعواصم وحنص

(١) اليافعي : مرآة الجنان ٢ : ٢١٨ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ١ : ٣٦٨ (ج) .

(٣) راغب الطباخ : إلام النبلاء ١ : ٢٤٠ .

ثم استعمل بعده في السنة المذكورة ابن عمه الحسين بن سعيد
ابن حمدان على ذلك ^(١) .

وفي أبي الفداء ^(٢) في حوادث سنة ٣٥٦ هـ : وقيل :
إن أول من ملك حلب من بني حمدان الحسين بن سعيد وهو
أخو أبي فراس حمدان .

استيلاء سيف الدولة على المعرة :

وفي سنة ٢٣٢ أو ٣٣٣ هـ استولى سيف الدولة على
حلب ودمشق وما بينهما ، وأقام حيناً في دمشق ، ثم
خرج إلى الاعراب ، فلما عاد منعه أهل دمشق من دخولها
فبلغ الإخشيد ذلك ، فسار من الرملة ، وتوجه يطلب سيف
الدولة ، فلما وصل طبرية عاد سيف الدولة إلى حلب بغدير
حرب ، لأن أكثر أصحابه وعسكره استأمنوا إلى الإخشيد إلى
أن نزل معرة النعمان في جيش عظيم ، فخرج سيف الدولة

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٩٦ ، وابن الوردي :

التاريخ ١ : ٢٧٦ .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ١١٣ .

ولقيه بأرض قنّسرين ، وكان الإخشيد جعل مطارده وبوقاته في المقدمة ، واقتفى من عسكره عشرة آلاف سباهم الصابرية فوقف بهم في الساقة ، وحمل سيف الدولة على مقدمة الإخشيد فهزمها ، وقصد قبته وخيمته ، وهو يظنه في المقدمة ، فحمل الإخشيد ومعه الصابرية ، فاستخلص سواده ، ولم يقتل من العسكرين غير مُعَاذ بن سعيد والي معرة النعمان من قبل الإخشيد ، فانه حمل على سيف الدولة ليأسره ، فضربه سيف الدولة بمستوفى ، وهو عمود من حديد طوله ذراعان ، مربع الشكل ، له مقبض مدور في وسطه كان معه ، فقتله وهرب سيف الدولة ، فلم يتبعه أحد من عسكر الإخشيد ، وسار على حاله الى الجزيرة ، فدخل الرّقة ^(١) .

وفي سنة ٣٣٨ هـ احترق حصن أفامية .

وفي سنة ٣٣٩ هـ نزل بسيل ملك الروم على افامية ، وسيأتي الكلام في هاتين الحادثتين .

(١) يثوف : تحفة الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ٣٣ . راغب الطباخ :

وفي سنة ٣٣٩ هـ يبس شجر الزيتون في المعرة من البرد الذي
نجم عن الثلج والجليد اللذين لم ير لهما مثال ، حتى قيل :
إن الفرات جمد ومشى الناس عليه ، وكانت القدور وهي
على النار يحمد أعلامها .

وفي سنة ٣٤٩ هـ جاء الجليد والبرد حتى جمد الفرات
والقدور على النار ويبس الزيتون في المعرة وكَفَرْتَطَاب^(١) .

وفي سنة ٣٥٤ هـ عصى أهل أنطاكية على سيف الدولة ،
وسبب ذلك أن رجلاً من أهل طَرَسُوس يسمى رَشِيقا النَسِيمي ،
كان مقدماً فيها ، وكان من جملة من سلمها الروم ، ثم خرج
إلى أنطاكية ، فلما وصلها خدمه انسان يعرف بابن الأهوازي ،
كان بضمن الأرحاء^(٢) بأنطاكية ، فسلم إليه ما اجتمع عنده
من حاصل الأرحاء ، وحسن له العصيان ، وأعلمه أن سيف
الدولة بَمِيَّافَارِقِينَ قد عجز عن العود إلى الشام ، فعصى
واستولى على أنطاكية وسار إلى حلب ، وجرى بينه وبين

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٥٩ (ج) .

(٢) لعلها جمع رَحَى التي يطحن بها ، انظر معجم البلدان لياقوت ١ : ١٩٦ .

تا (٨)

النائب عن سيف الدولة ، وهو قَرْعُونَه ، خروب كثيرة ، صعد
قرعونه إلى قلعة حلب فتحصن بها ، وانفذ سيف الدولة
عسكراً مع خادمه بشارة نجدة لقرعونه ، فلما علم بهم
رَشِيق انهزم عن حلب ، فسقط عن فرسه ، فنزل إليه انسان
عربي فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى قرعونه وبشارة ، ووصل
ابن الأهوازي إلى انطاكية ، فظهر إنساناً من الدَّيْلَم اسمه
دِزْبَر ، وسماه الأمير ، وتقوى بانسان علوي يقيم له الدعوة ،
ونسى هو بالأستاذ ، فظلم الناس وجمع الأموال ، وقصد
قرعونه إلى انطاكية ، وجرت بينها وقعة عظيمة ، فكانت على
ابن الأهوازي أولاً ، ثم عادت على قرعونه ، فانهزم وعاد إلى
حلب . ثم إن سيف الدولة عاد من مَيَّافَرِيقين عند فراغه
من الغزاة إلى حلب فأقام بها ليلة ، وخرج من الغد فواقع
دزبر وابن الأهوازي ، فقاتل من بها ، فانهزموا وأسر دزبر
وابن الأهوازي ، فقتل دزبر وسجن ابن الأهوازي مدة ثم
قتله ^(١) . وقد ذكر ياقوت ^(٢) في معجم البلدان في «حندوثا» :

(١) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٢٢١ (ج) .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٣٤٧ .

أن مقدمي المعرة عضوا مع ابن الأَ هوازي على سيف الدولة ،
ولم يسم منهم إلا محمد بن إسماعيل الحندوثاني أحد وجوه المعرة
وأعيانها ، كما سيأتي ذلك في ترجمته .

وقال العُكْبَرِي^(١) في (شرح ديوان المتنبي) : شبيب بن جرير
العقيلي ، من قوم كانوا من القرامطة ، وكانوا مع سيف الدولة ، وولي
شبيب معرة النعمان دهرأ طويلاً ، واجتمع إليه جماعة من العرب
فوق عشرة آلاف ، وأراد أن يخرج على كافور ، وقصد دمشق
فحاصرها ، فيقال : إن امرأة أَلقت عليه رحي فصرعته ،
وذكر العكبري أقولاً آخر في موته .

وشبيب هذا ذكره أبو الطيب المتنبي في قصيدته التي يمدح
بها كافوراً ، وأولها :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ
فَقَالَ :

بِرَّخْمٍ شَبِيبٍ فَارَقَ السَّيْفُ كَفَّهُ وَكَانَ عَلَى الْعِلَاتِ يَصْطَحِبَانِ^(٢)

(١) العكبري : شرح ديوان المتنبي ٢ : ٤٣٨ .

(٢) ابراهيم اليازجي : العرف الطيب ٥١٢ .

وفي سنة ٣٥٦ هـ مات سيف الدولة ، وملك بعده أبو المعالي
سعد الدولة شريف ، وكان له غلام يقال له : قرعونه ^(١) ، فتغلب
عليه واستولى على حلب ، وأخرجه منها سنة ٣٥٨ هـ إلى حماة ،
ثم صالحه سنة ٣٥٩ هـ ، وكان أبو المعالي في حِمْنَص ، وخطب
له في حلب ، ثم اتفقا على أن يخطب كل منهما في عمله للمُعِزِّ
العلوي صاحب مصر ، وكان لقرعونه غلام اسمه بَكْجور ،
فاستنابه قرعونه ، فلما قوي أمره قبض على قرعونه ، وحبسه في
قلعة حلب ، وأقام بها ست سنين ، ولما استبد بَكْجور بالأمر
كتب أهل حلب إلى أبي المعالي شريف أن يقصد حلب ،
فسار إليها ، فحصرها أربعة أشهر ، ثم ملكها سنة ٣٦٦ هـ ،
وبقيت القلعة بيد بَكْجور ، ثم طلب الأمان على أن يوليه
حِمْنَص ، فأجابه إلى ذلك وسيره إليها واستلم القلعة . وكان
بَكْجور يتقرب إلى العزيز صاحب مصر ، وطلب منه أن يوليه
دِمَشْق فوعده بذلك .

(١) كتبه بعضهم قرعوية . وآخر فرغوية وآخر . وآخر . وقد ضبطه
ابن الشعنة في الدر المنتخب ص ٦٣ : بفتح القاف واسكان الراء وضم
المين ثم . وار ثم نون ثم هاء اخره (ج) .

وفي سنة ٣٥٧^(١) افتتح نقفور ملك الروم المعرة ، وأحرق المسجد الجامع فيها وأكثر الدور ، وهرب الناس إلى الحصون والبراري والجبال ، ثم سار إلى كَفَرطاب ، وشيزر ، فحماة ، فحمص .

وفي سنة ٣٥٩ هـ^(٢) ملك الروم أنطاكية وقتلوا أهلها ، وسبوا عشرين ألف صبي وصبية ، ثم قصدوا حلب فملكوها ، وحصروا القلعة ، ثم اصطلحوا على مال يحمله قَرْعُونَه غلام سيف الدولة بن حَمْدان المتغلب على حلب إلى ملك الروم في كل سنة ، وكانت المصالحة على أن يحمل المال المقرر على حلب وما معها من البلاد ، وهي حماة ، وحمص ، وكَفَرطاب ، والمعرة ، وأقامية ، وشيزر ، وما بين ذلك من الحصون والقرى ، وعلى أن لا يمكن قَرْعُونَه أهل القرى من الجلاء إذا أراد الروم الغزو ليبْتَاع الروم منهم ما يحتاجون إليه ، ودفع أهل

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٢٩٥ ، ابن تغري بردي : النجوم

الزاهرة ٤ : ١٩ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ٢٠٧ (ج) .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ١١٦ ، كامل الغزي : نهر

الذهب ٣ : ٦٥ ، إعلام النبلاء ١ : ٢٥٣ (ج) .

حلب الرهائن بالمال إلى الروم ، فرحلوا عن حلب ، وعاد المسلمون إليها ، والمال الذي اصطالحوا عليه ثلاثة قناطير ذهباً عن حق الأرض ، وسبعة قناطير ذهباً عن خراج بلاد حلب ، وقنسرين ، وحنص ، وحماة ، وجوسية ، والمعرة ، وكفرطاب ، وأفامية ، وشيزر ، وجبل السماق ، ومعرة مضرين ، والأثارب وغيرها . وعن كل حالم دينار في السنة ، سوى ذوي العاهات ، وأن يكون لملك الروم صاحب يقوم بحلب يستخرج أعشار الأمتعة الواردة إليها . وقد عقدوا هدنة مؤبدة ، ولكن سعد الدولة لم يعترف بهذه المعاهدة التي جرت بين قرعونة والروم ، وظل في معرة النعمان ، فأخرب الروم حمص ليحملوه على الاذعان ، ولكن جاءتة نجدات فعمرها .

وفي سنة ٣٦٤ هـ خلع بكجور قرعونة وأسره ، وحاصر المعرة ، وكان فيها عامل قرعونه ، وأحرق أحد أبوابها المسمى باب حمص ، ونهب جيشه بنو كلاب .

وفي شوال سنة ٣٦٦ هـ سار أبو المعالي سعد الدولة من حلب وفتح المعرة وما يليها ، ونزل إلى حلب ومعه بنو كلاب ، ووقع القتال بينه وبين بكجور .

وفي ابن القلانسي^(١) : ملك أبو المعالي المعرة ، وأخذ غلاماً كان غلب عليها يقال له : زهير ، فقتله وسار عنها . وفيها خرج ملك الروم بانس بجيوش جناحها في عقاب الرّوج ، والآخر في الفرّزل من علّة معرة النعمان ، ونزل على أقامية .

وفي سنة ٣٨١ هـ توفي سعد الدولة ، وعهد إلى ولده أبي الفضائل سعيد الدولة ، ووصى به لؤلؤ بن عبد الله السّيفي الكبير ، وهذا كان مولى لسيف الدولة مقدما عنده وعند ولده سعد الدولة ، وقد قدمه على أصحابه وجعله مدبر الملك بعده . فلما ولي أبو الفضائل كان هو المدبر للملكه ، وقد تزوج أبو الفضائل ابنته وأقام بحلب إلى أن توفي سنة ٣٩١ هـ مسموماً ، ويقال : إن لؤلؤاً سمّته وسم ابنته زوجة أبي الفضائل فماتا من ذلك . واستولى لؤلؤ بغد موت أبي الفضائل على تدبير ابنه أبي الحسن علي وأبي المعالي شريف ، ثم استقل بالأمر وأخرجها إلى مصر سنة ٣٩٤ هـ ، وبقي إلى أن مات سنة ٣٩٩ هـ .

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٨ .

وفي سنة ٣٨٢ هـ وقع قتال بين منجوتكين والحمدانيين على
أقامية ، فانهمز الحمدانيون .

وفي سنة ٣٨٣ هـ عاد منجوتكين فنزل على أقامية ، فسلمها
إليه وفاء خادم سيف الدولة .

وفي سنة ٣٨٤ هـ عاد منجوتكين فحاصر حلب ، وقتل
الأقوات ، فكان العزيز يمد عسكره بالميرة من غلات مصر
إلى طرأبلُس ، ومنها على الظهور إلى أقامية .

وفي سنة ٣٨٦ هـ نزل الدوقس^(١) صاحب الروم على أقامية ،
ووقعت حروب بينه وبين جيش بن الصنصامة ، ثم قتل الدوقس .
وفي سنة ٣٨٨ هـ وقعت النار في أقامية ، واحترق ما كان
فيها من الأقوات ، ونشبت فيها حرب بين الدوقس وجيش .
وسياتي تفصيل هذه الحوادث .

وفي سنة ٣٩٣ هـ خرب لؤلؤ السّيفي المعروف بالحراحي
كفر رُوما ، وهي قرية من قرى المعرة ، وكانت حصناً حصيناً ،

(١) وفي قاموس الاعلام لشمس الدين سامي ٣ : ٢١٨١ : دوقس .

وخرب حصن عار ، وحصن أَرْوَح^(١) ، مخافة أن يقصدها^(٢) .
وفي سنة ٣٩٨ هـ سافر أبو العلاء المعري إلى بغداد ، وعاد
سنة ٤٠٠ هـ بعد أن أقام سنة وبضعة أشهر .

ولما مات لؤلؤ سنة ٣٩٩ هـ ملك حلب بعده ابنه منصور
أبو نصر مُرتضى الدولة ، وكان خطب للحاكم العبيدي ، فلقبه
مرتضى الدولة ، ثم فسد ما بينه وبين الحاكم .

وكان لابن لؤلؤ غلام اسمه فتح ، وكان دزدان^(٣) قلعة حلب ،
فعصى على استأذه وكاتب الحاكم وخطب له وأخذ منه
صِنداء ، وَيَبْرُوت ، وكل ما في حلب من الأموال ، واستولى
على حلب ، ثم سلمها إلى نواب الحاكم ، ولقب بمبارك الدولة
وسعيدها وعزها ، وسار مولاه أبو نصر بن لؤلؤ إلى أنطاكية ،
وكانت للروم ، فأقام عندهم ، وذلك في سنة ٤٠٦ هـ ، وقال
في النجوم الزاهرة^(٤) : استولى الحاكم على حلب ، وزال ملك
بني حمدان عنها في سنة ٤٠٤ هـ .

(١) وفي معجم البلدان ١ : ٢٢٤ : أروخ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ١ : ٣١٨ .

(٣) أي محافظ قلعة حلب .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٤ : ٢٣٥ .

ثم تولى حلب جماعة من نواب الحاكم ، منهم : مختار الدولة والي طَرَابُلُس ، ومُرْهَف الدولة والي صَيْدَاء ، ثم صارت بيد رجل من الحمدانيين يعرف بعزير الملك على ما قال ابن الأثير . ولعل الصواب أنه عزير الدولة أبي شجاع فاتك بن عبد الله الرومي مولى منجوتكين ، وكان أبو شجاع والي حلب من قبل المصريين في بعض أيام الحاكم ، وأيام الظاهر قتله بملوك له سنة ٤١٢ هـ أو سنة ٤١٣ هـ بقلعة حلب ^(١) .

وولي الظاهر مكانه رجلاً يعرف بابن شُعْبَانَ الكَتَّامِي ^(٢) ، وولي القلعة خادم يعرف بمَوْصُوف ، وبقياً فيها إلى أن انتزعها صالح بن مِرْدَاس .

وفي سنة ٤١٤ هـ دخلت المعرة في حوزة آل مِرْدَاس ملوك حلب الذين تغلبوا على أعقاب بني حَمْدَانَ ، وانتزعوا سلطانهم من حلب والمعرة وغيرهما .

(١) وهذا الف له أبو العلاء كتاب الصاهر والشاحج والقائف وذكره في

رسالته الى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحى (ج) .

(٢) وهذا عمل له أبو العلاء الرسالة السندية (ج) .

الدولة المرداسية :

كان أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن إدريس من بني
كِلاب بن ربيعة من عامر بن صَعَصَعَة من مُضر ، ومن عرب البادية .
وكان بالرحبة رجل من أهلها يعرف بابن مُحْكَن^(١) ، فملك البلد
واحتاج إلى من يستعين به على من يطمع فيه ، فكتب صالح
ابن مرداس فقدم عليه وأقام عنده مدة ، ثم تغير صالح
وسار إلى ابن مُحْكَن وقاتله على البلد ، ثم تصالحا ، وتزوج
ابنة ابن مُحْكَن ودخل البلد ، إلا أن أكثر مقامه كان بالحِلَّة .
ثم راسل ابن مُحْكَن أهل عانة فأطاعوه ، ونقل ماله
وأهله إليهم ، ثم خرجوا عن طاعته ، وأخذوا ماله ، واستعادوا
رهائنهم ، وردوا أولاده ، فاتفق هو وصالح على قصد عانة ،
وسارا إليها ، ثم دبس صالح إلى ابن مُحْكَن من يقتله ، فقتله
غيلة ، وسار صالح إلى الرحبة فملكها وأخذ أموال ابن مُحْكَن ،
واستمر على ذلك ، ولكن الدعوة كانت للمصريين .

وفي سنة ٤٠٢ هـ فسد ما بين الحاكم ومُرتضى الدولة أبي نصر

(١) في محيط المحيط للفيروزآبادي ٣/٣٢٨ : رجل مُحْكَن : عسر الخلق
لجوج وسموا به .

ابن لؤلؤ ، فطمع فيه صالح بن مرداس وبنو كلاب ، وكانوا يطالبونه بالصلات والخلع .

ثم اجتمعوا في خمسمائة فارس ودخلوا حلب ، فأمر مرتضى الدولة باغلاق الأبواب ، وقبض على مائة وعشرين رجلاً ، منهم صالح بن مرداس ، وحبسهم ، وقتل مائتين ، وأطلق من لم يفكر به . وكان صالح تزوج ابنة عم له تسمى جابرة ، وكانت جميلة ، فوصفت لمرتضى الدولة ، فخطبها إلى أبناء إخوتها ، وكانوا في حبسه^(١) ، فقالوا : إن صالحاً قد تزوجها فلم يقبل منهم ، وتزوجها .

وبقي صالح في الحبس ، ثم صعد من السور وألقى نفسه من أعلى القلعة إلى تلها واختفى في مسيل ماء حتى سكن عنه الطلب ، ثم سار بقيده ولبنة حديد في رجله إلى قرية اليأسريّة ، وهي قرية على نهر عيسى ، بينها وبين بغداد ميلان فعرفه جماعة من العرب ، فحملوه إلى أهله في مرج دابق ، وهي قرية قرب حلب من عمل عزاز ، بينها وبين حلب أربعة

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٩ : ٩٤ (ج) .

فراسخ ، فجمع ألفي فارس وحاصر حلب اثنين وثلاثين يوماً ، فخرج إليه مرتضى الدولة ، فقاتله صالح وأسره وقيده بقيده الذي كان في رجله ولبنته ، ثم بذل له مائتي ألف دينار ومائة ثوب ، وأطلق كل أسير عنده من بني كلاب ، فأخذ صالح ذلك ، وأطلقه ، ورحل عنه .

وفي سنة ٤١٤ هـ كان للمصريين نائب بالشام ، يعرف بأنوشتكين الدزبري ^(١) ، ويده دمشق ، والرملة ، وعسقلان ، وغيرها ، فاجتمع حسان أمير طيء ، وصالح بن مرداس أمير بني كلاب ، وسنان بن عليان أمير بني كلب ، وتحالفوا واتفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة صالح ، ومن الرملة إلى مصر لحسان ، ودمشق ^(٢) لسنان ، فسار حسان إلى الرملة فحصرها ، وكان أنوشتكين فيها ، فسار عنها إلى عسقلان ،

(١) هو أنوشتكين بن عبد الله الأمير منتجب الدولة ، ولد ببلاد الترك وحمل إلى بغداد ، ثم إلى دمشق سنة ٤٠٠ هـ فاشتراه القائد دزبري ، ثم اتصل بالحاكم ، فبعثه إلى دمشق سنة ٤٠٦ هـ ، ثم أرسله إلى قتال صالح (ج) .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٢ : ٥٨٧ : دمشق الشام بكسر أوله وفتح ثانيه هكذا رواه الجمهور ، والكسر لغة فيه وشين معجمة وآخره قاف .

واستولى عليها حسان ونهبها وقتل أهلها ، وذلك في سنة ٤١٤ هـ .
وحاصر سنان دمشق سنة ٤١٦ هـ وجرت بينه وبين أهلها
حروب شديدة ، وخرب داريا وأعمالها ، ومات سنان سنة ٤١٩ هـ .
وسار صالح إلى حلب وبها ابن شعبان الكتّامي ، وموصوف
بالقلعة ، فسلم أهل حلب المدينة لإحسانه إليهم ، وسوء سيرة
المصريين معهم ، وصعد ابن شعبان إلى القلعة ، فحصره صالح
بها ، فغار الماء الذي فيها ، فلم يبق لهم ما يشربون ، فسلم
الجند القلعة إليه ، وذلك سنة ٤١٤ هـ ، وملك من بَعْلَبَكَّ
إلى عانة ، وأقام في حلب نحواً من ست سنين .

وتد أشار أبو العلاء إلى ما فعله صالح وسنان وحسان في مواضع
من شعره . كقوله في اللزوم :

أَرَى حَلَباً حَاذَها صَالِحٌ وَجَالَ سِنَانٌ عَلَى جِلْقَا^(١)
وَحَسَنٌ فِي سَلَفِي طِيءٍ يُصَرِّفُ مِنْ عِزِّهِ أَبْلَقَا
إلى آخر الأبيات .

(١) انظر لزوم ما لا يلزم ص ٣٠٥ .

وقوله فيه :

وَالرَّمْلَةُ الْبَيْضَاءُ عُودِرَ أَهْلُهَا بَعْدَ الرَّفَاةِ يَا كُؤُونَ قَفَارَهَا ^(١)
إلى آخر الآيات .

وقوله فيه :

قَدْ أَشْرَعَتْ سِنْبِسٌ ذَوَابِلَهَا وَأَرْهَفَتْ بُحْتَرٌ عَوَامِلَهَا ^(٢)
لِفِتْنَةٍ لَا تَرَالُ بِأَعْشَةٍ رَامِحَهَا فِي الْوَعَى وَنَابِلَهَا
حَسَّانُ فِي الْمُلْكِ لَا يَحْصُ هَذَا تُرْجِي إِلَى مَوْتِهَا قَنَابِلَهَا
إلى آخر الآيات .

وقوله فيه :

أَصَابَ الرَّمْلَةَ الْحَدَثَانِ يَوْمًا فَخَصَّ وَمَا يَزَالُ أَخَا اسْتِمَالٍ ^(٣)
إلى آخر الآيات .

وقوله فيه :

أَلَمْ تَرَ طَيْثًا وَبَنِي كِلَابٍ مَمَوًا لِبِلَادٍ غَزَاةً وَالْعَرِيشَ ^(٤)
إلى آخر الآيات .

(١) لزوم ما لا يلزم ص ١٤٣ وفيه : « بعد الرفاعة ... » .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٨ وفيه : « ... بحتر معايلها » .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٢٧ .

وقوله في (سقط الزند) :

وَمَا أَذْهَلْتَنِي عَنْ وَدَادِكَ رَوْعَةً وَكَيْفَ وَفِي أَمْثَالِهِ يَجِبُ الْغَبْطُ^(١)
وَلَا فِتْنَةً طَائِيَّةً عَامِرِيَّةً يُحَرِّقُ فِي نِيرَانِهَا الْجَعْدُ وَالسَّبْطُ
رَقْدًا طَرَحَتْ حَوْلَ الْفُرَاتِ جِرَانَهَا إِلَى نَيْلِ مِصْرٍ فَالْوَسَاعُ بِهَا تَقْطُو
أَرَادَ بِالطَّائِيَّةِ : قَوْمَ حَسَانَ أَمِيرِ طَنْيَّةَ ، وَسَنْبَسَ وَبُخْتَرُ : قَبِيلَتَانِ مِنْ
ظُيَّيَّةَ ، وَأَرَادَ بِالْعَامِرِيَّةِ : قَوْمَ صَالِحِ بْنِ مِرْدَاسَ ، وَهُمْ بَنُو كِلَابِ بْنِ
رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ .

وفي سنة ٤١٦ هـ استوزر صالح تاذرس النصراني ، وكان
عنده صاحب السيف والقلم .

وفي سنة ٤١٧ هـ^(٢) صاحت امرأة يوم الجمعة في جامع
المعرة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها ،
وكان نصرانياً ، فنفر كل من في الجامع إلا القاضي والمشايخ
وهدموا الماخور ، وأخذوا خشبه ، ونهبوه ، وحرقوه ، وقتلوا
الضامن ، وكان صالح بن مِرْدَاسَ صاحب جلب يومئذ في

(١) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٦٧٥ :

(٢) انظر تاريخ ابن الوردي ١ : ٣٢٨ - ٣٣٩ .

نواحي صيناء ، وكان له وزير يقال له : تاذروس ، أو تاذرس
أو تادروس بن الحسن النصراني ، استوزره صالح سنة ٤١٦ هـ
وكان متمكناً عنده وصاحب السيف والقلم ، وكان أهل المعرة
قتلوا حماه الخوري ، فكان في نفس تاذروس شيء من أهل
المعرة من أجل حميه ، وكان يؤذيهم ويتبع قتله ،
حتى قتلهم وصلبهم . فلما أنزلوا عن الخشب ليضلى عليهم
ويدفنوا ، قال الناس : قد رأينا عليهم طهوراً بيضاً ، وما هي
إلا الملائكة ، يريدون بذلك كيد النصارى ، فبلغت هذه الكلمة
تاذروس ، فنقمها على أهل المعرة ، واعتلها ذنباً لهم وتربص
بهم السوء . فلما وقعت حادثة الماخور على ما ذكرنا وسوس
الوزير لصالح وأوغر صدره على أهل المعرة ، وكان صالح
قد وصل إلى حلب سنة ٤١٨ هـ ، فحاصر المعرة ، ونصب
المناجيق ، وشد الحصار عليها ، واعتقل سبعين رجلاً من
شيوخها وأعيانها في محبس الحصن ، ولبثوا سبعين يوماً ، وذلك
بعد عيد الفطر بأيام^(١) ، وكان تاذروس أشار على صالح بن
مرداس أن يقتل المهذب ، وهو الشيخ أبو الحسن ، وأبا المجد

(١) وفي الوافي بالوفيات : فبلغ الخبر أحد كبار كتاب صالح فقبض
على سبعين (ج) .
١٦٩

محمد بن عبد الله بن سليمان ، أعني أخا أبي العلاء ، وأوهمه
أن في ذلك إقامة للهية ، فأبى صالح أن يوافقه على القتل ،
وقطع تاذروس على أهل المعرة ألف دينار .

وكان بعض بني سليمان جد أبي العلاء من اعتقل ، فلما
اشتد الحصار على أهلها ، وأنسوا من نفوسهم العجز عن مقاومته ،
لأنه جاءهم بما لا قبل لهم به ، جاؤا إلى أبي العلاء ، وقالوا له :
إن الأمر قد عظم وليس له غيرك ، وسألوه أن يخرج إلى
صالح بنفسه ، ويدبر الأمر برأيه إما بأموال يبذلونها ، أو طاعة
يعطونها ، فخرج أبو العلاء ، ويده في يد قائده ، فلما فتح له
باب من أبواب المعرة وخرج منه ، رأى صالح شيخاً قصيراً
يقوده رجل ، فقال : هذا أبو العلاء فجيثوني به ، فلما مثل
بين يديه سلم عليه ، ثم قال : الأمير أطال الله بقاءه كالنهار
المانع ، اشتد هجيرته وطاب أبرداه ، وكالسيوف القاطع ، لان صفحه
وخشن حداه ، خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ،
فقال صالح : لا تثريب عليكم اليوم ، قد وهبت لك المعرة
وأهلها . ثم قال له : أنشدني شيئاً من شعرك ، فقال أبو العلاء :

تَغَيَّبْتُ فِي مَنْزِلِي بُرْهَنَةً بَسْتِيرَ الْعُيُوبِ فَقَيْدَ الْحَسَدِ^(١)
 فَلَمَّا مَضَى الْعُمْرُ إِلَّا الْأَقْلَ وَحُمَّ لِرُوجِي فِرَاقُ الْجَسَدِ
 بُعِثْتُ شَفِيعاً إِلَى صَالِحٍ وَذَلِكَ مِنَ الْقَوْمِ رَأْيٍ فَسَدِ
 فَيَسْمَعُ مِنِّي سَجْعَ الْحَمَامِ وَأَسْمَعُ مِنْهُ زَيْرَ الْأَسَدِ
 فقال له صالح : بل نحن الذين نسمع منا سجع الحمام
 ونسمع منك زير الأسد .

ثم أمر صالح بتقويض الخيام ، فنقضت ورحل ، ولم
 يعلم أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ، ولو علم ذلك لساءل
 صالحاً رده .

ولما رجع أبو العلاء قال :

فَجِئْتُ الْمَعْرَةَ مِنْ بَرَّائِنِ صَالِحٍ رَبِّ يُعَايِنِي كُلَّ دَاءٍ مُعْضِلٍ^(٢)
 مَا كَانَ لِي فِيهَا جَنَاحٌ بَعُوضَةٍ اللَّهُ أَلْبَسَهُمْ جَنَاحَ تَفْضُلٍ

وبعضهم يقول : إن صالحاً استدعى إليه أبا العلاء ، وهو
 بظاهر المعرة ، وآخر يقول : استدعاه إليه ، وهو في حلب ،

(١) لزوم ما لا يلزم ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٠ . وفيه : « .. رب يفرج كل أمر معضل » .

وعلى كل رواية ، خرج إليه أبو العلاء وقال له : ما تقدم .
وقد دعي للمعتقلين على المنابر بآمد وميافارقين . وهذه القصة
رواها ياقوت في (معجم الأدباء) ، وابن العديم ، والقفطي ،
والذهبي ، وابن الوردي ، وصاحب (إعلام النبلاء) وغيرهم ،
ونقلت عن أبي غالب بن المهذب المعري في تاريخه ، وهو أوثق
الجميع ، لأن الحادثة وقعت في حياته ، وكلهم قد أخذ عنه .
وقد لخصنا ما ذكرناه من أقوال الجميع ، ولم يتبين لنا ظاهر
المعرة الذي كان فيه صالح ، هل هو في الشرق أم في غيره ، ؟
والغالب أنه الشرق ، فإن لم يكن فالشمال ، لأنها أول ما يقابل
القادم من حلب إلى المعرة .

وأبو العلاء أشار إلى هذه الواقعة في اللزوميات ، حيث يقول :

أَتَتْ جَامِعَ يَوْمِ الْعُرُوبَةِ جَامِعًا	تَقْصُ عَلَى الشَّهَادِ بِالصَّرِامِهَا (١)
فَلَوْ لَمْ يَقُومُوا نَاصِرِينَ لَصَوَّتْهَا	لَخِلَّتْ سَمَاءُ اللَّهِ تُمِيطُ جُحْرَهَا
فَهَدَّوْا بِنَاءَ كَانَ يَأْوِي فَنَاءَهُ	فَوَاجِرُا لَقَتِ اللَّفَوَاحِشُ خُجْرَهَا

وَرَأْمِرَةٍ لَيْسَتْ مِنَ الرُّبْدِ خَضِبَتْ يَدَيْنِهَا وَرَجْلَيْهَا تُنْفِقُ زَمَرَهَا ^(١)
 أَلِفْنَا بِلَادَ الشَّامِ إِلْفَ وَلَادَةٍ تُنَلِّقُ فِيهَا سُودَ الْخَطُوبِ وَخُمْرَهَا
 فَطَوْرًا نُدَارِي مِنْ سُبَيْعَةٍ لَيْشَهَا وَحِينًا نُصَادِي ^(٢) مِنْ زَبَيْعَةٍ مَمَرَهَا
 إِلَى أَنْ قَالَ :

فَإِنِّي أَرَى الْآفَاقَ دَانَتْ لِظَالِمٍ يَغْرِثُ بَغَايَاهَا وَيَشْرِبُ خُمْرَهَا
 وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا مِنَ الْإِنْسِ لَمْ تَكُنْ سِوَى مُوسَى أَفْنَتْ بِمَآسَاءِ غُمْرَهَا
 تَدِينُ لِمَجْدُودٍ وَإِنْ بَانَ غَيْرُهُ يَهْزُ أَلْهَآ بِبَيْضِ الْخُرُوبِ وَشُمْرَهَا
 إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ .

وفي سنة ٤١٩ أو سنة ٤٢٠ هـ جهز الظاهر صاحب مصر جيشاً إلى الشام ، أضافه إلى رافع أمير الكلبيين لقتال صالح وحسان ، وكان مقدم العسكر أنوشتكين ، فاجتمع صالح وحسان على قتاله ، فاقتلوا بالآقحوانة على الأرذن عند طبرية ،

(١) زمر يزمر غنى في القصب وامرأة زامرة . والزماراة الزانية وزمرت النعامة صوتت والربد النعام جمع ربداء وهي السوداء أو التي لونها كلون الرماد أو التي في سوادها نقط بيض أو حمر (ج) .
 (٢) أي لنداري (ج) .

فقتل صالح وولده الأصغر ، وأنفذ رأسهما إلى مصر .
ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح ، فجاء إلى حلب
فملكها ، وكان لقبه شبل الدولة . فلما علمت الروم بأنطاكية
ذلك ، تجهزوا إلى حلب في عالم كثير ، فخرج أهلها إليهم ،
فحاربوهم فهزموهم . ونهبوا أموالهم ، وعادوا إلى انطاكية ،
وبقي شبل الدولة مالكا حلب إلى سنة ٤٢٩ هـ .

وفي سنة ٤٢٠ هـ نهض أهل الغرب من ضياع المعرة ،
وأفامية ، وكفرطاب ، إلى كفرنبل ، وكان أهلها نصارى ،
فأرادوا قتلهم ، فامتعت النصارى أياها ، وأكثروا القتلى من
المسلمين ، ثم رحلوا منها سرا إلى بلد الروم ، فأعطوهم ضيعة
تعرف بنيكارين .

وفي سنة ٤٢٢ هـ ملك الروم قلعة أفامية بسبب حسان بن
مفرج الطائي أمير طيء وغنموا ما فيها وأسروا وسبوا .
وسأني تفصيل ذلك في أفامية .

وفي سنة ٤٢٥ هـ حدث بالمعرة منصور بن علي بن منصور
أبو الحسين الهروي الواعظ غن أبي علي أحمد بن محمد بن
منصور الخالدي وغيره ، وروى عنه القاضي أبو غانم عبد الرزاق

ابن عبد الله بن المحسن بن عمرو التَّنُوخي المعري وغيره ، وهو
راجع من الحج .

وفي سنة ٤٢٩ هـ أرسل الدِّزْبِرِي العساكر المصرية إلى
سَبَل الدَّوْلَة ، وكان صاحب مصر حينئذ المستنصر بالله ، ولي
بعد وفاة الظاهر سنة ٤٢٧ هـ ، فلقبهم عند حماة ، وقتل في
شعبان ، وملك الدزبري حلب في رمضان سنة ٤٢٩ هـ .

ولما كان أنوشتكين في دمشق كان يوجه إلى أبي العلاء
بالسلام ، ويخفي المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل ، فعمل
له كتاباً سماه (شرف السيف) .

وبقيت حلب في ملك الدزبري حتى توفي في جمادى الأولى
سنة ٤٣٣ هـ .

وكان أبو علوان ثمال بن صالح بن مِرْدَاس الملقب بمُعِزِّ
الدَّوْلَة بالرحبة ، فلما بلغه موت الدزبري جاء إلى حلب ،
فملكها تسليماً من أهلها ، وحصر أمانة الدزبري وأصحابه في
القلعة أحد عشر شهراً ، ثم ملكها في صفر سنة ٤٣٤ هـ ، وبقي
فيها إلى سنة ٤٤٠ هـ .

وجهر ثمال إلى المعرة والياً ، فأساء التدبير ، فأنحرف عنه الناس ، وهرب ، فبادر جعفر أمير حمص ، وتجهز إلى المعرة بنفسه ، ولقيه مُقلَّد بن كامل بن مرداس ، فأوقع به وقتله ، وشهر رأسه بحلب .

ثم أنفذ المصريون: إلى محاربة معز الدولة أبا عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان ، فخرج أهل حلب إلى حربه ، فهزمهم ، ثم عاد إلى مصر .

ثم أنفذ المصريون: إلى قتاله خادماً يعرف برقيق ، فقاتله أهل حلب ، فانهزم المصريون ، وأسر رقيق سنة ٤٤١ هـ ، ومات عندهم .

ثم أصبح معز الدولة أمره مع المصريين ، وأرسل إليهم الهدايا ، ونزل لهم عن حلب ، فأنفذوا إليها أبا علي الحسن بن علي بن ملهم ، ولقبوه مكيين الدولة ، فتسلمها من ثمال في ذي القعدة سنة ٤٤٩ هـ ، وسار ثمال إلى مصر في ذي الحجة ، وعمل أبو العلاء لمعز الدولة رسالة الضبعين .

وفي سنة ٤٤٠ هـ ^(١) كتب سيف الدولة مُقلَّد بن كامل بن

(١) ابن الوردي : التاريخ ١ : ٣٥١ .

مِرْدَاس الكِلَالي ، وهو نازل في كَفَر طَاب في جمع من العرب ،
إلى واليه بالمعرة أبي خليفة ابن جهان ، أن يخرب سورها ،
ويهدمه كله إلا بُرْج وحيدة ، وبرج بني الحجال ، ومواضع قليلة
لناية وقعت بها .

وفي سنة ٤٥٢ هـ جاء معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس
بجيشه إلى المعرة ، لقضاء قسم من فصل الشتاء ، وكانت وطأته
شديدة على أهلها .

وفي سنة ٤٥٤ هـ هم أهل المعرة بعمل السور ، ونصبوا عليه
المناجيق والعجل تجر الحجارة ، والجبال تحملها من شُبَيْث^(١)
وغيره ، وكان أميرها أبو الماضي ينفق عليه من ماله وجاهه ،
حتى كمل في شهور سنة ٤٥٥ هـ .

وفي تلك السنة أومض البرق ومضت وأعقبتها صيحة سقط
الناس لها على وجوههم ، وماتت بها طيور كثيرة في المعرة .
وفي سنة ٤٥٧ هـ أقطعت المعرة إلى الملك هرون بن خان
مالك الترك ، فيما وراء نهر جِيْنَحُون ، أخذها حرباً وخراجاً ،
ووصل إليها ومعه نحو ألف رجل من الترك ، والدَّيْنَام ،
والكَرْد ، والكَرَج ، مع حاشيتهم وأتباعهم ، وتعففوا فيها عن

(١) في معجم البلدان ٣ : ٢٥٧ : جبل بنواحي حلب .

الأذى ، حتى إنهم سقوا دوابهم الماء بشفته . ونزل بالمصلى ،
وجعل في حصن المعرة بعض حجابيه ، وأقام يسيراً ، ثم
نقل إلى حلب ، وعوض عن المعرة مالا ، قدم هذا إلى الشام ،
مغاضباً لأبيه ، وولي المعرة بعده الأمير فارس الدولة
يونس الصالحى .

وفي سنة ٤٦٠ هـ جاءت رعدة عظيمة في المعرة ، أغرمي على كثير
من الرجال والنساء والصبيان من صوتها ، وأعقبها سحب عظيم ،
كان معظمه على جبل بني عُلمين ، وفيه برد ، فاقتلع الشجر ،
وجرى منه سيل في وادي سُنان ، الذي فيه العين ، فكان من
الجبل القبلي إلى الجبل الشمالي ، وغطى شجر الجوز ، وأخذ
سخرة يعجز عن قلبها خمسون رجلاً ، ومضى بها ، فلم يعرف
لها ذلك الوقت موضع .

وفي سنة ٤٦١ هـ جمع قطبان^(١) أنطاكية وقسها المعروف
بالبخت جموعاً إلى حصن أسفونا^(٢) من قرى المعرة ، بعملية

(١) في نهر الذهب للغزي ٣ : ٧٢ : قطبان (ج) .

(٢) في تاريخ ابن الوردي ١ : ٣٧٣ أشعوبا ، وفي نهر الذهب للغزي

٣ : ٧٢ : اسقوبا ، والصواب أسفونا بفتح فسكون فضم الفاء

وسكون الواو ونون والف كما ضبطه ياقوت في معجم البلدان ١ : ٢٤٩ (ج)

عملها لهم قوم يعرفون بيني ربيع من أهل جوزف ففتحوه
وقتلوا وأسروا رجاله وواليه نادراً التركي ، فاتته خبر ذلك
إلى الأمير عز الدولة محمود بن نصر بن صالح ، وهو يسير في
ميدان حلب ، فسار إليه ولم يدخل البلد ، ومعه خمسون
ألفاً من الترك والعرب ، وأخذه من النصارى ، وقتل منهم
ألفين وسبعمئة نفس ، فقال أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين
يمدحه ويذكره :

عِدَاؤُكَ مِنْكَ فِي وَجَلٍ وَخَوْفٍ يُرِيدُونَ الْمَعَاوِلَ أَنْ تَصُونَا
فَظَلُّوا حَوْلَ أَشْفُونَا كَقَوْمٍ أَنِّي فِيهِمْ فَظَلُّوا آسِفِينَا

وهذا الحصن عمره حسين بن كامل بن حسين بن سليمان
ابن الدَّوْح العَمْرِي المَرْتَدِي ^(١) الكِلَابِي ، ومعه جماعة من
المعرة ، وكَفَرطَاب ، وضياعها في سنة ٤٥٦ هـ وأكمل عمارته
في مدة يسيرة ، فتعجب الناس لسرعة عمارته ، ثم إن محمود
ابن كُصْر رهن ولده نصراً عند صاحب أنطاكية ، على أربعة

(١) في نهر الذهب للغزي ٣ : ٧٢ : المرشدي (ج) .

عشر ألف دينار^(١) وخراب حصن أسفونا إذا ملك حلباً ،
وأخذها من عمه عطية ، فلما ملكها أخرج عزيز الدولة ثابتاً ،
وشبل بن جامع ، وجما الناس من المعرة ، وكفرطاب ،
وأعمالهما ، وخربا الحصن المذكور ، وذلك سنة ٤٦١ هـ فقال
فيه بعض الشعراء :

وَهَدُّوا بِأَيْدِيهِمْ حِصْنَهُمْ وَأَعْيُنُهُمْ حَزَنًا تَدْمَعُ
عَجِبْتُ لِسُرْعَةِ بُنْيَانِهِ وَلَكِنْ تَخْرِيْبُهُ أَسْرَعُ^(٢)
وفي سنة ٤٦٢ هـ جاء السلجوقيون إلى أنحاء حلب ، فعاثوا
في المعرة كثيراً ، وأفسدوا .

وفي (إعلام النبلاء)^(٣) عن ابن العديم في تاريخه ، عن
أبي الحسن علي بن مرشد بن علي بن مقلد ، قال : كان أبو سالم

(١) في نهر الذهب للغزي : ٣ : ٧٢ ، ٧٣ : اقتضى محمود بن نصر
من الروم أربعة آلاف دينار ، ورهن ولده نصرأ عليها وعلى هدم الحصن
المذكور ، وما ذكرنا عن ابن الوردي في تاريخه ١ : ٣٧٣ وابن المذهب
المعري وياقوت في معجم البلدان ١ : ٢٤٩ (ج) .
(٢) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٧٢ .
(٣) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٣٤١ ، ٣٤٢ .

ناجية غلام عز الدولة محمود متولي الشام ، وكان من الظلم على باب ما فتحه الحجاج ، وكان محمود قد أخرجه ليصادر الناس ، فحدثني من أثق به أنه صادر أهل المعرة ونواحيها ، ويزين ونواحيها على ستة عشر ألف دينار ، بعد ما هتك منها الأستار ، وكان ذلك لاضطراب عقل محمود من المرض الذي ناله ومات فيه وذلك في سنة ٤٦٧ هـ ومحمود هذا هو عز الدولة محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس ، وقيل توفي سنة ٤٦٨ هـ أو سنة ٤٦٩ هـ .

وفي سنة ٤٦٥ هـ هرب الأمير أبو الجيوش علي بن المقلد بن منقذ من حلب ، خوفاً من صاحبها الأمير محمود بن صالح ، حين عرف عزمه على القبض عليه ، ثم قصد المعرة ، وكفرطاب . وفي سنة ٤٧٢ هـ زحف تاج الدولة تئش السلجوقي بجيش من دمشق نحو شمالي الشام ، فأحرق أعمال جبل الشماق وبني عليّيم ، وغرم أهل سزمين والمعرة مبالغ عظيمة ، وأتعب القرى في شرقي المعرة وحاصر تل منس ، ولم يظفر فيها بطائل ، وأحرق معرتاريجا في كورة كفرطاب ، ولعلها معرتارح .

وفي سنة ٤٧٩ هـ دخل الأمير كَضر بن علي بن مُنقذ صاحب شينَزَر ، في طاعة السلطان مَلِكشاه ابن آل ارسلان السلجوقي ، وسلم إليه اللأذقية وكَفَرطاب وأقامية .

وفي سنة ٤٨٤ هـ ملك قسيم الدولة حصن أفاعية .

وفي سنة ٤٨٨ هـ اقطع رضوان بن تُشش مدينة المعرة وأعمالها ، إلى سقمان بن أرتق أخي نجم الدين ايلغازي ، وفي سنة ٤٩٠ هـ خصب للبيدي بحلب ، وأنطاكية ، والمعرة ، وشينَزَر شهراً ، ثم أعيدت الخطبة للعباسيين .^(١) وفي (إعلام النبلاء) : خطب له في جميع الأعمال أربع جمع ، سوى حلب^(٢) ، وأنصاكية ، والمعرة .

وفي سنة ٤٩١ هـ^(٣) خرج صنجيل في ذي الحجة ، وحصر البارة ، وكانت من عمل المعرة ، فقل الماء على أهلها ، فأخذها بالأمان ، وغدر بأهلها ، وعاقب الرجال والنساء ، واستصفى أموالهم ،

(١) الطباخ : إعلام النبلاء ٧٣/١ (ج) .

(٢) بعض المؤرخين يذكر أخذ المعرة في حوادث سنة ٤٩١ هـ ، وبعضهم يذكرها في حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، ولا خلاف في ذلك ، لأن الاول نظر إلى مبدأ وصولهم إلى المعرة ، وقد كان سنة ٤٩١ هـ ، والثاني نظر إلى تاريخ استيلائهم وقد كان سنة ٤٩٢ هـ (ج) .

وسبى بعضاً ، وقتل بعضاً ، وذهبوا إلى الرُّوج بين حلب والمعرة
وفي هذه السنة أخذ الفرنج أنطاكية ، فخرج من فيها من
الفرنج والأرمن الذين في طاعتهم ، وانضم إليهم النصارى ،
وانضموا إلى صنجيل . وكان ذلك في شعبان من السنة المذكورة
فوصلوا إلى المعرة ، ونزلوا عليها لليلتين بقيتا من ذي الحجة
وقيل في اليوم التاسع والعشرين منه ، في مائة ألف ، وحاصروها
وقطعوا الأشجار ، وزحفوا إلى سور المعرة من الناحية
الشرقية والشمالية في المحرم من هذه السنة .

واستغاث أهلها بالملك رِضوان ، وجَناح الدولة ، فلم
ينجدهم أحد ، ثم اتخذ الفرنج برجاً من خشب ، وأسندوه
إلى سورها ، فكان أعلى منه ، فزحفوا إلى البلد ، وقاتلوا من
جميع نواحيه ، حتى لصق البرج بالسور ، فكشفوه ، وأسندوا
السلام إلى السور فصعدوه ، وكانت رسل الفرنج تتردد إلى أهل
البلد في التماس التقرير والتسليم واعطاء الأمان على نفوسهم
وأموالهم ودخول الشحنة ، وأعطوهم الأمان على نفوسهم وأموالهم
والأ يدخلوا إليهم ، بل يبعثون إليهم شحنة ، فنزع من ذلك

الخلف بين أهلها ، وثبت الناس في الحرب من الفجر إلى صلاة المغرب ، وقتل على السور وتحت خلق كثير ، ثم دخلوا البلد بعد المغرب ليلة الأحد الرابع والعشرين^(١) من المحرم سنة ٤٩٢ هـ . وانهمز بعض الناس إلى دور حصينة ، وطلبوا الأمان من الفرنج ، فأمنوهم ، وغدروا بهم ، ورفعوا الصليبان فوق البلد ، وقطعوا على كل دار قطيعة ، واقتسموا الدور وهجموها ، ولم يفوا بشيء مما قرروه ، ونهبوا ما وجدوه ، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به .

وناموا فيها ، وجعلوا يهددون الناس حتى أصبحوا ، فاخترطوا سيوفهم ، ومالوا على الناس ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وسبوا النساء والصبيان ، ولم يسلم إلا القليل من كان في شيزر وغيرها من بني سليم ، وبني حصين ، وغيرهم ، وقتلوا تحت العقوبة جمعاً كثيراً ، فاستخرجوا ذخائر الناس ومنعواهم من الماء ، وباعوه منهم ، فهلك أكثرهم من العطش ، وملكوها ثلاثة وثلاثين يوماً بعد الهجمة ، ولم يبقوا بها ذخيرة

(١) قال ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ - ١٣٦ : من

اليوم الرابع عشر من المحرم (ج) .

إلا استخرجوها ، وهدموا سور البلد وبروجه ، وأحرقوا مساجده
ودوره ، وكسروا المنابر .

وفي (دائرة المعارف الفرنسية) ^(١) : أن الذي استولى على
المعرة وخربها يسمى بوهيمو سنة ١٠٩٩ هـ

وقد اختلفت كلمة المؤرخين في مقدار من جاءها من الفرنج
وأعوانهم من النصارى والأرمن ، وفي مقدار من قتل من أهلها
من يوم فتحها إلى أن جلا عنها الفرنج ، وفي مقدار إقامتهم
فيها ، فقال بعضهم ، ولم يعين بمقداراً : خرج جماعة من الفرنج
في شعبان ، وزحفوا مع أهل تل منس ونصارى المعرة فقاتلوها
ووصلت قطعة من عسكر حلب اليهم والتقوا بين تل منس والمعرة ،
فانهزم الفرنج ...

وفي سنة ٤٩١ هـ لليلتين بقيتا من ذي الحجة .. حاصروا المعرة...
وقال في (النجوم الزاهرة) في حوادث سنة ٤٩١ هـ : إن الفرنج
ساروا إلى المعرة في ألف ألف إنسان ، وقتلوا مائة ألف إنسان ،
وسبوا مثلها ، وفعلوا مثل ذلك في كَفَرطَاب .

• La grande encyclopédie 22: 851 (١)

وقال ابن الشُّحْنَة في (الدر المنتخب)^(١) : تجمع الافرنج من أنطاكية والأرمن الذين في طاعتهم ، وانضم اليهم النصارى في مائة ألف ، ووصلوا الى المعرة وحاصروها ، وقطعوا الأشجار ، وعملوا برجاً من خشب ، وزحفوا الى البلد ، وقتلوا من جميع جوانبه ، ودخلوا البلد بعد المغرب ، فقتلوا نحو عشرين ألفاً من الرجال ، وقيل : مائة ألف ، وسبوا الجميع بعد أن أمنوهم ، وهدموا أسوارها ، وأحرقوا المساجد ، وكسروا المنابر ، وهدموا الدور ، وقال سبط ابن الجوزي : قتلوا من أهلها مائة ألف ، وسبوا مثل هذا العدد .

وقال ابن الأثير^(٢) في حوادث سنة ٤٩١ هـ بعد ذكر فتح أنطاكية : لما فعل الفرنج بالمسلمين ما فعلوا ، ساروا الى معرة النعمان ، فنازلوها وحاصروها ، وقتلهم أهلها قتلاً شديداً ، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية ؛ ولقوا منهم الجِد في حربهم ، والاجتهاد في قتالهم ، فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازي سور المدينة ، ووقع القتال عليه ، فلم يضر المسلمين ذلك ،

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ٢١٦ (ج) .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٠٣ .

فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين ، وتداخلهم الفشل والهلع ، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها ، فنزلوا من السور ، وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه ، فرأتهم طائفة أخرى ، ففعلوا كفعلهم ، فخلا مكانهم أيضاً من السور . ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول ، حتى خلا السور ، فصعد الفرنج اليه على السلام ، فلما علوه تحير المسلمون ، ودخلوا دورهم ، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام ، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف ، وسبوا السبي الكثير وملكوه ، وأقاموا أربعين يوماً ، وساروا الى عِرْقَة ..

وقال في (النجوم)^(١) : وجاءوا الى المعرة ، فنصبوا عليها السلام ، فنزلوا اليها ، فقتلوا من أهلها مائة ألف إنسان ، قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : وسبوا مثلها ..

وقال ابن القلاّسي : ساروا اليها في ألف ألف إنسان ، فقتلوا وسبوا حسب ما ذكرنا^(٢) .

وقال ابن الغديم نحواً من قول ابن الشُّخْنة ، وإنهم وصلوا

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥ : ١٤٦ .

(٢) ابن القلاّسي : ذيل تاريخ دمشق ١٣٥ ، ١٣٦ .

المعرة لليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف ، ثم قال :
وقتل على السور وتحتة خلق كثير . ثم ذكر أنهم لما أصبحوا
قتلوا خلقاً كثيراً ، وسبوا النساء والصبيان ، وقتل فيها أكثر
من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي ، ولم يسلم إلا القليل
من كان في شينزور وغيرها ، وانهم قتلوا تحت العقوبة خلقاً كثيراً .
وأن أكثر الناس هلك من العطش ، ولكنه لم يحصر جميع العدد .
وفي أبي الفداء ^(١) وابن الوردي ^(٢) والكامل لابن الأثير ^(٣) :
أن الفرنج استباحوا المعرة ثلاثة أيام ، ووضعوا السيف في
أهلها ، فقتلوا منهم ما يزيد على مائة ألف إنسان .

وذكر غيرهم : أنهم جاؤوها بمائة ألف من أنطاكية ، وضموا
اليمن الأرمن الذين كانوا في طاعتهم وبعض نصارى البلاد .
وقال ميشو .. : إنهم قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين
الذين اعتصموا بالمساجد ، واختبأوا في السرايب ، فأصبحت
خاوية على عروشها ، وفقد الفاتحون كل زاد ، وساءت حالهم ،

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٢١ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ١٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٠٣ .

ثم وقع بينهم الخلاف ، وصاروا يأكلون جثث الموتى ..
وفي (الدر المنتخب)^(١) : وملكوا معرة النعمان ، وقتلوا كل من فيها .
والذي أعتقده أن أهل المعرة لم يقتلوا كلهم في هذه الحادثة ،
بل نجح فريق منهم ، واعتصم بالبراري والجبال ، ولجأ فريق
منهم إلى شيزر وغيرها ، بدليل ما تقدم وما يأتي من أن
وجيها التوخي دخلها بعد أخذ الفرنج إياها .

ففي كلام ميشو وغيره شيء من المبالغة يراد به : أنهم
قتلوا من بقي فيها ، ولم يعتصم بفرار أو لم يختبئ .

أما مدّة إقامتهم فيها ، فقد ذكر ابن القلانسي^(٢) : أنهم
دخلوها في المحرم ، ورحلوا عنها يوم الخميس السابع عشر من
صفر إلى كَفَرطاب ، ونقل عنه أنه قال : أقاموا عليها إلى أن
رحلوا عنها في آخر شهر رجب إلى القدس .

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ٧٧ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٢٥ ، ١٢٦ .

وفي أبي الفداء^(١) ، وابن الوردي^(٢) ، و(الكامل)^(٣) : أقاموا فيها أربعين يوماً ، ثم ساروا إلى حِمص وغيرها .
وفي ابن العديم : وملكوها ثلاثة وثلاثين يوماً بعد الهجمة ، وهذا قريب من قول ابن القلانسي^(٤) أنهم دخلوها في الرابع عشر من المحرم ، ورحلوا عنها .
وقد استكثر بعض أهل العصر مقدار الغزاة والمقتولين من أهل المعرة .

والحق أن كون الفرنج وأعوانهم من الأرمن والنصارى ألف ألف كثير ، وأما كونهم مائة ألف أو يزيدون شيئاً قليلاً فغير كثير ، ولا يتسنى لأقل من هذا العدد العظيم أن يحصر المعرة ويفتحها لتكافؤ العتاد والعدَد وقتل بين الفريقين ، ويزيد المعريون على أعدائهم شدة بأسهم واستماتتهم في الدفاع عن بيضتهم ، واتساع الرقعة ما بين أنطاكية مقر الفرنج

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٢١ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ١٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٠٣ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٣٥ ، ١٣٦ .

والمعرة ووعورة مسالكها يعوز إلى عدد كبير لمحافظة الجيش الفاتح كيلا يتخطفه أهل البلاد من أطرافه . وقد كان مثل هذا الجيش وأعوانهم يعيشون بما يغنمون من بلاد أعدائهم ، وليسوا مثل الجيوش المنظمة في هذا العصر ، تتكفل له الدولة بكل ما يحتاج إليه من عدة وعتاد ، وسلاح وذخائر ، ونفقات . ولهذا يتسنى لكل أحد أن يكون في زمرة الجيش ليغنم ويشفي غلة نفسه .

وأما كون المقتول من أهل المعرة مائة ألف ، والمسي منهم مثلها فغير كثير ، وذلك لأمر : أولها : أن المعرة كانت مدينة جليلة ، وكان أهلها كثيرين ، ولو كان عددهم قليلاً ما استطاعوا العصيان على سيف الدولة ، وصالح ابن مرداس حين حاصرها ، وقد قتل القرمطي وغيره من أهلها خلقاً كثيراً ، ولم تقفر من أهلها لكثرة الباقي منهم .

ثانيها : أن حول المعرة حصوناً كثيرة لها ، لا يزال بعضها عامراً أو ماثلاً إلى اليوم ، كحصن كَفَر رُوما ، وحصن حُنَّاك ، وغيرهما مما هدم بعد هذا التاريخ ، ومنها ما يبعد عن

المعرة في هذا العصر نصف ساعة على الفارس ، ومنها ما هو أكثر من ذلك . وقد قدمنا قولاً أن لها أبواباً سبعة ، بعد كل واحد منها ساعة ، وهذا يدل على اتساع رقعتها ، ولا يعقل أن تكون في هذه السعة مع قلة أهلها .

ثالثها : بما لا ريب فيه أن أهل القرى التي كان الفرنج يعبرون بها في طريقهم إلى المعرة والقرى المجاورة إياها ، كانوا ينزحون منها إلى المعرة ليعتصموا بها ، وكذلك الأعراب الضاربون حولها ، فمن الجائز أن يكون اللاجئون من هؤلاء إلى المعرة بقدر أهلها أو أكثر ، ويحوز أن يكون جماعة أرادوا مباينة المعريين في الحرب فحاصروا مع أهل المدينة . ولا يستكثر على الفرنجة الفاتحين أن يقتلوا أضعاف هذا العدد ، بعد ما كتب لهم الظفر ، لأنهم أقسى قلوباً من الوحوش الضارية .

وخلاصة هذه الفاجعة على وجه التقريب أن الفرنج بعد أخذهم أنطاكية ، قصدوا المعرة بمائة ألف^(١) منهم أو يزيدون

(١) وفي التاجم الزاهرة ٥ : ١٦١ : ثم وردت الأخبار إلى بغداد بأن الفرنج ملكوا أنطاكية وساروا إلى معرة النعمان في ألف ألف إنسان ، فقتلوا وسبوا حسب ما ذكرنا في أول ترجمة المستعلي هذا .

مع من انضم إليهم من الأرمن ونصارى البلاد ، فوصلوها
لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٤٩١ هـ^(١) وحاصروها من الشمال
والشرق ، ثم حاصروها من جميع أطرافها ، وبنوا برجاً من
خشب وأسندوه إلى السور ، وارتقوا على السلالم إلى السور ،
ثم دخلوا المدينة بعد المغرب من ليلة الأحد الرابع والعشرين
من محرم سنة ٤٩٢ هـ ، وقتلوا من أهلها قبل الفتح وبعده في

(١) قال ابن القلانسي : وفيها (٤٩١ هـ) توجه الافرنج الى معرة
النعمان بأسرهم ونزلوا عليها في اليوم التاسع والعشرين من ذي الحجة وقتلوا
ونصبوا عليها البرج والسلام . . . إلى أن قال : وفي المحرم (٤٩٢ هـ)
زحف الافرنج الى سور معرة النعمان من الناحية الشرقية والشمالية وأسندوا
البرج الى سورها وهو أعلى منه فكشفوا المسلمين عن السور ولم يزل الحرب
عليه الى وقت المغرب من اليوم الرابع عشر من محرم وصعدوا السور
وانكشف أهل البلد عنه وانهمزوا بعد أن ترددت اليهم رسل الافرنج في التماس
التقرير والتسليم وإعطاء الأمان على نفوسهم وأموالهم ودخول الشحنة اليهم ،
فمنعهم من ذلك الخلف بين أهلها وما قضاه الله تعالى وحكم به وملكوا
البلد بعد صلاة المغرب وقتل فيه خلق كثير من الفريقين وانهمز الناس
الى دور المعرة للاحتباء بها ، فأمنهم الافرنج وغدروا بهم ورفعوا الصليبان
فوق البلد ، وقطعوا على أهل البلد القطائع ، ولم يغفوا بشيء مما قرروه
ونهبوا ما وجدوه وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به ورحلوا يوم الخميس
السابع عشر من صفر الى كفرطاب ، ثم قصدوا بعد ذلك ناحية بيت المقدس
آخر رجب من سنة ٤٩٢ هـ (ذيل تاريخ دمشق ١٣٥ ، ١٣٦) .

الحرب والتعذيب والعطش مائة ألف وأكثر ، بعد أن أذاقوهم
ضروباً من العذاب ، وسبوا من النساء والصبيان نجواً من
هذا القدر ، وأنهم قطعوا الأشجار ، وأحرقوا المساجد ، وكسروا
المنابر ، وهدموا الدور والبروج والصور ، وأقاموا فيها نجواً
من أربعين يوماً ، ولم يبقوا عند أهلها ذخيرة ، حتى أصبحت
يدل عليه قول قاعاً صفصفاً وخراباً يباباً .

ولعل دخولهم المعرة كان يوم الاثنين أو ليلة الاثنين كما
بعض شعراء المعرة في ذلك :

مَعْرَةُ الْأَذْكِيَاءِ قَدْ حَرِدَتْ عَنْهَا وَحَقُّ الْمَلِيحَةِ الْحَرْدُ
فِي يَوْمِ الْأَثْنَيْنِ كَانَ مَوْعِدُهُمْ فَمَا نَجَا مِنْ خَيْسِمِ أَحَدُ

وفي ابن عساكر^(١) : دخل أبو المقدم وجيه بن عبد الله بن مسعر

التنوخي المعرة بعد أن أخذها الفرنج فقال^(٢) :

هَذِهِ بَلَدَةٌ قَضَى اللَّهُ يَا صَا حَ عَلَيْنَا ، كَمَا تَرَى بِالْخَرَابِ

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق المجلد ٩ ق ٤١٨ / ٢ من مخطوطات الظاهرية .

(٢) هذه الأبيات تمثل بها وجيه وهي [والتي قبلها] لعمود بن علي بن المهنا
المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وستأتي ترجمة كل منهما (ج) .

قَفِيفِ الْعِيسِ وَقَفَّةً وَابْكَ مِنْ كَأَنَّهَا مِنْ شُيُوخِنَا وَالشَّبَابِ
وَأَعْتَبِرْ: إِنْ دَخَلْتَ يَوْمًا إِلَيْهَا فَهِيَ كَأَنَّكَ مَنَازِلَ الْأَحْبَابِ
وإذا نظر الإنسان إلى مدينة الفرنجة الحاضرة في القرن
العشرين ، ربما أنكر ما نسب إليهم من الفظائع والمنكرات
التي ارتكبوها في المعرة وغيرها في الحروب الصليبية ، ولكن
من استقرى أحوالهم لا يجد بينهم وبين الوحوش الضارية فرقاً
كبيراً ، وتبين أنهم كانوا بعيدين عن كل حضارة ومدنية ، وإليك
قصة ذكرها أسامة بن منقذ^(١) في كتاب (الاعتبار) ، تدل على حالة
الفرنجة الذين فتحوا المعرة وقوضوا عمرانها وحضارتها. قال أسامة :
كان عندنا رجل حمامي يقال له : سالم من أهل المعرة في حمام
لوالدي قال : فتحت حماماً في المعرة أتعيش فيها ، فدخل إليها
فارس منهم (أي الفرنجة) ، وهم ينكرون على من يشد في وسطه
المثزري في الحمام ، فمد يده فجذب مثزري من وسطي ورماه ،
ورآني وأنا قريب عهد بحلق عاني ، فقال : سالم فتقربت منه ،
فمد يده على عاني ، وقال : سالم جيد وحق ديني اعمل لي

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ١٣٦ (ج) .

كذا ، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع ،
فحلقتة ، فريده عليه ، فاستوطأه ، فقال : سالم بحق دينك
اعمل « للداما » ، والداما بلسانهم « الست » يعني امرأته ، وقال لغلام
له : قل للداما تجيء ، فمضى الغلام وأحضرها ، وأدخلها
فاستلقت على ظهرها ، وقال : اعمل كما عملت لي فحلقت ذلك
الشعر ، وزوجها قاعد ينظرني ، فشكرني ، ووهبني حق خدمتي .
وانما أوردت هذه القصة لأجمع فيها بين النادرة وبين ما كان
الفرنجية يكلفون به الناس من الأعمال التي تتقزز منها نفوسهم ،
وتأبأها عاداتهم وتقاليدهم ، وبين ما كانوا عليه من الهمجية .
على أن لهم من الفظائع والمنكرات التي ارتكبوها بعد ذلك
في الأندلس وغيرها في العصور الخالية ، وفي بلاد الشام وغيرها
في العصر الحاضر ، ما هو أشد من هذا وذاك ، كما سنقف
عليه إن شاء الله تعالى .

وذكر في كتاب (البستان الجامع) ^(١) : أنه في سنة ٤٩٢ هـ نقل
مصحف عثمان إلى دمشق من المعرة ، ولعل ذلك كان بعد
خروج الفرنجة منها ، ويحوز أن يكون وقت دخولهم .

(١) البستان الجامع ص ٨٧ ، (ج) :

وفي سنة ٤٩٣ هـ^(١) وصل مبارك بن شبل أمير بني كلاب ، في جمع كثير من العرب ، فخالف الملك رِضْوَان ، ورعوا زرع المعرة ، وكَفَرَطَاب ، وحماة ، وشِنْزَر ، والجِسر ، وغير ذلك ، وخلت البلاد ، ووقع الغلاء في حلب ، ولم يزرع شيء في بلدها ، ثم سلط الله الوباء على العرب ، فمات شبل ومُبارك ولده ، واضمحلت دولة العرب ، ثم التقى رضوان مع الفرنج ، فانهزم واستبيح عسكره ، وقتل خلق كثير ، وأخذ الفرنج برج كَفَرَحَلْب ، وبُزج الحاضر ، وصار لهم من كفرطاب إلى الحاضر ، ومن حلب غرباً ، سوى تَلَمَّش ، فان أصحاب بَجَنَاح الدولة كانوا بها .

ثم تجمع الفرنج بالجزر ، وسرّمين ، وأعمال حلب ، وجمعوا العدد والغلال لحصار حلب ، وعولوا على حصارها في سنة ٤٩٥ هـ ، أو قبلها ، فبلغهم أن أنوشتكين الدانشمند نازل بعض معاقل الفرنج ، وهي ملطية ، فعادوا للدفاع عنها ، وهربوا من أعمال حلب ، وتركوا ما كانوا أعدوه ، فخرج رضوان وأخذ الغلال

(١) الطباق : إعلام النبلاء ١ : ٣٨٧ عن ابن المديم (ج) .

التي جمعوها ، ونزل سَرْمِين ، وسار جناح الدولة إلى أَسْفُونَا ،
وبه جماعة من الفرنج فهجمه ، وقتل جميع من فيه ، وسار
إلى سَرْمِين فكبس عسكر الملك رَضْوَان ونبيه ، وانهزم رَضْوَان
وأكثر عساكره ، واستغل جناح الدولة سَرْمِين ومعرة النعمان ،
وكَفَرطَاب ، وحماة .

وفي سنة ٤٩٣ هـ أيضاً سار يميند الفرنجي صاحب أنطاكية
إلى قلعة فامية^(١) فحصرها وقتل أهلها أياماً ، وأفسد
زرعها ، ثم رحل عنها^(٢) .

وفي سنة ٤٩٦ هـ وقع بين الفرنج وبين سكان وجكرمش
وقعة عظيمة ، استظبر فيها المسلمون ، وهلك الفرنج ، وأسرى
القَمَص ، فأنفذ الملك رَضْوَان إلى الجزر وغيره من أعمال
حلب التي في أيدي الفرنج ، يأمرهم بالقبض على من عندهم
من الفرنج ، ففعل ذلك أهل القُوعَة وسَرْمِين ، ومعرة مَضْرِين ،
وغيرها ، ولم يبق بأيدي الفرنج غير الجَبَل ، وهَاب ، وحصون

(١) وتسمى : أقامة .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٢٥ .

المعرة ، وكَفَرطاب ، وصوران ، فوصل شمس الخواص ، وفتح
صوران ، فهرب من كان بلطمين ، وكفرطاب ، وبلد المعرة
والبارة إلى أنطاكية ، وسلموها إلى رضوان ما خلا هاب .
وفي سنة ٤٩٧ هـ أرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور
صاحب حماة ، يبذل له منبج ، وقلعة نجم ، على أن يصير
معه على عمه الملك العادل ، فاعتذر إليه يمين في عنقه للملك
العادل ، فسار إلى المعرة ، وأقطع بلادها .

وفي سنة ٤٩٩ هـ نزل الفرنج على أفامية وحاصروها
حتى جاع أهلها ، ثم ملكوها ، وقتلوا قاضي سمرمين المتغلب
عليها ، وابن الصائغ الذي أظهر مذهب الباطنية بالشام وقيل :
إن ابن الصائغ قتله رئيس حلب ابن بديع سنة ٥٠٧ هـ ، وستأتي
هذه الحادثة في الكلام على أفامية .

وفي سنة ٥٠٥ هـ جهز السلطان محمد العساكر الإسلامية
لقتال الفرنج ، وفيهم الأمير مودود ، والأمير سكهان^(١) ،
والأمراء : ايليكي ، وزنكي ، وغيرهم .

(١) لعله سكهان كما في قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ٤ : ٢٥٨٥ .

فوصلوا إلى حلب ، فأغلق الملك رِضوان أبواب البلد ، ولم يجتمع بهم ، فرحلوا إلى المعرة في أواخر صفر سنة ٥٠٥ هـ ، وأقاموا عليها أياماً ، ووجدوا حولها ما ملأ صدورهم مما يحتاجون إليه من الغلات ، وما عجزوا عن حمله ، ثم تفرقوا لأسباب وبقي مودود وطُغتكين بالمعرة ، ثم رحلا إلى شيزر ، وفي الروضتين ^(١) : أن مودوداً خسر معركة النعمان سنة ٥٠٢ هـ وسيأتي تفصيلها في الكلام على أفامية . وذكر غير واحد هذه الحادثة في سنة ٥٠٤ هـ ، فلعلها انقضت ، ودخلت السنة الثانية أي سنة ٥٠٥ هـ .

وفي سنة ٥٠٦ هـ حمل جماعة من الباطنية من أهل أفامية ، ومعرة النعمان ، ومعرة مَضْرِين ، على حِصْن شيزر في فصح النصارى فرتب فيه مائة راجل على حين غفلة من أهله ، فلكوا الحصن ، وأخرجوهم منه ، وأغلقوا أبوابه . ثم قتلهم بنو مُنْقِذ عن آخرهم .

(١) أبو شامة : الروضتين ٢٧ (ج) .

وفي سنة ٥٠٨ هـ^(١) بلغ السلطان محمد بن ملكشاه أن أميريه آقسنقر البرسقي ، وطغتكين صاحب دمشق ، اتفقا مع صاحب أنطاكية الفرنجي ، فجهز في السنة المذكورة عسكرياً كثيراً ، وجعل مقدمهم الأمير برسق صاحب همدان ، وأمرهم بقتل ايلغازي وطغتكين ، فاذا فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وحصروا بلادهم ، فساروا في رمضان سنة ٥٠٨ هـ وعبروا الفرات آخر السنة وأرادوا أخذ حلب ، فراسلوا متولي أمرها لؤلؤاً الخادم ، ومقدم عسكريها شمس الخواص ، فاستنجدا بإيلغازي وطغتكين ، فسارا إليهم بألفي فارس ، فأعرض برسق عن حلب وسار إلى حماة ، وهي في طاعة طغتكين وبها ثقله ، ففتحها عنوة ونهبها ، وسلمها إلى قرجان صاحب حمص ، وسار ايلغازي ، وطغتكين ، وشمس الخواص ، إلى أنطاكية ، واستجاروا بصاحبها روجيل ، وسألوه أن يساعدهم على حفظ مدينة حماة ، فلما بلغهم فتحها ، ووصل إليهم بأنطاكية بغدوين صاحب القدس ، وصاحب طرا بلس ، وغيرهما ، اتفق رأيهم على ترك اللقاء ،

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٤٢١ - ٤٢٣ ملخصة عن ابن الأثير

لكثرة المسلمين ، واجتمعوا في أَمَامِيَّة ينتظرون تفرق المسلمين في الشتاء ، فلما رأوا عزمهم على المُقام عاد ايلغازي الى مَارِدِينَ ، وَطُغْتِكِينَ الى دِمَشْق ، والفرنج إلى بلادهم ، فقصد المسلمون كَفَرطَاب وكانت بيد الفرنج ، وحصروا حصناً كان للفرنج عمروه بجامعها وأحكموه فأخذوه ، ثم ذهبوا الى المعرة ، وهي للفرنج أيضاً ، وأمن الترك وانتشروا في أعمال المعرة يسلبون وينهبون . ثم سارت العساكر عن المعرة إلى حلب ، يتقدمهم ثقلهم ودوابهم ، والعساكر في اثرها متلاحقة مطمئنة .

وفي أبي الفداء ^(١) : وفي سنة ٥٠٩ هـ أرسل السلطان محمد ابن مَلِكشاه عسكرياً لمحاربة طغتكين صاحب دمشق ، ففتحوا حماة عنوة ونهبوها ، ثم سلموها إلى قيرخان بن قراجا صاحب حِمص ، وأقام العسكر بحماة ، واجتمع بِفَامِيَّة ايلغازي وطغتكين ، وملوك الفرنج صاحب طَرَابُلُس ، وصاحب أنطاكية وغيرهما ، وأقاموا بها ينتظرون تفرق المسلمين . فلما أقام عسكر المسلمين

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

إلى الشتاء ، تفرق الفرنج وسار مُلغَتُكِين إلى دِمَشْق ، وإبلغازي إلى مارِدِين ، ثم سار المسلمون من حماة إلى كَفَرطَاب ، وهي للفرنج ، فاستولوا عليها ، وقتلوا من بها من الفرنج ونهبوهم . ثم سار المسلمون إلى المعرة ، وهي للفرنج ثم ساروا منها إلى حلب ، فكبسهم صاحب أنطاكية في أثناء الطريق ، فانهزم المسلمون ، وقتلهم الفرنج ونهبوهم ، وهرب من سلم منهم إلى بلاده .

وستأتي في الكلام على أفامية رواية ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

وفي سنة ٥١٣ هـ خرج الفرنج إلى المعرة ، فسيبوا جماعة وأدركهم جماعة من الترك فرجعوا . ثم خرج بغدوين من أنطاكية ، فنزل على حصن روزا^(١) غربي البصرة ، وهو حصن كان لابن مُنْقِذ وقد سلمه إليهم ، ولما جرت الواقعة الأولى على البلاط عماد فأخذه ، فحاصره بغدوين ، وأخذه في جمادى الأولى من السنة المذكورة ، رُلق من كان فيه ، ثم رحل إلى كَفَرزُومًا ،

(١) في إلهام النبلاء للطباخ ١ : ٤٣٤ ، ٤٣٥ : زور (ج) .

فأخذها بالسيف وقتل جميع من فيها ، ووصل إلى كَفَرطَاب ،
وكان ابن مُنْقِذ أحرق حصنها ، وأخذ رجاله منه خوفاً عليهم ،
فرمموه ورتبوا رجاله فيه .

وفي سنة ٥١٤ هـ تشاحن صاحب الأتارب بلّاق بن إسحق صاحب
ايلغازي والفرنيج ، فأسرى بجماعة من عسكر حلب إلى أنطاكية ،
فلقيهم عسكرها وكسرهم وعاد فتبعوه . ثم التقوا بين ترمانيين
وتلّ أغدى ، فانهزم ايلغازي ، وصالحهم إلى آخر السنة على
أن لهم المعرة ، وكفرطاب ، والجبل ، والبارة ، وضياعا من
جبل الشّماق ^(١) وكيّلون ، واعزاز ^(٢) .

وفي سنة ٥١٩ هـ في أواخر المحرم ، رحل البرُسقي إلى تلّ
السلطان ، ومنها إلى شيزر ، ثم أقام بأرض حماة أياماً حتى
وصل إليه أتائب طُغشكين . فرحل في عسكره الذي لا يحد
كثرة ، ونزل كَفَرطَاب . ت إليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع
الآخر ، وسلمها إلى صمصام الدين خيرخان بن قراجا ، وكان

(١) في الإعلام للطباخ ١ : ٣٧ عن ابن العديم : من جبل الشّماق
برسم هاب وضياعا من ليون برسم تل اغدى وضياعا من بلد عزاز .
(٢) وتسمى عزاز .

قد وصل إليه من حمص والتقاء بطل السلطان . وقال في
(الروضتين^(١)) نقلاً عن العماد الكاتب : أن زنكي استولى على
الشام من سنة ٥٢٢ هـ إلى أن توفي في ٥٤١ هـ .

وفي سنة ٥٢٦ هـ نزل التتر كهان على بلد المعرة ، وكفر طاب ،
وقسموا المملكات ، فاجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد .

وفي سنة ٥٢٩ هـ^(٢) أخذ عماد الدين زنكي والد نور الدين
المعرة وكفر طاب من الفرنج ، وخرب أتابك زنكي سورها
لما استولى عليها ، ولم يعد كما كان . وكان الفرنج استصفوا جميع
أملاك المعرة ، وأخذوا كل ما لهم وكتب أملاكهم ، فحضر
أهلها ، أي من بقي من أهلها ، ومعهم أعقاب من هلك منهم
إلى نور الدين ، وطلبوا تسليم أملاكهم التي أخذها الفرنج ،
فطلب منهم كتب أملاكهم ، فقالوا : إنها عدمت . فكشف من
ديوان حلب عن الخراج ، وأفرج عن كل ملك كان عليه
الخراج لأصحابه وأعادهم إليهم ، ويقال : إن عماد الدين
نقض أسوار المعرة كلها .

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٥ (ج) .

(٢) كذا في الرفيات . وفي تاريخ أبي الفداء ٣ : ١٢ سنة ٥٣١ هـ (ج) .

وفي سنة ٥٣١ هـ رحل ملك الروم إلى المعرة ، ورحل عنها
يوم الاثنين ثالث عشر شعبان إلى شَيْزَر وكَفَرطَاب ، ورموها
بالمناجيق ، فسلمها أهلها في نصف شعبان .

وفي ابن القَلَانِسِي في سنة ٥٣٣ هـ ^(١) رحل ملك الروم
عن المعرة ، فهرب من كان مقيماً في كَفَرطَاب من الجند خوفاً
على نفوسهم .

وفي (الروضتين) ^(٢) : إن أتابك الشهيد سار في سنة ٥٣٤ هـ
وحاصر حصن بارين وكان للفرنج ، وكان من أضر بلاد
الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة
وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل . وفي مدة مقامه
على حصن بارين ، سير جنده إلى المعرة ، وكفرطاب ، وتلك
الولاية جميعها ، فاستولى عليها وملكها ، وهي بلاد كبيرة
وقرى عظيمة .

(١) وفي ذيل تاريخ دمشق لابن القلاني ص ٢٦٦ : وفي يوم الاثنين
(٥٣٢ هـ) رحل ملك الروم عن بلد المعرة فهرب من كان مقيماً في
كفرطاب من الجند خوفاً على نفوسهم .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٤ (ج) .

وفي سنة ٥٤١ هـ قتل عماد الدين زنكي ، وسار ولده نور الدين محمود إلى حلب فملكها .

وفي سنة ٥٤٤ هـ ^(١) سار نور الدين إلى حِصْن قَامِيَّة ، وهو للفرنج ، وبينه وبين مدينة حماة مائة مرحلة ، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال ، من أحصن القلاع وأمنعها . وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة ، وشيْزَر ، وينهبونها . فحصره نور الدين وضيق على من به وتابع قتالهم حتى ملكه وفتحته ، وشحنه بالذخائر والسلاح والرجال . وسيأتي في أقامية رواية ابن الأثير ، وأبي الفداء .

وفي (الروضتين) ^(٢) : أن نور الدين حين خرج لأخذ شيْزَر ، أمر بكتابة منشور باطلاق المظالم في حلب ، ودمشق ، وحمص ، وحرّان وغيرها . وكان ما أسقطه عن المعرة ثلاثة آلاف دينار في كل سنة .

وذكر بعض المؤرخين أن خراج المعرة بلغ في عهد نور الدين محمود (٧٠٠٠) دينار وكفر طاب (١٠٠٠) دينار .

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ٦٢ (ج) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ : ١٦ (ج) .

وذكر إبراهيم الحصري قاضي المعرة الآتي ذكره : أنه اجتمع بالملك العادل نور الدين بقلعة دمشق ، وأن نور الدين قال لكتابه : اكتب إلى كاتبنا بمعرة النعمان ليقبض على جميع أملاك أهلها ، فقد صح عندي أن أهلها يتقارضون الشهادة ، فيشهد بعضهم لصاحبه في ملك ، ليشهد له ذلك في ملك آخر ، فجميع ما في أيديهم بهذا الطريق ، قال : فقلت له : اتق الله فانه لا يتصور أن يتألا أهل بلد على شهادة الزور ، فقال : صح عندي ذلك ، فكتب الكاتب الكتاب ودفعه إليه ليعلم عليه ، وإذا بصي راكب على بهيمة على نهر بردى ، وهو ينشد هذه الأبيات :

إِعْدِلُوا مَا دَامَ أَمْرُكُمْ نَافِذًا فِي النَّفْعِ وَالضَّرَرِ
إِحْفَظُوا أَيَّامَ دَوْلَتِكُمْ إِنَّكُمْ مِنْهَا عَلَى خَطَرٍ
إِنَّمَا الدُّنْيَا زِينَتُهَا حُسْنُ مَا يَبْقَى مِنَ الْخَيْرِ

قال : فاستدار إلى القبلة وسجد واستغفر الله ، ثم مزق الكتاب ، وتلا قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ .

وفي (الإعلام)^(١) عن (المختار من الكواكب المضية): أن نور الدين كان قاعداً في دِمَشْق على طيارة مشرقة على بَرَدَى ، فوصل إليه كتاب من المعرة يذكر فيه : أن جماعة من أهل المعرة تغلبوا على كروم وزيتون وأملاك ليست لهم ، ويستأذنه في قبضها ، فمن أحضر بينة أو حجة سلم إليه ما كان بيده ، وإن لم يحضر بقي في ديوان بيت المال . فأمر بكتب مرسوم بذلك، فشرع الكاتب يكتب، فسمع منشداً ينشد الأبيات المذكورة، فقال نور الدين : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . الآية . ثم أمر بإبطال ذلك الكتاب وجعل يبكي .. والبيت الثالث من الأبيات المذكورة على هذه الرواية جاء هكذا :

إِنَّمَا يَبْقَى لَكُمْ أَبَدًا طِيبُ مَا يَبْقَى مِنَ الْحَبْرِ
وفي سنة ٥٥٢ هـ وقعت في الشام زلازل ، وخرب أكثر مدنها ، مثل كَفَرطَاب ، والمعرة ، وحنص ، وحماة ، وآفامية وحنص الأكراد ، وعِرْقَة ، واللاذقية . وكان أشدها بمدينة حماة وحنص شينَزَر ، فانها خربا بالمرّة ، وكذا ما جاورهما

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ٢ : ٦٩ ، ٧٠ .

كحصن بارين ، والمعصرة ، وغيرهما من البلاد والقرى ،
وهالك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله وتهدمت
الأسوار والدور والقلاع .

وقد قيل : إن بعض المعلمين في حماة ذكر أنه فارق المكتب
لمهمّ ، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور ، وسقط المكتب على
الصبيان جميعهم ، فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له
في المكتب .

ويفهم من كلام أنسامة بن مُرشد بن مُنقذ ، أن الزلازل
التي أهلكت كثيراً من أهل الشام كان ابتداءؤها في شهر رجب
سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

ويدل كلام صاحب (الروضتين) على أن زلزلة حدثت ليلة
التاسع عشر من صفر سنة ٥٥٢ هـ ثم أعقبها زلزلة في صفر
وأخرى في جمادى الأولى والآخرة ، وفي رجب ، وفي رمضان ،
وشوال ، وذو القعدة ، وقد تكون في بلد أشد منها في غيره ،
وقد سكن الناس في أكواخ عملوها من خشب ، وتفصيل

ما أثرته هذه الزلازل في (الروضتين) ^(١) ، وابن الوردي ^(٢) ،
وابن الأثير ^(٣) ، وغيرهم .

وقال ابن العديم : كانت كَفَرطَاب مشحونة بأهل العلم ،
وكان بها يُقرأ الأدب ويُشغل به ، وهي على مقربة من
معرة النعمان خربت أواخر القرن الخامس ، ويقول المؤرخون :
لأنه لم يسلم أحد من كفرطاب في زلزال سنة ٥٥٢ هـ .

وفي ١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ توفي نور الدين محمود ، وجلس
ابنه الملك الصالح اسماعيل في الملك ، وهو لم يبلغ الحلم ،
وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المُقَدَّم .

وفي سنة ٥٧٠ هـ قدم صلاح الدين يوسف بن أيوب بلاد
الشام فاتحاً ، فلما كان في حِمَص جمر عليه سيف الدين
صاحب الموصل عسكرياً عظيماً ، وقدم عليهم أخاه مسعوداً ،
فوصل الى حلب ، وانضم اليه من كان في حلب من العسكر ،
والتقى الفريقان ، فانكسروا بين يديه ، وأسر جماعة منهم ،

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ١٠٤ (ج) .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٥٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١١ : ٨٨ .

وذلك عند قرون حماة ، في التاسع عشر من شهر رمضان .
ثم سار الى حلب وصالحوه على ان يأخذ المعرة وكَفَرَطَاب
وبارين ، وقد اشار الى هذه الواقعة عماد الدين الكاتب في
قصيدة مدح بها ناصر الدين محمد بن شيركوه حيث قال :
لَمَّا جَرَى الْعَاصِي هُنَالِكَ طَائِعًا بِدِمَائِهِمْ فَجَرَتْ بِهِ الْأَنْهَارُ
وَتَحَطَّمَتْ عِنْدَ الْقُرُونِ قُرُونُهُمْ بَلْ كَلَّتِ الْأَنْيَابُ وَالْأُظْفَارُ
عَبَرُوا الْمَعْرَةَ مَا لِكَيْنَ مَعْرَةً وَالْعَارُ يُمَلِّكُ تَارَةً وَيُعَارُ
وقد ذكر صاحب (الروضتين) ^(١) : تفصيل هذه الحوادث ،
وما وقع من مصالحة ونقض .

وفي سنة ٥٧٢ هـ ملك صلاح الدين مُؤَيَّد الدَّوْلَةِ أَسَامَةَ بن
مُرْشِد .. بن مُنْقِذ ضيعة من أعمال المعرة ، زعم أنها كانت قديماً
تجري في أملاكه ^(٢) .

وفي سنة ٥٧٤ هـ حاصر صلاح الدين بَغْلَبَكَّ ، وكان بها ابن
المُقَدَّم ، ثم رحل عنها الى دِمَشْق ، وترك من يحصرها بالمنع

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٤٨ فما بعدها (ج) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٦٤ (ج) .

من الدخول والخروج من غير قتال ، ثم رضي ابن المُقَدَّم بتسليم بَغْلَبَكْ ، وأن يأخذ حِصْنَ بَغْرَيْن وأعماله ، وكَفَرَطَابْ ، وأعيان نواحي ، وقرى من بلد المعرة بدلاً منها ^(١) .

وفي (مرآة الجنان) ^(٢) : في سنة ٥٧٤ هـ أطلق السلطان حماة عند موت صاحبها خاله شهاب الدين لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، وأطلق له أيضاً المعرة ومَنْبِجْ ، وفاء منه ، فبعث اليها نوابه .

وفي سنة ٥٧٧ هـ كان تقي الدين يتولى لعمه صلاح الدين المعرة وحماة ^(٣) .

وفي صفر سنة ٥٧٩ هـ فتح صلاح الدين حلب ، وقرر ولده الظاهر سلطاناً بها ، ثم كتب اليه الملك العادل نائبه بمصر أن يجعل له حلب ، فقرر صلاح الدين ولاية حلب وأعمالها الى رَعْبَانْ ، إلى الفُرات ، إلى حماة ، للملك العادل واستدعى

(١) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٥ (ج) .

(٢) اليافعي : مرآة الجنان ٣ : ٣٩٩ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٢٣ (ج) .

ولده الظاهر من حلب ، ودخلها العادل في رمضان ^(١) .
وفي (الخطط) ^(٢) : في سنة ٥٧٩ هـ نزل ابن المُقَدَّم عن أفامية ،
فأقطعه الظاهر الرّاوَنْدان وكَفَرطَاب ومفردة المعرة ، وهي عشرون
ضيعة معينة من بلاد المعرة ، فعصى ابن المقدم بالراوندان فصار
إليه الظاهر فأبعده عنها . وسيأتي ذلك .

وفي سنة ٥٨٢ هـ أعاد صلاح الدين حلب إلى ولده الظاهر
غازي غياث الدين .

وفيهما أعاد إلى تقي الدين ما كان من البلاد، ومَنْبِج، والمعرة ،
وسائر أعمالها ^(٣) .

وفي سنة ٥٨٤ هـ سار صلاح الدين من حلب على طريق المعرة ،
وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا المغربي عند مشهد عمر
ابن عبد العزيز ، فتبرك بزيارة الميت والحَي ^(٤) .

(١) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٥٢ (ج) .

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام ٢ : ٧٩ (ج) .

(٣) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٧٠ (ج) .

(٤) أبو شامة : الروضتين ٢ : ١٣٤ (ج) .

وفي سنة ٥٨٧ هـ جعل صلاح الدين المعرة ، وكَفَرطَاب ،
إلى المنصور بن تقي الدين بعد موته ، وفي (الدارس) ^(١) : في سنة
٥٨٧ هـ أنعم صلاح الدين على ابن أخيه تقي الدين عمر بحماة ،
والمعرة ، وقَامِيَّة ^(٢) ، ومَنْبِج ، فتسلمها وبعث إليها نوابه ،
والأول أصح .

وفي سنة ٥٨٩ هـ أرسل سيف الدين غازي صاحب المتوصل
جيشاً عظيماً ، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعوداً إلى حلب
للقاء صلاح الدين ، فلما بلغه ذلك رحل عنها الى حماة
وأخذ قلعة حِمَص . ولما وصل عز الدين الى حلب ، أخذ
معه عسكر ابن عمه المالك الصالح ، وخرجوا الى حماة ،
فوافاهم صلاح الدين على قرون حماة ، وطلب إليهم أن
يصالحوه فأبوا ، فالتحم القتال بين الفريقين ، فانكسر عز الدين
ورجاله وانهمزوا ، وأسر منهم جماعة ، ثم سار ونزل على

(١) النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٢١٧ .

(٢) وتسمى أيضاً أفامية .

حلب ، فصالحوه على أخذ المعرة ، وكَفَرَطَاب ، وَمَارِدِين ، كذا قال في (مرآة الجنان) ملخصاً^(١) .

ولمات صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ كانت كفرطاب ، وأقامية بيد عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن المقدم .

وفي سنة ٥٩٦ هـ ولي قضاء المعرة ابراهيم الحِصْنِي من فقهاء دمشق ، وقد ترجمه ابن السُّبْكِي^(٢) في (طبقات الشافعية) ، وتوفي سنة ٦١٥ هـ . وقد ذكرنا قوله لنور الدين الشهيد حين عزم على أن يقبض على أملاك أهل المعرة .

وفي هذه السنة أيضاً كانت أقامية ، وكَفَرَطَاب ، وخمس وعشرون ضيعة من المعرة لعز الدين ابراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المُقَدَّم .

وفي سنة ٥٩٧ هـ مات عز الدين ابراهيم المذكور ، وصارت البلاد بعده لأخيه شمس الدين عبد الملك .

(١) اليافعي : مرآة الجنان ٣ : ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٢) في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤ : ١٩٩ ، ٢٠٠ : ابراهيم بن الحسن بن طاهر أبو طاهر الحموي المعروف بالحصني ، من فقهاء دمشق ولد في ذي الحجة سنة خمس وثمانين وأربعمائة بحماة وتلقه ببغداد ، وتوفي بدمشق في صفر سنة إحدى وستين وخمسمائة .

وفيها : سار الظاهر ملك حلب إلى المعرة ، وأقطع بلادها واستولى على كَفَرطاب ، وأفامية ، وقد كانت لشمس الدين المذكور ، وسيأتي أن قرأقوش نائب ابن المُنقَدم ، امتنع عن تسليم أفامية ، وخل عنها الملك .

وفي سنة ٥٩٨ هـ وصل الملك العادل حماة ، وبلغ الظاهر في حلب أن قصده محاصرته ، فلاطفه وأهدى إليه ، فوقع الصلح بينهما ، وانتزعت مفردة المعرة ، وهي عشرون ضيعة معينة من بلد المعرة ، واستقرت للمنصور صاحب حماة .

وفي سنة ٦٠٩ هـ ولي التدريس في المعرة شمس الدين ابراهيم البارزي .

وفي سنة ٦١٧ هـ صارت المعرة للملك الناصر بن الملك المنصور .

وفي سنة ٦١٩ هـ ^(١) فوض طغريل مدير المملكة الحلبية أمر الشُغْر وبَكَاس إلى الملك الصالح أحمد بن الملك الظاهر بن صلاح الدين ، فسار الملك الصالح إليها ، وأضاف إليه الرُّوج ، والمعرة ، ومَصْرين .

(١) كذا في نهر الذهب للغزي ٣ : ١١٢ ، ١١٣ (ج) .

وفىها قصد الملك المعظم غيسى صاحب دِمَشْقُ المعرة
فاستولى عليها ، وأقام فيها والياً من قبله ، وقرر أمورها ، لأن
الملك الناصر لم يف له بما التزمه من المال .

وفى سنة ٦٢١ هـ كتب الملك الكامل ملك مصر إلى أخيه
ملك دمشق ، أن يرسل عن سَلْمِيَّة^(١) ويعفو عن الناصر
ملك حماة ، فأعاد له المعرة .

وفى سنة ٦٢٦ هـ صارت المعرة للملك المظفر محمود بن
المنصور صاحب حماة .

وفى سنة ٦٣١ هـ نزلها الملك المظفر بعد رجوعه من محاربة
كَيْقْبَاز . وفى هذه السنة تم بناء قلعة المعرة ، وكان قد أشار
عليه ببنائها سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني^(٢) ، وهو
الذي تسلم أمور حماة وتدير شؤونها من قبل المظفر . وقد
أشرنا إلى ذلك فيما مضى ، وسنزيد القول فى هذا فيما يأتى .

(١) فى معجم البلدان ٣ : ١٢٣ : ولا يعرفها أهل الشام إلا بسَلْمِيَّة .

(٢) فى تاريخ ابن الوردي ٢ : ١٦٠ : المزباني ، وفى غيره الهذباني (ج) .

وفي سنة ٦٣٥ هـ ^(١) حاصر الحلبيون قلعة المعرة بعد وفاة الملك الكامل صاحب دمشق ، وكان مقدمهم المعظم توران شاه بن صلاح الدين ، ثم أخذوها وخربت المعرة بسببها ، وملكوها أيضاً ، وخرج عسكر المعرة حيثئذ إلى حلب ، ثم سار عسكر حلب ، ومقدمهم توران شاه إلى حماة .

وفي كتاب (السلوك) ^(٢) : أن أهل حلب استنجدوا عسكرياً من الخوارزمية ، واستنجدوا كيخسرو بن كيقباز ملك الروم ، فأمدهم بخيار عسكره ، فملكوا المعرة سنة ٦٣٥ هـ .

وفي سنة ٦٣٨ هـ نهبت الخوارزمية بعدما خربوا حلب ، وأسروا توران شاه وارتكبوا من الزنا والفحش والقتل ما ارتكبه التتار ، وقد عبروا الفرات من الرقة إلى الجبُول ، إلى تل أعْرَن ، إلى سَرْمِين ، إلى المعرة ، وهم يَنْهَبُونَ ، وفزع الناس منهم .

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٧٠ . وابن الوردي : التاريخ

٢ : ١٦٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ١ : ٢٦٩ (ج) .

وفي سنة ٦٤٦ هـ^(١) ولي قضاء المعرة قوام الدين أبو العلاء
ألفضل ابن السلطان المعروف بابن حادور الحموي ، ثم عزل
عنها ، وولي المدرسة الشيعية في حلب ، ثم قضاء حِمص سنة
٦٥٥ هـ ، ثم عزل عنها ، وتوفي في حماة سنة ٦٦٠ هـ .

وفي سنة ٦٤٦ هـ^(٢) ولي قضاء المعرة موفق الدين أبو القاسم
الكردي الحميدي .

وفي سنة ٦٥٨ هـ^(٣) قدم التتر على المعرة، وخرّبوا قلعتها وأسوارها.
وقد يينا أن القلعة قد تم بناؤها سنة ٦٣١ هـ ، وهدمت
سنة ٦٥٨ هـ ، فتكون مدة بقائها عامرة سبعا وعشرين سنة ،
وبهذا يتضح بطلان ما زعمه بعض الكاتين في هذه القلعة
من أنها قبل الإسلام ، أو من بناء الصليبيين ، أو غير ذلك . وزعم
أصحاب مجلة العاديات أنها من بناء الملك الظاهر ، وزعموا في دائرة
المعارف الفرنسية^(٤) أنها من آثار الصليبيين وهو باطل كما تقدم .

(١) راغب الطباخ : إلام النبلاء ٤ : ٢٦٠ (ج) .

(٢) راغب الطباخ : إلام النبلاء ٤ : ٣١٦ (ج) .

(٣) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ .

(٤) La grande Encyclopédie 22 : 851 .

وفي سنة ٦٥٨ هـ أخرج الملك قُطُزُ المعرة من يد الحلبيين
وأعادها إلى الملك المنصور صاحب حماة ، وكانت في أيدي
الحلبين من حين استولوا عليها سنة ٦٣٥ هـ ، وهنأه الشيخ
شرف الدين بعودها إليه بقصيدة منها :

وَكَذَا الْمَعْرَةُ إِذْ مَلَكَتْ قِيَادَهَا دَهَشَتْ سُرُورَ أَسَارَ فِي مَذْهُوشِهَا
طَرِبَتْ بِرَجْعَتِهَا إِلَيْكَ كَأَنَّمَا سَكِرَتْ بِجَحْمَةِ حَاسِبِهَا أَوْ حِشِهَا
وفي سنة ٦٦١ هـ أغار صاحب سِيس^(١) الارمني على
العَمَق ، والمعرة ، وسَرَمِين ، والفَوْعَة .

وفي سنة ٦٦٤ هـ رحل للظاهر بَيْنَرَسْ من دِمَشْق إلى
حماة ، ثم إلى أَقَامِيَّة ، وسيأتي ذلك .

وفي (الشذرات)^(٢) : أن ابن البارزي قاضي حماة شمس الدين
ابراهيم بن المسلم بن هبة الله الحَمَوِي ولي تدريس معرة

(١) في معجم البلدان لياقوت ٣ : ٢١٧ : سيسيَّة وعامة أهلها يقولون
سيس بلد من أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس
على عين زربة .

(٢) ابن العباد : شذرات الذهب ٥ : ٢٢٨ (ج) .

النعمان ثم تحول إلى حماة ودرس بها ، وتوفي سنة ٦٦٩ هـ ،
ولكنه لم يذكر أية سنة ولي تدرّس المعرة .

وفي سنة ٦٩١^(١) هـ نزل الملك الأشرف صلاح الدين خليل
بالمعرة ، ورفع إليه أهلها قصصاً يسألونه إبطال الخمار فيها ،
فأمر بإبطالها ، وخربت في تلك الساعة .

وفي سنة ٦٩٩ هـ أخذ التتر المعرة مع البلاد الشامية .
وفي سنة ٧٠٠ هـ عادوا إلى المعرة واكثروا فيها القتل والنهب ،
ثم رحلوا .

وفي سنة ٧٠٢ هـ رجعوا إليها وفعلوا ما فعلوه أولاً .
وفي سنة ٧١٠ هـ صارت حماة ملكاً للملك المؤيد إسماعيل
أبي الفداء بن علي ، وأضيفت إليه المعرة ، ثم خرجت هي
وأفرادها عن حماة ، وأضيفت إلى حلب وصارت لبعض
الأمراء فيها .

وفي سنة ٧١٣ هـ^(٢) خرجت معرة النعمان من حماة ،

(١) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٢٧ .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٤ : ٧١ (ج) .

وأضيفت إلى حلب ، وسبب ذلك أن الأمراء الذين كانوا بحماة ،
ثم انتقلوا إلى حلب « قبل سنة » استقرت أقطاعاتهم بحماة ،
لعدم أقطاعات تفي بجملة ما لهم . . وصارت أطماعهم معلقة
بالعودة إلى حماة ، وهم مجتهدون على ذلك تارة بالشقيل على
السلطان بالشفائع ، وتارة بالسعي في ذهاب حماة مني^(١) ، فلم
أجد لذلك ما يحسمه إلا بتعيين المعرة وبلادها للأمراء المذكورين
واضافتها إلى حلب ، ثم صدر المرسوم بذلك .

وفي سنة ٧١٦ هـ أعادها الملك الناصر بن المنصور قلاوون
إلى أبي الفداء ، وامتدحه شهاب الدين محمود كاتب الانشاء
الحلي بقصيدة ، منها قوله :

بِكَ تُرْهِى مَوَاكِبُ وَأَسْرَةٌ وَلَكَ السُّمُرُ وَالْقَوَاصِبُ أَسْرَةٌ
وَبِأَيِّامِكَ الَّتِي هِيَ رَوْضٌ لِلْأَمَانِي تَجْنِيهِ ثَمَارَ الْمَسْرَةِ
بِكَ كُلُّ الدُّنْيَا تُهْنَى وَيُضْحِي قَدْرُهَا عَالِيًا وَكَيْفَ الْمَعْرَةِ
ثم زاده على المعرة بجملة غلال بلادها .

وفي سنة ٧١٨ هـ زاده السلطان عدة قرى من بلد المعرة
على ما كان مستقرّاً بيده .

(١) أي من الملك أبي الفداء صاحب حماة .

وفي سنة ٧٤٨ هـ أصاب أهل المعرة من النهب وقطع السابلة ورعي الكروم والزروع والقطن والمقائش ، وغير ذلك من ضروب الاعتداء شيء كثير من قبل أصحاب سيف بن فضل أمير العرب وأتباعه ، وأحمد وفياض بعد ما انكسر بقرب سلمية .

وفي سنة ٧٤٩ هـ وقع طاعون عمّ البلاد الشامية ، ونجحت منه المعرة وحدها ، ولكنها كانت تكابد من الظلم والعسف ما هو أشد من الطاعون ، وقد أشار إلى ذلك عمر بن الوردي المعري بقوله :

رَأَى الْمَعْرَةَ خَوْدًا زَانَهَا حَوْرٌ لَكِنْ حَاجِبَهَا بِالْجَوْرِ مَقْرُونٌ^(١)
مَاذَا الَّذِي يَفْعَلُ الطَّاعُونُ فِي بَلَدٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ بِالظُّلْمِ طَاعُونٌ
وفي سنة ٧٦٢ هـ توفي بالمعرة القاضي شرف الدين موسى ابن سنان بن مسعود بن شبل الجعفري السلميّ ، وله نيف وستون سنة^(٢) .

(١) ديوانه ص ١٨٥ وروايتها فيه :

رأى المعرة عيناً زانها حور لكن حاجبها بالجور مقرون
ما الذي يصنع الطاعون في بلد في كل يوم له بالظلم طاعون

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ ١٣٢ (ج) .

وفي سنة ٧٤٤ هـ حدث في المعرة زلزال عظيم ، فذهب
بكثير من محاسنها .

وفي سنة ٧٤٥ هـ استرجع السلطان الملك الصالح بن اسماعيل
ابن الناصر محمد بن قلاوون ما كان باعه الملك المؤيد وابنه
الأفضل في حماة والمعرة من أملاك بيت المال بأموال
عظيمة ، وكان غالب الملك قد طُرح على الناس غصباً ، واشترت
به تقادم إلى الملك الناصر ، فقال بعض شعراء المعرة في ذلك :
طَرَحُوا عَلَيْنَا الْمُلْكَ طَرَحَ مَصَادِرِ نَحْمُ اسْتَرْذَوْهُ بِلَا أَثْمَانِ
وَلِذَا يَدُ السُّلْطَانِ طَالَتْ وَأَعْتَدَتْ قَيْدُ الْإِلَهِ عَلَى يَدِ السُّلْطَانِ
وكانما كاشف هذا القائل ، ونظر إلى مصير الساطان بعين
الغيب ، لأن مدة السلطان لم تطل بعد ذلك .

وفي سنة ٧٤٨ هـ اقتتل سيف الدين بن فضل أمير العرب
مع أحمد فياض من الأمراء قرب سلمية ، فانكسر سيف ،
وجرى على المعرة وحماة وغيرها من العرب أصحاب سيف
وأحمد فياض من النهب وقطع الطريق ما لا يوصف ، وكانوا
يغيرون على حماة ، والمعرة ، فقر الفلاحون ودرست القرى .

وفي سنة ٨٠٣ هـ قدم تيمورلنك بثمانمائة ألف مقاتل ، فوقعت
بينه وبين عسكر الشام حرب طاحنة خارج سور حلب ، ثم
كان له النصر ، وفرّ عسكر الشام إلى المعرة ، فتبعه بجيشه
العرمرم ونازلها ، وكانت تابعة لحماة ، وكان دقماق في ذلك
الحين والياً على حماة ، فسارت أعيان حماة بمفاتيح البلد إلى
تيمور واستأمنوه فأمّنهم . وفي هذا الوقت انفصلت المعرة
عن حماة ، وصارت تابعة لحلب ، وأهل المعرة يقولون : إن
تيمور شدد الحصار على المعرة ، ووقع بين أهلها وبين عساكره
معارك شديدة ، ثم إن رجلاً من أهلها من قوم يعرفون ببني
عازار أرشد تيمور إلى موضع استطاع أن يدخل البلدة منه
بغير قتال ، فلما دخلها وضع السيف في أهلها وفنك فيهم فتكا
ذريعاً ، ولا تزال إلى يومنا هذا بقية في المعرة يعرفون ببني عازار ،
وأهلها يصمونهم بهذا العار الموروث والشنار التليد ، والله
أعلم بالحقيقة .

وفي سنة ٩٢٠ هـ توجه بدر الدين سليمان بن عبد الجبار
وسرباريك ابن عمه مع جماعة من التترگمان إلى المعرة ،

فأوقعوا بعسكر الفرنج ، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين ،
وأسروا جفري بلنك صاحب بَسْرُفُوث^(١) . من جبل بني عُلَينم^(٢)
وأودع سجن حلب .

وفي سنة ٩٢٢ هـ استولى السلطان سليم الأول العثماني على
بلاد الشام ، وملك المعرة في جملة ما ملكه منها ، وأصبحت
منذ ذلك العهد خاضعة للدولة العثمانية .

وفي سنة ١٠١١ هـ خرج نصوح باشا والي حلب ، ومعه
حسين باشا ابن جانبولاذ ، لقتال الخارجين على الدولة ، مثل
خداوردي وكنعان الكبير وحمزة الكردي ، فالتقوا عند المعرة
ثم فروا إلى حماة وأخذ ما وجده من أموالهم وأثقالهم .

وفي (إعلام النبلاء) في حوادث سنة ١٠١٤ هـ^(٣) في ترجمة
ابن جانبولاذ ، وأما ذكر أصله ومنزعه ، فجده جانبولاذ هذا
كان يعرف بابن عربو ، وكان أمير الأكراد بحلب ، وولي
حكومة المعرة وِكلَز وعَزَّاز ، وكان له صيت شائع . اهـ

(١) حصن من أعمال حلب في جبال بني علم .

(٢) المعروف اليوم بجبل الزاوية .

(٣) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ٢ : ٢٣٣ (ج) .

وفي المعرة الآن قوم يعرفون بابن عربو ، يزعمون أن لهم نسباً يتصل بابن عربو السابق ذكره ، ولكني لا أعلم حقيقته من غيرهم ، وقد ذكرناهم في أَسَر المعرة .

وفي (سلك الدرر)^(١) أعطي منصب حماة إلى الشريف سعد ابن زيد شريف مكة المكرمة سابقاً ، وكان ولي أولاً معرة النعمان بأمر من الدولة لاختلاف الحجاز في ذلك الحين ، وما جرى بينه وبين الشريف بركات شريف مكة ، فضبط حماة لكنه كان شديد الحلف كثير التعدي بحيث أن أهل حماة قاموا عليه وأخرجوه من البلد قهراً ، فوصل إلى معرة النعمان ، وكتب يشتكي عليهم للدولة ، وأسند ما جرى إلى حسن أفندي الدفّري ، وتمة الحادثة فيه ، وقد قتل الدفّري المذكور سنة ١١٠٦ هـ في حماة ، وأظن أن ولاية سعد بن زيد المعرة كانت سنة ١١٠١ هـ .

وفي سنة ١٢٢٨ هـ ثار أهل المعرة عو^ن من بني العظم ، يقال له : يحيى بك ، كان متسلماً « حاكماً إدارياً » في المعرة ،

(١) المرادي : سلك الدرر ٢ : ٣٢ (ج) .

وسبب ذلك أن داره ^(١) التي كانت مسكنه داخلًا ، ومقر حكمه خارجًا ، كانت متصلة بحمام يقال له : الحمام التحتاني ، فثقب جدار الحمام ، وجعل ينظر إلى النساء وهن عاريات ، فمن أعجبه توسل بكل ما أوتي من حول وطول إلى الاتصال بها ، فشعر أهل المعرة بذلك ، واتفقوا على قتله ، وانتدبوا من كل أسرة رجلاً ليكونوا شركاء في دمه ، فذهب المندوبون إلى داره ليلاً ، وطرقوا الباب فخرجت جارية فسألوها عنه فادعت أنه ليس في الدار ، فدخلوا الدار عنوة ، ونقبوا فيها ، فلم يقفوا له على أثر ، واشتدوا على الجارية لتدلهم عليه ، فلم تغير قولها ، فخرجوا يتعذبون بأذيال الخيبة .

وكان يحيى رأى هذا الجمهور على باب داره ، فعلم أنهم يريدون الفتك به ، فتدلى إلى بئر في داره واختفى فيها ، وأمر

(١) وهذه الدار يحدها من الشرق الحمام التحتاني المذكورة والطريق الآخذ إلى السوق والجامع ، ومن الشمال الطريق الفاصل بينها وبين المسجد المعروف بالداودية ، ومن الغرب الطريق الآخذ إلى المحلة القبلية ومقام الدار التي كانت دار حكومة « سراية » ، ومن الجنوب الطريق المذكور والدار المذكورة « السراية » (ج) .

الجارية أن تقول : إنه ليس في الدار ، ولم يفتن المتدبون لذلك فلما قفلوا راجعين ، استنفر أعوانه وجنوده وبطاته ، وأراد أن يلتقم من أعدائه في صبيحة اليوم الثاني ، فثار في وجوههم جمهرة الناس ، وحصروه هو وأشياعه في داره ، فلما ضاق بهم ذرعاً خرج إلى سطح دار مصابقة لداره ، وتدلّى بجبل من السطح المتصل بسطح الحمام المذكورة ، وكان الناس أقاموا له الرقباء والأرصاد ، فرآه الرقباء الذين كانوا في منارة الجامع الكبير ، وأنذروا به الرقباء الذين كانوا على سطح السوق وغيرها فرماه رجل برصاصة فأرداه قتيلاً ، وقد رأيت على سارية من سوارى المسجد في المعرة هذا البيت :

يَسْتَقَى بِرِجْلَيْهِ عَمْدًا نَحْوَ مَصْرَعِهِ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا
وهو بخط جيد ، وفوقه تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ فحدثني كثير من الناس أن ذلك كتب يوم قتل يحيى بك .

وفي سنة ١٢٣٧ هـ حدث زلزال عظيم^(١) في حلب ليلة الأربعاء في الثامن والعشرين من ذي القعدة الموافق شهر آب

(١) انظر تفصيل ذلك في إعلام النبلاء لراغب تطبع ٣ : ٤٠٠ - ٤١١ .

ومكث أربعين يوماً ، وفي كل يوم تحدث هزة حتى هدم بسببه أماكن كثيرة في حلب وغيرها من البلدان الحلبية ، مثل كلّس ، وأنطاكية ، والمعرة ، وما جاورها ، حتى قيل : إن عدد القتلى الذين ماتوا تحت الهدم نحو عشرين ألفاً ، وقد نظم محمد تقي الدين بن الشيخ محمد المطالي القاطن في ديار حلب قصيدة يصف فيها تلك الزلازل ويذكر البلاد والأماكن التي خربتها ، وفيها يقول :

فَكَمْ خُطُوبٍ بِأَرْضِ الشَّامِ قَدِ وَقَعَتْ وَفِي حَمَاةٍ وَحِمَصٍ أَعْيُنٌ ذَمَعَتْ
وَفِي الْمَعْرَةِ كَمْ مِنْ نِسْوَةٍ فُجِعَتْ وَأَرْضُ رِيحَاوَسَلْقِينَ لَقَدْ صُدِعَتْ
وَأَرْضُ عِنتَابَ مَا جَتْ فِي أَهَالِهَا

وفي سنة ١٢٤٨ هـ استولى إبراهيم باشا بن محمد علي المصري على المعرة ، وقد سمعت من بعض المعريين أنه لما قدمها نزل ضيفاً في دار جد والدي محمد الجندي ، وكان مفتياً في المعرة وكان الباشا يحبه حباً جماً ، وأرق ذات ليلة ، فرتب له مكتبة ، وجعل لها فهرساً ، وما زال ذلك شأنه معه ، إلى أن بلغه أن أميناً بن محمد المذكور هجاء بقصيدة ، ومدح التُّرك ، واستنار

الناس عليه ، فسخط على الأب والابن معاً ، وكان إذ ذاك بعيداً عن حلب ، فجدّ في طلب أمين ، وبث عليه العيون والأرصاء ، وسد عليه المنافذ ، فلم يقف له على أثر ، لأنه كان محتبئاً في حلب ، ثم عاد إلى المعرة ، وقد أندر أباه بضرورة احضار ابنه لمقابلته فاحضره ، فلما قابله تناسى ما أثار سخطه عليه ، وقابله باللطف والسباح ، ولم يتصد لذكر القصيدة ، وإنما عامله وعامل أباه معاملة الملك الصفوح الكريم كما سيأتي في ترجمتها .

ولكنه في نحو سنة ١٢٥٥ أو ١٢٥٦ هـ بلغ أهل المعرة أن الترك تغلبوا على إبراهيم وكسروا جيوشه ، فهب جماعة من الرعاع ونهبوا الشونة ، واتصل به ذلك ، فبعث عليهم جنداً لينتقم منهم ، أو لما اقترب فلّه من المعرة شعروا بما يضمّره لهم ، فجاء رجل من أهل المعرة . يقال له علي بن قنّذح على زعم من أخبرني ، وصعد منارة الجامع الكبير فيها ، وأندر الناس بقدم عسكر إبراهيم ، وحذروهم بأسه وشره ، ففر الناس نهار الإيل إذا قعقع بين يديها بالشنان ، وهاموا على وجوههم في كل واد ، واعتصموا بالقرى والجبال .

ودخل العسكر المعرة ، وهي خاوية خالية ، وأطلق يده في النهب والاحراق ، حتى تركها صعيداً كان لم تغن بالأمس ، وطمس ما أبقت الأيام من معالم مجدها وحضارتها ، وظل أهلها هارين بضعة أيام ، ثم عادوا إليها فريقاً بعد آخر . وحدثني رجل من أهل قرية معشورين أنه كان غلاماً حدثاً ، فدخل الشوثة ^(١) مع الناهيين ، ووضع في ثوبه أزراراً من أزرار الجند وأخذها .

وأخبرتني زوجة جدي ، وكانت من أوعى الناس للأخبار وأكثرهم استقراراً لها ، وكانت ممن شهد الحادثة وفر مع الفارين : أن أهل المعرة حين أنذرهم النذير بقدوم العسكر ، حملوا ما استطاعوا من أعلاقهم وعقائل أموالهم ، وخبأوا غيره تحت الأرض ، وأن جمّاً غفيراً من أهل المعرة خبأوا أموالهم في محمية كانت في دار جدي « والمحمية في اصطلاح أهل المعرة بناء تحت الأرض ، وقد يكون واسعاً ، وليس له إلا منفذ كالسرداب ، وليس له درج ينزل إليه منه ، وإنما يدلى إليه

(١) سيأتي معناها (ج) .

بجبل ، والغالب أنه بناء قديم يعثر عليه فيفتح له منفذ ،
يدخرون فيه ما يشاءون عند الفزع ، ويسدون منفذه فلا
يتمتدى إليه » .

وقد خبا فريق من أهل المعرة أمتعهم فيها ، ثم سدوا
منفذها ، وفرشوه بالبلاط كبقية ساحة الدار ، فلم يمتد إليها
الجند . ولما رحل الجند وعاد الناس إلى مواطنهم ، وجد أكثر
هذه الأموال فاسداً من تأثير الماء والرطوبة التي في المحمية ،
فكان عمل إبراهيم هذا في أهل المعرة ، كعمل نمرود في
إبراهيم ، أخذ الصالحين والشيوخ والأطفال والنساء عامة ، بما
فعل السفهاء خاصة .

هذا ما سمعته من أهل المعرة من شيوخ شهدوا ذلك
الحادث الفظيخ ، وكهول روه بن شيوخ غيرهم شهدوه .

وقد ذكر جد أبي محمد وابنه أمين : أن صورة نسبهم فقدت مع
ما فقد حين نهب المعرة سنة ست وخمسين ومائتين وألف للهجرة .
وقد رأيت في ديوان عم أبي السيد أمين بن محمد الجندي ،
قصيدة يمدح بها السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود العثماني

ويذكر فيها شيئاً من أعمال المصريين في بلاد الشام وغيرها ،
ويذكر جلائهم عنها في شهر رمضان المبارك عام ستة وخمسين
ومائتين وألف ، ويؤرخ ذلك في آخرها ، وقد ذكر فيها
ما أصاب المعرة وأهلها ، وذلك حيث يقول :

قَصَدُوا الْمَعْرَةَ بِالْأَذْيَةِ عِنْدَمَا	سَكَّانُهَا لَبُّوا وَلَمْ يُبْدُوا قَلَى
فَوَشَى لَهُمْ مَنْ كَانَ فِيهَا عَامِلًا	مِنْ تَحْرِيرِهِمْ وَسَعَى بِنَا وَتَوَصَّلَا
وَاللَّهُ أَذْرَكَنَا بِلُطْفِ مُسَبِّلِ	إِذْ جَاءَنَا لَيْلًا نَذِيرٌ أَوَّلَا
فَوْرًا حَرَجْنَا لِلْجِبَالِ بِأَهْلِنَا	مَشْيًا وَغَادَرْنَا الْمَتَاعَ مُكْمَلَا
فَتَرَى الذَّرَارِي وَالنِّسَاءَ بَوَاكِيًا	وَالنَّاسَ مِنْ خَوْفِ الْفَضِيحَةِ جُفَلَا
فَأَتَوْا بِشِرْذِمَةٍ وَأُخْرَى بَعْدَهَا	كُلُّ عَالَى إِهْلَاكِهَا قَدْ عَوَّلَا
دَخَلُوا الْمَدِينَةَ وَهِيَ خَالِيَةٌ فَلَمْ	يُنْقُوا وَلَمْ يَذَرُوا سِوَى مَا أَثْقَلَا
فَرَمَوْا بِهَا النَّيْرَانَ حَتَّى أُحْرِقَتْ	وَعَدَتْ بِلَا قِعِّ وَاكْتَسَتْ ثَوْبَ الْبِلَى
حَرَقُوا الشُّيُوجَ وَلَمْ تَرْقُ قُلُوبُهُمْ	وَهِيَ الْحِجَارَةُ بَلْ أَشَدُّ عَلَى الْمَلَا
فَأَتَى الْعَبِيدُ لِيَنْظُرُوا مَا حَلَّ فِي	أَوْطَانِهِمْ وَجَدُوهُ أَمْرًا مُشْكَلَا
فَالْمَالُ أُتْلِفَ مُنْهُمْ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ	بَلْ بِالْمَسَاجِدِ وَالْمَقَامَاتِ الْعَلَا
أَمَّا الْمَصَاحِفُ رَأَى عَيْنِي فَوْقَهَا	مَا لَا يَقْوَهُ بِهِ اللِّسَانُ تَنْزِلَا

بَطَلَ الْأَذَانُ مَعَ الْجَمَاعَةِ مُدَّةً بَلْ أَفْطَرُوا رَمَضانَ مِنْ عِظَمِ الْبِلَاءِ
 اللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا لَمَصَائِبُ فِي وَقْتِهَا ظَلَّ اللِّسَانُ مُحَوِّلاً
 وَقَدْ انْجَلَوْا عَنْهُمْ وَتَسَارَوْا جَحْفَلًا لَا سَلَّمَ الرَّحْمَنُ ذَاكَ الْجَحْفَلَ
 ولما دخل ابراهيم باشا بلاد الشام ، مدحه الشيخ أمين بن
 خالد الجندي الحمصي بقصيدة مطلعها :

عَرَّجَ أَخَا الْبَأْسَاءِ نَحْوَ بَنِي الْعُلَا وَالشَّمُ تَرَى أَعْتَابِهِمْ مُتَذَلَّلًا
 وقد مدح فيها ابراهيم باشا ، وذكر طرفاً من أعماله ، وضم
 الأتراك ، وذكر جملة من أعمالهم المذمومة .

فلما فعل ابراهيم في البلاد الشامية ما فعل ، نظم عم والدي
 السيد أمين بن محمد الجندي هذه القصيدة التي قدمنّا أبياتاً منها ،
 ومدح بها السلطان عبد المجيد العثماني ، وضم ابراهيم ، وذكر
 طائفة من أعماله الجائرة .

والقصيدتان متفقتان في الوزن والقافية ، والأولى منها تضمنت
 مثلاً شيئاً من أعمال الترك في البلاد السورية ، والثانية تضمنت
 مثلاً شيئاً من أعمال ابراهيم باشا وجنوده المصريين فيها ، فقاتل
 الله الفريقين ، وجازى كلا منهما بما يستحقه .

وقد ذكر في (إعلام النبلاء) كثيراً من أعمال إبراهيم باشا ، منها : أنه طرح ضريبة على كل واحد ، وسماها إعانة الجيش على الحرب ، ورتب على أنواع الحبوب فريضة سماها بالشون . وجرد المسلمين من الأسلحة ، وأنه طلب أولاد الأعيان ليجعلهم جنداً له يدرأ بهم عن البلاد كل عادية ، وأنه كان مسرفاً في القتل ، وسرد جملة من أعماله ^(١) .

وذكر في (نهر الذهب) ^(٢) جملة من أعماله ، وتجنيد الصغار والكبار ، ونسخيره الناس في الأعمال الشاقة ، ونحو ذلك من المنكرات والفظائع ، وما ترتب عليها من المضار والمفاسد الخلقية وغيرها .

ونما لا ريب فيه أن المعرة شاركت غيرها من البلاد الخلية في هذه الكوارث ، وأصابها منها طل ووابل .

وكانت الحكومة العثمانية حين خرج إبراهيم باشا إلى بلاد الشام وقبل ذلك ، ترهق أهلها ضروباً من العسف والخسف وكان المتغلبون عليها من الولاة والعمال يذيقونها أنواعاً من العذاب ، واستصفاء الأموال ، وخراب العامر وابتزاز الأموال

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ٣ : ٢٤٤ فما بعدها (ج) .

(٢) كامل الغزي : نهر الذهب ٢ : ٣٦١ في بعدها (ج) .

بطرق شتى ، وقد وصف الشيخ أمين الجندي الحمصي شيئاً من
أعمالهم في القصيدة السابق ذكرها التي يمدح بها ابراهيم باشا
وأباه ، وبينته بفتح الشام ، منها قوله :

سَلَبُوا الْبِلَادَ مِنَ الْعِبَادِ فَلَنْ تَرَى فِي حُكْمِهِمْ ذَا نِعْمَةٍ مُتَمَوِّلًا
وقوله :

وَاللَّهُ غَيْرُ مَا بِهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ لَمَّا تَغَيَّرَ حَالُهُمْ وَتَبَدَّلَا
وَقَدْ اسْتَبَاحُوا الْمُنْكَرَاتِ فَلَا تَسْلُ عَمَّا تَوَقَّعَ مِنْهُمْ وَتَحْصَلَا ..
ومنها قوله :

وَقَضَاتُهُمْ لِلشَّحْتِ قَدْ أَكَلُوا فَمَلَّ أَنْبَصَرَتْ حَيًّا مِنْ مَضَرَّتِهِمْ خَلَا
نَبَذُوا الشَّرِيعَةَ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ وَطَغَوْا وَزَادُوا فِي الضَّلَالِ تَوَغُّلًا
وَمَشَايِخُ الْإِسْلَامِ أَصْبَحَ عَلَيْهِمْ جَهْلًا فَلَمْ تَرَ قَطُّ مِنْهُمْ أَجْهَلًا

ثم ذكر البلاد الشامية التي افتتحها ابراهيم وذكر ما وقع فيها
من المعارك والأعمال حتى قال :

وَالِىَ حِمَاةَ الشَّامِ سَارَ وَبَعْدَهَا لِمَعْرَةِ النِّعْمَانِ يَخْتَرِقُ الْفَلََا
وَعَدَا يَجِدُ السَّيْرَ فِي آثَارِهِمْ بِمَوَاكِبِ وَكِتَابِ لَنْ تَغْطَلَا
حَتَّى أَتَى حَلَبًا فَلَمْ يَرَ مِنْهُمْ إِلَّا طَرِيحًا أَوْ جَرِيحًا مُبْتَلَى

ولما كان محمد نجيب باشا مشيراً في الشام ، وردت أوامر
التنظيمات الخيرية إلى معرة النعمان ، وكانت توليته سنة ١٢٥٧ هـ
فتليت في الجامع الكبير العمري على الناس ، وقد عهد بتبليغها
إلى السيد أحمد أبي المواهب المالكي ، والسيد أحمد الجيلاني ،
وهذا بلغها أهل المعرة ، وقد ذكر هذه الحادثة السيد أمين
الجندي في قصيدة مطلعها :

سَحَرَ الْعُقُولَ بِلَاحِظِهِ الْفَتَانَ وَنَضَّاهُ مِنَ الْأَحْدَاقِ سَيْفَ يَمَانٍ
وفيهما يقول في مدح السلطان عبد المجيد :

عَبْدُ الْمَجِيدِ بِمَجْدِهِ سَارَتْ إِلَى أَقْصَى الْبِلَادِ مَدَائِحُ الرَّكْبَانِ
نَزَعَ الْبِلَادَ مِنَ الْخَوَارِجِ عَنُوةً وَأَقْرَأَ أَعْيُنَ عِصْبَةِ الْإِيمَانِ
ويقول في المشير محمد نجيب باشا :

وَجَبَّ دِمَشْقَ بِعَامِلِي مَا إِنَّ لَهُ فِي عِقْدِ أَرْبَابِ الْوَزَارَةِ ثَانٍ
وَهُوَ النَّجِيبُ مُحَمَّدُ زَاكِي الْحِجَا وَجُنْدِلُ الْأَبْطَالِ وَالشُّجْعَانِ
ويقول في الأوامر والتنظيمات الخيرية وقراءتها في المساجد :

تَلَيْتُ جَهَارَافِي الْجَوَامِعِ لِلْوَرَى بِرَأْسِ التَّعْظِيمِ وَالْإِيمَانِ

ويقول فيمن تولى ذلك :

وإلى حماة وخصّ ثمّ معرة الذ... .نعمان كان سفير هذا الشأن
المالكي أبو المتواهب أحمد والجهنم البدر الجليل الثاني
والله خصّ معرة النعمان بالبدر المنير سميّه الجليلاني
وفي أن كلاً منها اسمه أحمد :

هذا لعمر كخير قال جاءنا بالآحمدين قتل هما بدران
وفي سنة ١٢٦٠ هـ نزلت جماعة من الفلاحين في بلاد
حماة والمعرة عن قراهم ، فأصدر علي رضا باشا والي إيالة
الشام أمراً إلى جد والدي محمد ، وكان مفتياً بالمعرة ، وإلى
ولده أمين ، وكان قاضياً فيها أن يذهبا إلى حلب ومعهما
خليل آغا رئيس جردة عساكره لاسترجاع الفلاحين النازحين
فمكثوا شهراً ، وقد استطاعوا أن يرجعوا فريقاً من النازحين ،
فجعل خليل آغا متسلماً للمعرة .

وبالنظر لصعوبة طبعه وقع بينه وبين المفتي محمد الجندي
نفار شديد ، واشتكى إلى الوالي المذكور ، فطلب المفتي إلى
الشام ، وفي أثناء غيابه في الشام فرسكان القرى في المعرة ،

فعزل خليل أغا من المتسلمية ، وعين بدلاً منه عبد الله بن حسين ابن عثمان بن عبد الرزاق بن محمد الجندي الحمصي أحد القبوجي باشية للباب العالي ، وكان ابن اخت المفتي محمد المذكور ثم عاد المفتي إلى المعرة ، وحضر ابن أخته المتسلم بعده وكان دخوله المعرة في اليوم الخامس من شوال سنة ١٢٦١ هـ .

وكان عبد الله حديث السن ، وكان في طبعه صعوبة بقدر ما كان في طباع أهل المعرة من الصعوبة ، وأراد أن يسلك بالناس طريقة عادلة ، فتكرت له خصومه ، واستثاروا عليه الدهماء والرعاع ، وحصروه في بيت خاله يوماً كاملاً ثم اضطروه إلى الخروج من البلدة قهراً .

ثم خرج في إثره مفتي المعرة المذكور ، ونقيب الأشراف فيها ، واجتمعا به خارج المدينة ، وازداد تعصب الناس على قاضي المدينة أمين ابن مفتيها ، وكتبوا شكايات إلى الوالي ذكروا فيها ما شاءوا ، ونسبوا إليه من الأعمال ما أحبوا ، ثم كلفوا القاضي أمين الجندي أن يوافقهم على ذلك ، فخرج من المعرة يوم الاثنين التاسع من شهر ذي الحجة سنة ١٢٦١ هـ .

وأراد اللحاق بأبيه وبالنقيب والمتسلم ، وذلك بعد خروجهم
بسته عشر يوماً ، وبات تلك الليلة في قرية كفر زيتا ، وفي
اليوم الثاني صلى بهم صلاة العيد وذهب إلى حماة ، ثم إلى
حِمْص ، ثم طلب إليه أبوه ونقيب المعرة أن يذهب إلى
دِمَشق ، فدخلها في اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة
 واجتمع بوالها علي باشا الكوتاهيلي ، وكان هذا قد طلب
خطبوم المفتي والقاضي وجماعتهما من أهل المعرة ، فحضرُوا
ودفعوا أموالاً جزيلة رشوا بها الحكام ، ثم سعوا لعزل المفتي
والقاضي من منصبيهما ، وصدرت إرادة سنية باقامتهما في
دِمَشق ، وأن لا يخرجوا منها بدون فرمان عال من السلطان
وبقيا فيها حتى صدر فرمان بإطلاق سراحهما في غاية المحرم
سنة ١٢٦٣ هـ ، فخرجوا من دمشق في اليوم الرابع والعشرين
من صفر من السنة المذكورة ، ودخلا المعرة في غرة ربيع
الأول ، ثم أعيد كل منهما إلى منصبه السابق ، فكان الأب
مفتياً والابن قاضياً ، وسيأتي تفصيل ذلك في ترجمتهما .
وفي سنة ١٢٦٤ هـ ولت الحكومة الحاج أحمد بك بن نصوح

باشا مديرية حماة وحمص والمهرة . وقد مدحه السيد أمين
الجندي بقصيدة أرتخ فيها ذلك بقوله :

لَكَ الْحَمْدُ يَا ذَا الْجُودِ لَا زَالَ سَرْمَدًا

والقصيدة موجودة في ديوانه الخطي المحفوظ في مكتبي ومطلعها:
جَيْبُكَ أَمْ نُورُ الصَّبَاحِ لَنَا بَدَأٌ وَلَحْظُكَ أَمْ سَيْفٌ لِقَتْلِي تَجَرَّدَا
وفي سنة ١٢٦٥ هـ طبعت الحكومة العثمانية القانون السلطاني
المبين فيه دخول ذوي الأسنان العسكرية إلى القرعة من
المسلمين القاطنين في الممالك السلطانية ، وقد سمته في آخره
التعرفة في بيان القرعة العسكرية .

وقد رأيت بخط جدي سليم بن محمد الجندي على صفحة
من آخر التعرفة المذكورة جملة خلاصتها أنه يقول : قد تسلمت .
هذه التعرفة في مدة ولايتي الفتيا في معرة النعمان ، وذلك
في ٢٠ رمضان سنة ١٢٦٦ هـ ، وكان محمد سعيد باشا والياً
في الشام ، وكان قائم مقام المعرة في وقت تسلمه التعرفة
المذكورة عثمان بك محمد باشا انجي يرقدار زاده ، ثم ختم
ذلك بخاتمه الرسمي .

وكتب على الوجه الثاني من جلد التعرقة المذكورة جملة
يبين فيها أن الذي أخذ من المعرة للصنف العسكري في سنة
١٢٦٦ هـ ستة عشر رجلاً منهم ستة من الحملة الشمالية ، وعشرة
من الحملة القبلية ، وقد ذكر أسماءهم جميعاً وأن ذلك تم عن
يد المأمور بها مصطفى باشا ومحبي الدين أفندي ميمر الطلبة .
ورأيت بخطه على جلد التعرقة الأخير جملة يقول فيها :
في السابع من ربيع الأول سنة ١٢٦٧ هـ جاءه الشيخ يوسف
الشُّخنة ويده مراسلة قضاء المعرة ، وكان إذ ذاك السيد محمد
ابن عبد الله العلوان منصوباً وكيلًا بعد وفاة ابن عمه السيد
حسين العلوان ، فبرز جميع أهل المعرة ومنعوا الشيخ يوسف
ونزعوا المراسلة من يده ، ودفعوها إلى السيد محمد العلوان
شفقة عليهم لئلا يغلق قوناقهم « وهو المحل المعد لنزول الضيوف »
لأنهم جماعة فقراء أصحاب عيال .

وفي سنة ١٢٧٠ هـ دخلت سكاير الدخان أي اللفافات
وكان الناس قبلها يستعملون الدخان بالغليون الذي له قصبة
وكانوا يتنافسون في الغليون كما يتنافسون في القصبات

فيتخذون الغليون من فخار ، ويتخذون القصبات من ياسمين وأنبؤس وغيرهما ، ويسمونها أمزك ، ويجعلون في رأسها قطعة من الكهرباء الجيد ، وقد تكون قدر بيضة الدجاجة ، ويغالون في ترصيعها وتزيينها بالفضة والذهب وألماس والفيرزج وغيرها وقد أنكر الناس استعمال اللقائق أولاً ، ثم ألفوه لحفة مؤوته وحمله ، وهجروا الغليون وما يتعلق به .

وفي سنة ١٢٧١ هـ جاء إلى حلب بزر البندورة ، وتسمى الطماطم ، وزرع فثمر ، وكان الناس يأكلونه ما دام أخضر فإذا احمر أنفوا من أكله ، ثم ألفوا أكله بعد احمراره واقتنوا في أكله واتخاذ عصير منه واتخاذ دبس أيضاً ، وقلما خلا طعام فيه خضر أو لحم من البندورة ، ودرج أهل المصرة على آثار الحليين في ذلك .

وفي سنة ١٢٧٦ هـ وضع نظام البرق في الدولة العثمانية .

وفي سنة ١٢٨٦ هـ وضع نظام البريد ، وكان بريد الحكومة قبل ذلك بواسطة السعاة والنجاين . وقد سمى الحكومة العثمانية

الأول تلغرافاً ، والثاني بوسـتة ثم استعمل الناس كلمة البرق بدلاً من تلغراف ، وكلمة بريد بدلاً من كلمة بوسـتة ، وذلك بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ هـ .

وفي المعرة مركز للبريد والبرق ، ولكني لا أعلم على التحقيق في أية سنة أنشأتها الحكومة .

وفي سنة ١٢٨٠ هـ دخل البترول ومصايحه مدينة حلب ، وكانوا يسمونه الكاز أو الغاز ، ويقال لمصباحه لمـنـبـة ، ومن عادة المعرة أن تحتذي على مثال حلب في كل شيء ، وكان الناس يخشون من استعماله على صدورهم أن تتأذى برائحته ، ويخافون على أبصارهم من شدة نوره .

ثم اقتصروا عليه ، وهجروا ما كانوا يستصبحون به من الشمع والزيت والشحم ، واستغنوا عن السراج والقنديل والفنار وغيرها من أدوات الاستصباح

وفي (نهر الذهب)^(١) في سنة ١٢٨٤ هـ أعلنت الدولة العثمانية النفير العام في بلادها لمحاربة روسيا ، وحشدت عساكر من جميع بلادها ، ومنها المعرة .

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٤٠٤ .

وفي سنة ١٢٨٦ هـ ألحقت معرة النعمان بولاية حلب
وكانت قبلاً ملحقة بولاية دمشق مضافة إلى حماة .

وقد ذهب إليها والي حلب يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول
من السنة المذكورة ، فرتب أمورها وطاف في قراها .

وفي سنة ١٢٩٦ هـ أعلنت الحكومة التركية النفير العام
في البلاد العثمانية لمحاربة الروس ، وهذه الحرب المعروفة
بحرب القرم والقريم ، وقد كانت الغلبة فيها للدولة العثمانية
وحليفها انكلترا وفرنسا ، وقد عاد المتطوعون بعد ستة أشهر .
وفي شهر رمضان من سنة ١٣٠٨ هـ كان رجل يحرق أرضاً
على مقربة من مزار أو مسجد الشيخ حمدان في شرقي المعرة ،
فاستعصت سكة الحرث ، وأخذ يعالج لإخراجها ، فوجدها
داخلة في طرف حجر كبير منحوت ، فأخبر صاحب الأرض
بذلك ، فأخذ يكشف التراب عن هذه الحجر ، فسقطت وسقط
معه عدة أحجار مثلها ، وهي كلها مربعة مستطيلة ، طولها
أكثر من أربعة أمتار ، وعرضها دون المتر ، فكشف عنها
التراب ، وأخرج الردم ، فأنحسر عن باب من الحجر الأسود

المحفور عليه نقوش وكتابة لم تمكن معرفتها ، وإذا في داخله غرفة كبيرة تحت الأرض منقورة في الصخر ، سقفها وأرضها وجدرانها من صخرة واحدة ، وعلى سقف الباب وكثير من الأحجار أنواع من الرسوم ، وفي صدر الغرفة مقابل الباب قبران محفوران في الصخر ، وعن يمين الداخل قبران ، وعن يساره قبران ، كلها منحوتة من صخرة الجدار ، وعلى كل قبر غطاء من الحجر على قدره ، لا زيادة ولا نقص ، وبين الصندوقين المقابلين للباب عمود من الحجر قطعة واحدة مطوق من طرفيه بطوق معدني ، وبقرب العمود كوزان من الحجر ، متصل بعضهما ببعض ، ويقال : إن أصحابها أخرجوا ما في القبور من عادات وحلي .

وأهل المعرة يسمون القبور المحفورة في الصخر خَشْخَاشَة ومنهم من يسميها ناووساً إذا كان فيها قبر أو قبران .

وفي أول ذي الحجة سنة ١٣٠٨ هـ عاد إلى المعرة داء الهَيْضَة « الكوليرا » ، وضرب عليها الحجر الصَّحِّي عشرة أيام ، وظل هذا الداء يفتك في البلدة من أول ذي الحجة إلى أواخر صفر

لجمل الناس بمداواته ، وبأسباب التوقي منه ، وجهل الحكومة وقلة عنايتها بذلك .

وفي هذه السنة جمعت أموال من أهل الحمية والغيرة ، ورُمم المسجد الذي فيه قبر عمر بن عبد العزيز في القرية المسماة بالدير الشرقي من عمل المنعزة .

وفي رمضان سنة ١٣١٠ هـ منع قاضي المعرة ابراهيم الصوفي اللاذقي الناس من الصعود إلى منارة الجامع الكبير وقت أذان العصر مع المؤذنين ، وكان من العادة أن يصعد إليها فريق من الشباب في ذلك الوقت في رمضان للتسلي ، فحظر عليهم ذلك مدعياً أنهم يشرفون على مقر نساته في داره القريبة من المسجد فلم يمتنعوا ، وقالوا : لنا أسوة بالمؤذنين ، وفي وسع النساء أن يمكن في غرفهن حتى ينتهي الأذان ، فأحضر قوة من الجند ، وكان هذا الجند ضبطية ، والعامّة تقول ضبطية بمعنى درك في هذا العهد ، ووقفوا على باب المنارة ليقبضوا على غير المؤذنين ، فجعل الناس يلقون بأنفسهم من نوافذ المنارة على سطح السوق المتصل بها من الغرب والجنوب ، حتى ضاقوا ذرعاً بذلك ، وأصيب بعضهم برض أو كسر في رجله ، قتل عليه الناس

وقت الصلاة ، وهموا بالإيقاع به ، فترك الجامع وفر إلى دار الحكومة ، فاحتوى بها وحمته الجنود ، وتبعه الناس إليها ، ولكنهم لم يتمكنوا من ضربه وقتله ، وإنما ملؤوه سباً وشتماً ، وكنت ممن شهد ذلك وتبعه إلى دار الحكومة .

وفي سنة ١٣١١ هـ ^(١) سعى الشيخ أبو الهدى الصيادي لدى الحكومة ، فبنى مسجداً وتكية في قرية حبش من عمل المعرة وزعم أن موضعها مرقد لأحد أجداده المسمى علي من آل خزام . وفي سنة ١٣١٢ هـ تفشى مرض الجدري ^(٢) في المعرة ، وذهب بعيون كثير من الناس ، وعمى كثيرون بسببه لفقد الأطباء . وفي سنة ١٣١٤ هـ ^(٣) فرضت الدولة العثمانية على المملكة إعانة ، سمّتها إعانة التأسيسات العسكرية ، فأصاب قضاء المعرة (١٧٣٧٥٠) درهماً ، وهذه الاعانة لتستعين بها على حرب اليونان في السنة المذكورة ، وكانت الحكومة تفرض من حين

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٤٢٣ (ج) .

(٢) في الصحاح للجوهري ١ : ٢٩٥ : والجدري بضم الجيم وفتح الدال والجدري بفتحها لغتان .

(٣) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٤٢٧ (ج) ..

إلى آخر ضرائب تسميها بأسماء مختلفة ، منها إعانة المعابد
الاسلامية وإعانة مهاجري كريد .

وفي سنة ١٣١٥ هـ كثر الثلج والبرد في المعرة ، واشتدت
وطأته فيها .

وفيهما أو في سنة ١٣١٦ هـ حدث زلزال عظيم في المعرة ،
سقط بسببه بعض الدور ، وبات الناس في قلق عظيم أياماً
لتكرار الزلزال فيها ، ولم يحدث ضرر في النفوس .

وفي سنة ١٣١٧ هـ قتل أمير من أمراء الموالي يقال له :
عز و قتله الجند ، وكانت وطأته قد اشتدت على الناس ، واستطار
شره على القاصية والدانية ، فكان يأتي القرية ، فيأمر شيخها
أن يقدم إليه ما يطلب من ملابس وقهوة وحنطة وشعير وغير
ذلك ، فاذا امتنع أو تأخر أصلى القرية ناراً حامية ، وقتل
من وقع عليه بصره من انسان أو حيوان ، وقد أرسلت الحكومة
قوى متعددة للقبض عليه فلم توفق ، لأنه كان يدبر المكلف بالقبض
عليه ويرضيه حتى يدعي أنه لم يره أو لم يجده . ثم تعقبته
قوة في قرية الحيصنة من عمل حماة ، وأمنه قائدها ، فاستسلم
إليه ، فقاده إلى حماة ، حتى إذا كان بالقرب من مكان يقال

له : الدفّاعي ، قتله ورمى بغلاً للجند برصاصة في رجله ،
وادعى أنه عصى على الجند وحاربهم ، فأصاب بغلاً لهم
فقتلوه ، وهذا القائد كانت الحكومة أنفذته مع قوة من
الجند ، ليقبض على الأمير المذكور في البادية ، فامتنع عن
الاستسلام ، ووقعت بينه وبين القائد المذكور معركة شديدة ،
اتتهت بانزمام القائد وجنده ، وتبعه الأمير ورجاله إلى أبواب
حماة ، ولذلك احتال عليه هذه المرة ، وأمنه بواسطة مختار القرية
الذي نزل عنده ضيفاً ، فأخبر الحكومة بذلك ، فأرسلت
القائد مع جند ، ولكن لباسهم غير لباس الجند ، فجمعوا عليه
وهو لا يشعر ، وقد كان نزع سلاحه ، فلم يسعه إلا الاستسلام
للقوة ، فأمنه القائد ، ثم قتله كما قلنا .

وقد كان قتله راحة لاقليم حماة والمعرفة وحلب ، لأنه كان
يسلب قراها طوعاً وكرهاً ، ويأخذ أثاثات غير بمقدار
أو زمن ، ويستخف بأشراف البلاد وأصحاب القرى ورجالها .
وفي سنة ١٣٢٠ هـ تفشى الطواء الأصفر في دمشق ، فأنبأت
حكومة حلب بذلك ، فأرسلت ضابطاً مع قوة من الجند
الدرك ، إلى كل موضع من حدود ولاية دمشق ، وهي قرية خان

شيخون ، والهبيط ، وقلعة المضيق ، والحراء ، لتكون تحت إمرة الضباط . ثم فُتح في خان شيخون مَحْجَرٌ صِحِّي ، فيه أطباء وأدوات للتبخير والتعقيم ، وفحص من يمر من ولاية دمشق إلى ولاية حلب ، وضرب على بقية القرى المذكورة النطاق الصحي . وفي شهر شباط من السنة المذكورة ذهب هذا المرض من دِمَشق ، وأزيلت الحواجز والمهاجر من الأماكن المذكورة . وفي هذه السنة عملت الحكومة احصاء للمولودين والمتوفين في ولاية حلب ، فكان عدد المولودين في المرة ٣٦٦ ، والمتوفين ١٩٠ .

وفي سنة ١٣٢٣ هـ فرضت الحكومة ضريبة جديدة اسمها ويركو شخصي ، فطرحت على كل رجل بالغ مقداراً من المال ، بقدر يُسْره وعُسْره ، على أن لا تقل عن خمسة عشر قرشاً في السنة إلى مائتين .

وفرضت على كل موظف في أعمالها ، أن يحسم عن كل سنة مقدار راتب يومي ، إن كان راتبه لا يتجاوز خمسمائة قرش ، فإن تجاوز يحسم مقدار راتب أربعة وعشرين يوماً ، فامتنع أهل أرض الروم عن دفعها ، وهجموا على الوالي وأهانوه ،

فخافت الحكومة أن يستشري الشغب ، ويعم البلاد كلها ،
فأصدرت أمراً بإبطال هذا المكس .

وفي هذه السنة ١٣٢٣ هـ اتفقت الحكومة العثمانية ، وشركة
سكة حديد حماة وحلب^(١) ، التي شرعت في مد الخط الحديدي
ما بين حماة وحلب ، على أن تدفع الحكومة ثلاثة عشر ألف
فرنك وستمائة وستة وستين فرنكا ، باسم تأمينات عن كل كيلو
متر ، والمسافة ١٤٣ كيلو متراً .

وفي هذه السنة اشتدت وطأة الجراد في المعرة وغيرها من
أعمال حلب .

وفي سنة ١٣٢٤ هـ تم مد الخط الحديدي بين حلب وحماة ،
واحتفلت الحكومة بذلك في محطة حلب في ١٦ شعبان من السنة
المذكورة ، وقد ذهب هذا الخط من حماة إلى حلب في البادية
ولم يمر بالمعرة لأسباب كثيرة ، من أعظمها : جهل الحكومة
بما هو أصلح لها وأنفع لبلادها ، ومنها : أن الخط في هذا
الطريق يمر على قرية لأخي أبي الهدى الصيادي ، وقرى لبعض

(١) انظر تفصيل ذلك في نهر الذهب لكامل النزي ٣ : ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

أعيان حماة والمعرة وحلب ، ولو مر بالمعرة لأبعد عن تلك القرى ، وحرّم أصحابها الفائدة التي يتوقعونها من مروره ، مع أن الفرق بين الطريقين قليل من حيث المسافة ، ولو مر بالمعرة لمر على قرى كثيرة ومزارع متعددة ، وأحيا هذه المدينة ، وجعلها من أمهات المدن الشامية .

وفي سنة ١٣٢٦ هـ أعلن الدستور العثماني .

وفي سنة ١٣٢٧ هـ في السابع من شهر ربيع الأول خلع السلطان عبد الحميد الثاني ، وخلفه أخوه محمد رشاد . وابتهج الناس وظنوا أنهم خلصوا من جور عبد الحميد وعماله ولكنهم لم يلبثوا أن بكوا على عبد الحميد وأيامه ، لأنهم راوا في كل موظف اتحادي ألف عبد الحميد .

وقد أصاب المعرة نصيب وافر من عسف الاتحاديين وافتنانهم في النهب والسلب باسم الحكومة أو بطريق آخر .

وفي سنة ١٣٢٩ هـ اشتدت وطأة الثلج في المعرة وغيرها حتى وقف القطار عن السير بين حلب ودمشق ، وسدت الطرق بين البلاد ، وارتفعت أسعار الوقود من الحطب والفحم ، ومات كثيرون من المسافرين في الطرق ، ودام ذلك أكثر من شهر

وزعم بعض المؤرخين أن نهر العاصي جمد على مقدار أربعة أذرع من جانبيه ، وأن الفرات جمد كله من بعض جهاته ، وأن كثيراً من الأعمدة الحجرية والحجارة والرّخام في المساجد والآنية الزّجاجية في البيوت تصدعت وتحطمت ، وأن البقول والخضراوات وأشجار التين والجّوز والزيتون والرّمان أتلّفه الصقيع في كثير من الأماكن .

وفيها شبت الحرب بين إيطاليا والدولة العثمانية ، وانتهت سنة ١٣٣٠ هـ باستيلاء إيطاليا على طرابلس الغرب ، وجزيرة رودس ^(١) ، وغيرها من جزر بحر إيجه .

وفي سنة ١٣٣٠ هـ ابتدأت حرب البلقان بين تركيا ودول البلقان : بلغاريا والصرب واليونان . ولم يبق لتركيا في البلقان إلا أدرنة وقرق كليسا .

وقد حشدت تركيا جيشاً كبيراً من أبناء العرب في البلاد الشامية ، وكان لأبناء المعرة حظ وافر من ذلك ، وقد أصابوا

(١) في معجم البلدان لياقوت ٢ : ٨٣٢ : رودس قال القاضي عياض : هو بضم أوله ضبطناه عن الصدي والأسدي وغيرهما إلا أن الخشفي والتيمي فانه عندهما بفتح الراء ولم يختلفوا في الدال أنها مكسورة .

عناء كبيراً من المشاق من تعب وبرد وجوع ، وزادهم ضِعْفاً على إِبالة ما كانوا يرونه من الضباط والأمراء من الإهانة والقسوة والغِلظة .

وفي سنة ١٣٣١ هـ سمحت الحكومة بأن تقبل الرفيعة (الاستدعاء) باللغة العربية في البلاد التي يكون أكثر أهلها عرباً ، وكذلك سمحت بالتدريس باللغة العربية في المكاتب التي في البلاد العربية .

وفيها صدر أمر بجعل الساعات على الزوال ، بدلاً من الغروب ، أي جعل الزوال مبدأً للتوقيت في جميع البلاد . وفيها شرعت الحكومة تجد بجمع إعانة الأُسْطُول في سائر بلاد الدولة العثمانية .

وفي ١٠ رمضان سنة ١٣٣٢ هـ الموافق ٢١ تموز سنة ١٩١٤ ميلادية أعلنت في حلب وملحقاتها الحرب العامة ، واشتركت الحكومة العثمانية فيها ، فكان نصيب المعرة من سوق أهلها للجندية والاستيلاء على أرزاقهم وغلاتهم ، باسم الاعاشة والإعانة المختلفة الألوان ، نصيب بقية الأمصار الشامية ، وأصاب أهلها من الجوع والضغط والحيات وما شاكلها ما أصاب غيرها في

ذلك العهد ، وقد باغني أن كثيراً من الأسر الكريمة في المعرة لم تطل أيديهم إلى خبز الشعير ، فكانوا يعيشون مما تنبت الأرض من البقول والنبات في الربيع ، ويدخرون منه للشتاء ، وكثير من ذهب ضحية الفقر والجوع .

وفي ١٢ رمضان أعلنت الإدارة العرفية في حلب وملحقاتها وفي هذا الشهر بدأت الحكومة بأخذ الأموال من التجار ، باسم التكاليف الحربية بالقيمة التي تقدرها لجنة تسمى لجنة المبايعات ألقت لهذا الغرض ، فكانت تقدر قيمة البضاعة وتأخذها وتعطي صاحبها مضبطة بقيمتها ، على أن تدفع له بعد مدة غير معلومة . وكانت الضباط تطوف على مخازن التجار وتكتب ما عند كل واحد من بضاعة أو غلة لئلا يخفيها أو يبيعها .

وفي سنة ١٣٣٣ هـ وصل الورق النقدي العثماني المسمى بانق نوت ، ووضع موضع التداول بين الناس ، بدلاً من النقود المعدنية ، فأقبل الناس على تداوله ، ثم امتنعت إدارة حضر الدخان عن قبوله ، وكلفت الحكومة التجار أن تبدله بالذهب فأدى ذلك إلى هبوط قيمته ، حتى بيعت الورقة في آخر الحرب بأقل من عشر قيمتها .

وفيها فرضت الحكومة ضريبة سميتها إعانة نقدية ، باسم الكسوة
الشتوية للجند ، واستمر جمعها إلى نهاية الحرب .

وفيها أُنجلت الحكومة العثمانية الأرمين عن بلادهم ، وفرقتهم
على البلاد السورية ، وأقام في المعرة منهم فريق عظيم ، وادعوا
الاسلام ، فلما وضعت الحرب أوزارها ارتدوا إلى دينهم الأول .
وفي رجب سنة ١٣٣٤ هـ ومايس سنة ١٩١٦ م خنقت
الحكومة العثمانية واحداً وعشرين رجلاً من زعماء الجمعية
اللامركزية التي عقدت في باريس قبل أربعة أعوام مؤتمراً
عريباً ، غايته إعطاء البلاد السورية الحكم اللامركزي تحت
سيادة الدولة العثمانية ، قُتل منهم شنقاً أربعة عشر رجلاً في
يَبْرُوت ، وسبعة في دِمَشق .

وفي سنة ١٣٣٤ هـ ثار على الحكومة العثمانية الشريف
حسين بن الشريف علي ، واستولى على مكة المكرمة ، وجُدِّمَ ،
والطائف ، وَيَنْبُع ، وطرد الجيوش التركية منها .
وفيها شرعت الحكومة العثمانية باجلاء بعض الأسر الكريمة
من دِمَشق ، من أقرباء زعماء الجمعية اللامركزية الذين
خنقتهم شنقاً .

وفي سنة ١٣٣٥ هـ في اليوم السادس من المحرم نودي في مكة والبلاد الحجازية بأن الشريف حسين أمير مكة ، أصبح ملكاً على البلاد العربية العثمانية .

وفيها أقر مجلس النواب العثماني توحيد أوائل الأشهر الشمسية الشرقية والغربية ، فاعتبر رأس السنة الشمسية الشرقية أول شهر كانون الثاني أسوة بالغربيين ، إلا أنه أبقى عدد السنين كما كان ، واعتبر أول سنة ١٣٣٣ الشرقية ابتداء من كانون الثاني ، واسقط ثلاثة عشر يوماً من كانون الأول ، وهي الفرق بين السنة الغربية والشرقية .

وبعد خروج العثمانيين من بلاد الشام ، جرت الحكومة العربية التي خلفتها على التاريخ الغربي الميلادي .

وفيها أصدرت الحكومة قانوناً ، يقضي بالصاق طوابع على علب الكبريت (الثُّقَاب) ودفاتر ورق السيكرة .

وقد قل المطر في هذه السنة أي سنة ١٣٣٥ هـ وخاف الناس من القحط والجذب ، ويشسوا من حياة الزرع ، فارتفعت أسعار القمح إلى درجة غير متوقعة ، وأعظم الأماكن التي كان

فيها الفحل جهة الأحصّ وقضاء المعرة . وكانت أواخر هذه السنة وأوائل السنة التي تليها أشد أيام الحرب على الفقراء حتى أنهم كانوا يقتاتون من الحشيش ، فيسلقونه ويأكلونه كما كانوا يأكلون قشور الفواكه والبقول وكل ما تنبت الأرض . وكان تجار الحنطة والطحانون والخبازون ، يخلطون دقيق البُرّ بدقيق الشعير والذرة البيضاء والصفراء والثُرْمُس والنخالة والتراب والرماد وبزر المكائس وما أمكن خلطه، ويبيعون الخبز بأسعار باهظة وهو غير ناضج . وكان الجزازون يخلطون لحوم الحمير ونحوها بلحوم الغنم والبقر .

وكانت الأزقة والمنازل تعج بالأنين والبكاء من الجوع من الاطفال والكهول والشيخوخة ، وكانت بعض الطرق تنص بالموتى من الجوع ، يجري هذا كله والتجار والمحتكرون يحملون قلوباً كالخجارة ، بل هي أشد قسوة ، فلا ترثي لشاك ، ولا ترق لباك ، ورجال الحكومة شركاء المحتكرين في القسوة ، وشركاؤهم أيضاً في طلب السعادة من شقوة الناس ، والتماس الشبع من جوعهم ، فيتعامون عن هذه المشاهد المؤلمة ، ويتصامون عن سماع تلك الأنات المحزنة .

وبمثل هذه الفصول الموجهة المخزية ابتدأت هذه الحرب ،
وبمثلها اختتمت ووضعت أوزارها ، وبمثلها مرّ ما مرّ من
الأيام السود بين أولها وآخرها ، وبمثلها انتهت أيام الدولة
العثمانية .

وقد قوض الله دعائم هذه الدولة الجائرة ، وطوى سجل
أعمالها على مثل المخازي التي دونت في أول صحيفة من حياتها .
وفي سنة ١٣٣٦ هـ اشتد الغلاء والقحط على ما ذكرنا ،
وزاد على ما كان في السنة السابقة .

وفي هذه السنة في ٢٤ رمضان توفي السلطان محمد رشاد
الخامس ، وتبوأ السلطان محمد وحيد الدين عرش السلطنة
العثمانية بدلاً منه .

وفي اليوم الثاني من المحرم سنة ١٣٣٧ هـ استولت على
دمشق عرب الشريف حسين ، الذين هم مقدمة جيش بريطانيا
ودخل الجيش البريطاني والعربي أول تشرين الأول سنة
١٩١٨ م ، وقد رحل عنها معظم رجال الترك من موظفين
وعسكريين قبل ذلك .

وفي اليوم العشرين من المحرم دخل الجيش العربي مدينة حلب يرأسه الشريف مطر نائب الشريف فيصل ونزل في دار الحكومة ، وتيقن الناس أن ظل الحكومة التركية تقلص عن بلاد الشام .

وفي يوم ٢١ منه وصلت إلى حلب الجنود الانكليزية ، على اختلاف أنواعها من فرسان ومشاة ، واختلاف أديانها وأنواعها . وقد مر العرب والانكليز بالمرعة في طريقهم إلى حلب .

وفي يوم الثاني والعشرين منه وصل إلى حلب الشريف ناصر وكيل الشريف فيصل ، وبعد وصوله بيومين ألف مجلس شورى ليختب الدرك والشرطة أولاً ، ثم يلتخب موظفين لأعمال الحكومة ، وكان عدد أعضائه اثني عشر عضواً فانتخبوا كامل باشا القدسي رئيساً لهم ، ثم انتخبوا الموظفين . ثم عين شكري باشا الأيوبي حاكماً عسكرياً على حلب من قبل حكومة دمشق ، وعين كامل باشا القدسي قائداً عاماً وحاجباً فخرياً للملك العرب .

وفي اليوم السادس من صفر وصل الأمير فيصل إلى حلب ،
ومعه الوفد الذي صحبه من دمشق ، والوفد الذي ذهب إلى
حماة لاستقباله .

وأول شيء فعله هو حل مجلس الشورى ، لما بلغه عنه
من سوء إدارته ، وأمر أن تؤلف لجنة من كبار الموظفين
في الحكومة .

وفي اليوم الثامن منه حضر فيصل في موكب حافل إلى
نادي العرب ، فجلس في مكان أعد له فيه ، وصار الناس
يتقدمون إليه زمرة بعد زمرة ، يبائعون أباه على أن يكون
ملكاً للعرب .

ثم بعد أن أخذ البيعة لأبيه ، قام إلى مكان آخر أعد له ،
وسمع أقوال الشعراء والخطباء ، ثم خطب في الجمع خطبة
ذكر فيها ما وقع بين والده وبين الترك ، وذكر الأسباب
التي ألجأته إلى الخروج عليهم ، وما وقع بينه وبين دول
الغرب من المحالفات والعمود ، وما حدث منهم من المساعدات
المادية والمعنوية ، ثم حضّ على التمسك بأهداف الوحدة

والمحافظة على الاستقلال ، وطلب منهم أن يعنوا بحفظ الأمن وترقية المعارف ، وكانت هذه الخطبة جامعة لكل ما ينوي عمله من وجوه الاصلاح ، ومن الوسائل التي تحفظ استقلال الأمة وتعلي شأنها بين الأمم .

وفي اليوم العاشر من صفر وردت إلى فيصل برقية تقضي بشخصه إلى مكة المكرمة ، ليقابل والده فيها ، ثم يذهب إلى باريس ليمثله في مفاوضات الصلح ، فذهب فوراً .

وفي ٢٩ رجب من سنة ١٣٣٧ هـ و ١٩ نيسان سنة ١٩١٩ م عاد من أوروبا ، فوصل إلى بيروت في اليوم المذكور ، وشخص إلى دمشق .

وفي يوم ١٢ رمضان وصل إلى حلب الأمير فيصل قادماً من دمشق في القطار ، ونزل في الدار المعهدة لنزوله في محلة العزيزية .

وفي اليوم التالي أقام له نادي العرب حفلة حضرها الجم الغفير من الحليين ، وألقى خطاباً أشار فيه إلى أن الحلفاء الظافرين أرسلوا لجنة لتبحث عن رغائب السوريين في نوع

الحكم الذي يريدونه ، بعد جلاء الترك عن بلادهم ، وحضهم على التآلف والتكاتف ، والابتعاد عن كل ما يدعو إلى تفريق الكلمة ، والتمسك بالعروبة ، وتوحيد الكلمة والرأي ، ثم عاد إلى دِمَشق .

وقد وصلت برقية من المارشال أللني ، يقول فيها : تصل إلى الشرق عما قريب اللجنة التي تبحث في الأمور المتعلقة بمستقبل سورية وفلسطين والعراق السياسي ، وذلك بعد أن يكون المندوبون الأمريكيون قد تحقق سفرهم إلى هذه الأقطار وعندما تنتهي هذه اللجنة من فحص الحقائق المتعلقة بهذا الشأن يقدم أعضاؤها رأيهم إلى مجلس الدول المتحالفة العظمى ، فيقرر المجلس الأمر تقريراً نهائياً .

وفي اليوم السادس عشر من رمضان اجتمع في دار الحكومة في حلب المنتخبون الثانويون ، وانتخبوا أعضاء ليمثلوا حلب وملحقاتها في المجلس العمومي ، والمؤتمر السوري الذي تقرر اجتماعه في دمشق .

وفي اليوم التاسع من شوال دعا الأمير فيصل أعضاء المؤتمر

السوري إلى النادي العربي في دِمَشق ، ولما اجتمع الأعضاء
خطب فيهم خطبة يَبِّز فيها أن الغرض من اجتماع المؤتمر
تمثيل الامة السورية أمام اللجنة الامريكية ، وإيضاح مطالب
السوريين لتقدمه اللجنة إلى مؤتمر السلام ، ووضع قانون
أساسي يكون دستوراً لأعمال الامة في المستقبل .

وبعد مدة يسيرة اجتمع أعضاء المؤتمر وقرروا أن يكون
جوابهم واحداً إلى اللجنة الامريكية ، وهو عبارة عن طلب
الاستقلال التام لسورية بجميع حدودها الطبيعية المعروفة وعدم
تجزئتها ، ورفض كل حماية ووصاية عليها ، ومنع الهجرة
الصهيونية ، وإقامة حكومة دستورية ديمقراطية يرأسها الأمير
فيصل ، ووضع قانون أساسي تُراعى فيه حقوق الأقليات .

وإذا لم يكن بد من انتداب دولة على سورية لأسرار لا
ندرك غايتها ، فلتكن هذه المساعدة من دولة أميركا البعيدة
عن المطامع الاستعمارية بشروط معينة ، على أن لا تمس
هذه المساعدة استقلال سورية السياسي ، بل تكون عبارة عن
مساعدة فنية علمية لمدة عشرين سنة ، وإذا أبت أميركا ذلك

فلتكن هذه المساعدة من انكلترا بالشروط المتقدمة ، واننا نرفض كل حق تدعيه دولة فرانسة ، كما نرفض كل مساعدة تقدمها لسورية ، ولم يكن قرارهم هذا عن اجماع ، بل أقره ٤٦ عضواً وخالف فيه ١١ عضواً ، وعُدَّ ١٦ عضواً مستكفين .
وفي ليلة ١٦ شوال سنة ١٣٣٧ هـ وصل أعضاء اللجنة الأمريكية الى حلب بالقطار .

وفي صباح يوم ١٧ منه أخذ شيوخ العشائر ووجهاء المحلات في حلب ووجهاء الأقضية يقدون على اللجنة على سبيل الانفراد ، فتسألهم عن مصير بلادهم ، فكان كل واحد يصرح بما يطلبه ، وكانت مطالب هؤلاء لا تخالف ما قرره المؤتمر السوري .
وفي شهر ذي الحجة سنة ١٣٣٧ هـ سافر فيصل الى أوروبا ، ليحضر في باريس اليوم السادس عشر من ايلول سنة ١٩١٩ م ، وهو اليوم الذي عُنِيت فيه المسائل السورية .

وفي شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٨ هـ انسحب الجيش الانكليزي من دمشق وحلب ، وأصبحت محافظة الأمن منوطة بالحامية الوطنية المتطوعة ، الى أن يقرر مصير البلاد في مؤتمر الصلح الدولي .

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني من سنة ١٣٣٨ هـ عاد الأمير فيصل الى بيروت ، فدِمَشق .

وفي اليوم التاسع من جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ هـ وصل الى حلب في قطار خاص ، وفي اليوم العاشر ألقى خطاباً في حفلة أقيمت له في نادي العرب حض فيها على توحيد الكلمة والتجنيد ، وقال فيها : إن البلاد لا تنخلص إلا بقدره الله وقوة التجنيد ، وإن الجند حرس الاستقلال ، ثم عاد في اليوم العاشر الى دِمَشق .

وفي جمادى الأولى من هذه السنة ، عين عبد الحميد باشا القَلْطَقْجي حاكماً عسكرياً على حلب ، وأحدثت فيها متصرفية مستقلة ، ثم بعد قليل عادت حلب ولاية كما كانت في السابق .

وفي الثامن عشر من جمادى الآخرة من سنة ١٣٣٨ هـ والموافق ٨ آذار سنة ١٩٢٠ م أعلن استقلال سورية ، وتوج الملك فيصل بن الحسين ملكاً عليها ، وأخذت وفود المهنيين من البلدان السورية تفد على دِمَشق ، وكان المؤتمر السوري قد قرر إعلان ملكية فيصل .

وفي اليوم العشرين من رجب سنة ١٣٣٨ هـ عين رشيد طليع والياً على حلب .

وبعد مبايعة الملك فيصل شرعت الحكومة السورية تدعو إلى التجنيد ، وأخذت تزيد الضرائب .

ومنذ شعر السوريون أن الحكومة الافرنسية ستتولى الانتداب على جميع سورية ، كما تولته على لبنان ، وعلى المنطقة الشرقية من سورية ، تألفت في هذه المنطقة عصابات ، واستفحل أمرها ، حتى جهز الافرنسيون جيشاً عظيماً لتفريقها ، ولم تخمد ثورتها إلا بعد عناء وجهد .

ثم انتشرت العصابات في جميع الحدود السورية ، فأقلق ذلك الافرنسيين ، وارتابوا في الملك فيصل ، واعتقدوا أن ذلك من تديره وعمله ، وكان الجنرال غورو المفوض للجمهورية الافرنسية بلبنان يعزز جيوشه في الساحل ، ويعد العدد للانقضاض على سورية .

ثم أرسل في ١١ تموز سنة ١٩٢٠ م إلى فيصل كتاباً يقول فيه : كانت السكينة سائدة في سورية أثناء الاحتلال الانكليزي ، فلما حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية ، ابتداءً من الفساد ، ولا يزال آخذاً في الازدياد

وفي ١٤ تموز أرسل إلى الملك فيصل بلاغاً يكلفه فيه أن يعطي فرنسا الخط الحديدي من رياق إلى حلب ، وأن تلغي الحكومة السورية القُرْنَة العسكرية ، وأن يقبل الانتداب الافرنسي والنقود السورية ، ويضرب على أيدي الاشقياء ، فطلب منه فيصل أن يمهله أربعاً وعشرين ساعة ، فلما انقضت مدت أربعاً وعشرين ساعة أخرى ، ثم مدت مرة ثانية ، ولم يجب لانقطاع الاسلاك البرقية ، وأكثر الناس يقولون : إن مدير البرق والبريد أخر إرسال جواب فيصل عمداً لغرض في نفسه ، وكان الجنرال غورو أتم تأهبه واستعداده ، فسار بجيوشه إلى دِمَشْق ، والتقى الجيش الافرنسي والجيش العربي في ميسلون ، وكان مع الجند العربي فئة من متطوعة دمشق وجماعة من البدو ، فكانت الغلبة للجيش الافرنسي ، لوفرة عدده وعدده ، ووحدة قيادته وحسن تدريبه ، ولأن جيش فيصل كان مؤلفاً من أخلاط أكثرهم كان قلبه مع الافرنسيين . ويقال : إن الجنرال غورو أعلم الملك فيصلاً بأنه يتوقف عن الزحف ، إذا قبل بالمواد التي ذكرها في البلاغ . والإنذار

الذي أرسله إليه مع شروط أضافها إلى ذلك ، فتأخر جواب الملك ، فزحفت الجيوش الافرنسية ، ودخلت دمشق في اليوم الخامس والعشرين من تموز سنة ١٩٢٠ م بعد معركة شديدة قتل فيها من الجيش العربي والمتطوعين عدد عظيم ، وأسر عدد كبير . هذا ما حدث في جهات دِمَشْق ، أما ما كان في حلب فقد جاء أمر من قائد الجيوش في دمشق إلى قائد الجيش في حلب بأن يستعد إلى مقاومة الجيوش الافرنسية ، فأخذ يعد جيشاً من الجند الوطني واستطاع أن يضم إليه بضع مئات منه واستدعت الفئة القائمة على الأمر بعضاً من الأعراب واستنفرت العامة ، فخرج فريق منهم إلى الثكنة العسكرية وطلبوا من القائد السلاح فلم يعطهم ، وطلب الجند عدداً من المدافع فقال لهم : ان المدافع التي في الثكنة محتلة لا تصلح للاستعمال .

ثم ورد أمر من القائد العام في دمشق إلى قائد حلب بالتسليم وعدم مقاومة الافرنسيين ، ثم جاء أمر بمقاومة الافرنسيين .

ولما رأت حكومة حلب هذا التناقض ، وتيقنت عجز الأمة عن المقاومة عقدت مجلساً مؤلفاً من وجهاء حلب ، واستشارتهم

في ما يجب أن يفعلوا ، فاختلقت الآراء بقدر اختلاف العقول والمدارك ، ثم رأى كامل باشا القدسي ان محاربة الافرنسيين تضر البلاد ولا تنفعها ولا توصل الأمة إلى غايتها المطلوبة ولما كان من رجال العسكرية وأمرائها ، وكان عالماً بما عند الأمة من عدد وُعدد أجمع الناس على قبول رأيه ، وقرروا التسليم للجيش الافرنسي عن طوع ورضى .

وقبل أن يصل الجيش الافرنسي إلى مدينة حلب ، حلقت فوقها طائفة افرنسية وألقت نسخاً من منشور باللغة العربية ، جاء فيه : ان دولة فرانسة لا تتعرض إلى استقلالكم بسوء ، ولا تدعو أحداً منكم إلى الجندية ، وانها ستخفف عنكم الضرائب وتبقي كل موظف منكم في عمله .

وان مقاومة جيشها بالقوة يضر بالمدينة وأهلها ويضطر الجيش الافرنسي إلى أعمال لا تحمد مغبتها ، والمنشور والبيان طويل طافح بالوعد والوعيد .

وفي صباح الجمعة وهو اليوم الثامن من ذي القعدة سنة ١٣٣٨ هـ الموافق ٢٣ تموز سنة ١٩٢٠ م دخل الجيش الافرنسي مدينة حلب ، واحتل المراكز التي أرادها في أطراف المدينة ،

ثم جرى احتفال عظيم بقدوم الجنرال دي لاموط قائد الجيش
الافرنسي في المنطقة السورية الشهابية ، ثم زار مقر الولاية ،
وألقى خطاباً قال فيه : إن فرانسة وجيوشها لم تدخل هذه
البلاد بصورة عدائية لأهلها ، وليست غايتها الاستيلاء على
البلاد واستعمارها ، بل إن الواجب الوطني هو الذي ألقى على
عاتقها لترقية البلاد واسعادها ، وابلاغها الدرجة القصوى من
الرقى والعمران . وعلى هذا فان الحكومة ستبقى على ما هي
عليه محافظة على شكلها وموظفيها وقوانينها وأحكامها ، وان جميع
الضباط والقوات الافرنسية يحترمون هذه الاحكام والقوانين
وسيكونون مؤيدين لتنفيذ أوامر الحكومة وأحكامها . ثم طلب
من رؤساء الاديان والاعيان والاهلين دوام الالفة والمحبة واطاعة
الحكومة ، لانهم يكونون سعداء بذلك ، لا سيما إذا تحققت
أمانهم ورأوا بلادهم سعيدة حرة مستقلة .

وفي اليوم التاسع عشر من ذي القعدة سنة ١٣٣٨ هـ الموافق
٣ آب سنة ١٩٢٠ م عين كامل ياشا القدسى الحلبي والياً
على حلب .

وفي اليوم العشرين من حزيران سنة ١٩٢١ م أعلن الجنرال غورو في دمشق أساس الوحدة السورية ، بإنشاء مجلس اتحاد لها يتألف من دولة دمشق وحلب والعلويين ، أعضاؤه خمسة عشر عضواً ، من كل دولة خمسة ، والاعضاء يختارون منهم رئيساً . وقد عين صبحي بركات الخالدي رئيساً ، واختار لدوائر الاتحاد جماعة من الاتراك والارمن والروم مع العرب ، فاستاء الوطنيون لذلك .

واجتمع هذا المجلس في السنة الاولى في حلب ، ثم نقل إلى دمشق ، وبقي فيها إلى انتهاء حياته .

وفي يوم ٢٦ حزيران سنة ١٩٢٤ م و ٤ ذي القعدة سنة ١٣٤٢ هـ أعلن المفوض السامي الجنرال ويغاند في دمشق الوحدة السورية ، وتأليف الدولة العربية السورية من حكومتي دمشق وحلب فقط ، واخرج بذلك دولة العلويين ودولة جبل الدروز ودولة لبنان .

وفي اليوم الاول من كانون الثاني سنة ١٩٢٥ م الموافق سنة ١٣٤٣ هـ أعلنت الوحدة بين دمشق وحلب فقط ، وعينت

الوزارة برئاسة صبحي بركات الخالدي ، على أن تسأل وزارته أمام مجلس النواب ، وتستمد قوتها من المفوض السامي ويكون للمستشارين الكلمة النافذة في كل أمر .

وفي حزيران سنة ١٩٤١ م الموافق جمادى الاولى سنة ١٣٦٠ هـ دخل الجيش الانكليزي مدينة دمشق بعد حرب مع الجيش الافرنسي الذي كان في بلاد سورية ولبنان ، ثم طلب المفوض السامي للجمهورية الافرنسية في سورية ولبنان والقائد الاعلى لجيوش الشرق فيها الهدنة ووقف القتال الى أن يتم الصلح ، فوقف ، وانتهت المصالحة بين الفريقين ، واستولى الجيش الانكليزي على الشكنات والقلاع والمساح ، ودخل مدينة حلب في الساعة ١٢/١٥ من يوم الاربعاء الموافق ١٦ تموز سنة ١٩٤١ م و ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٦٠ هـ من طريق منبج ، وطريق المعرة .

وفي سنة ١٣٦٩ هـ يبس أكثر شجر الزيتون والتين واللوز وغيرها في المعرة وحلب وإدلب وكثير من البلاد الشامية ، وذلك بسبب الصقيع ويقدر عدد الشجر الذي يبس في هذه البلاد بألوف الاولوف . وكانت التجار تنقل حطب الزيتون من حلب والمعرة وإدلب

وغيرها إلى حماة وحنص ودمشق وغيرها . ولم يعهد الناس مثل هذه المصيبة في الشجر .

ومما تقدم يتضح أن المعرة كانت حين الفتح الاسلامي من عمل حنص ولذلك أضيفت إليه . ثم جعلها الرشيد من العواصم بعد أن استخلف سنة ١٧٠ هـ . والظاهر أنها أعيدت إلى حمص ، لأن واليها لؤلؤاً كان غلاماً لوصيف بن صور اتكين ، وبنى خندقاً عليها سنة ٢٨٨ هـ .

ثم استولى عليها سيف الدولة سنة ٣٣٣ هـ ، فصارت تابعة لحلب ، ثم تغلب بنو مرداس عليها . ثم تغلب عليها الفرنجة سنة ٤٩٢ هـ . ثم استخلصها عماد الدين زنكي سنة ٥٢٩ هـ ثم ملكها سنة ٥٣١ هـ .

ثم جعلها صلاح الدين من اقطاع ابن أخيه تقي الدين عمر وألحقها بحماة سنة ٥٨٢ هـ .

ثم ملكها الحلبيون سنة ٦٣٥ هـ ، ثم أعيدت إلى ملك حماة المظفر سنة ٦٥٨ هـ . .

ثم استولى عليها التتر سنة ٦٩٩ هـ ، ثم عادت إلى ملك حماة أبي الفداء سنة ٧١٠ هـ .

وظلت حيناً من الزمن من عمل حماة . قال ابن فضل الله العمري في حماة : وليس لها سوى عمليين عمل بارين وعمل المعرة ، ونقله عنه ابن الشحنة ^(١) في (الدر المنتخب) .
ثم صارت من عمل حلب في أخريات العهد التركي ، [ثم صارت من مناطق محافظة ادلب] ، ولم تنزل كذلك إلى هذا اليوم .

(١) قال ابن الشحنة في الدر المنتخب ص ١١ : وحماة اليوم منفردة بعمل لكنها كانت من مضافات حلب قديماً ومضاف إليها المعرة وقرى كثيرة من بلاد المعرة .

المعرة بعد جلاء الترك

كيف ترك الترك المعرة :

اتضح لنا مما سبق ذكره أن المعرة من أكثر البلاد الشامية مصائب ونوائب ، من الغزاة والفاطحيين والمتغلبين والمنهايين ، والطبيعة القاسية ، وأنها أكثرها صبراً على النوائب ، وأشدّها محاسنة للزمن الجائر ، وأنها خربت مراراً وعمرت ، ونزح أهلها عنها حيناً من الزمن وعادوا إليها ، وأن أفضع ما لقيته من الكوارث من الصليبيين ، ثم من التتر ، ولكنها استطاعت بعد ذلك أن تستعيد نضرتها وعمرانها ، وأن تظل مدينة جليلة ، كما وصفها المؤرخون وأصحاب الرّسائل .

ولما استولت عليها الدولة العثمانية ، كانت تباع بيع السلع للمولّين من قبل الحكومة ، أو تعطى لقاء فريضة مقطوعة لمتغلب . وقد ضن علينا التاريخ بمعركة حالتها في أول الحكم العثماني ، ولكننا لم يفتنا معركة آخره .

فقد كانت المعرة في ذلك العهد مركز قضاء ، فيه حاكم إداري يسمى : قائم مقام ، وقاض شرعي يشرف على أعمال المحكمة القانونية ، ثم جعل فيها حاكم مدني غير القاضي يحكم بالقانون المدني وتتألف المحكمة التي يرأسها من عضوين ، وقد تغير شكل المحاكم المدنيين والمحاكم المدنية أكثر من مرة . وكان الأمر كله بيد الحاكم الإداري ، فإن كان حسن السيرة ، كان ضعيف الإرادة ، ولقي من المتغلبين من أهلها ضروباً من الكيد والمعاكسة ، ثم لا يزالون يشكون أمره ، ويفترون عليه لحكومة حلب التي لا تعدم أنصاراً لهم منها ينعمون بما يبذلونه إليهم من الأموال التي يتزونها من الفقراء ، حتى يستبدلوه بغيره ، فإن كان مثل الأول صار إلى مثل ما صار إليه ، وإن كان على غير هذه الشاكلة وضع يده في أيديهم ووافق شن طبقة على السلب والنهب والعسف والتعذيب ، لامتناس دم الأمة فيها ، وهي تستغيث بحكومة حلب وبحكومة الاستانة^(١) أحياناً

(١) هي إستانبول وقد ذكرها شمس الدين سامي في معجميه قاموس الأعلام وقاموس تركي بمادة إستانبول ولم نعتز فيها على مادة إستاننة .

فلا نجد سامعاً ولا مجيباً ، ذلك لأن هذا العامل من بطانة والي حلب ، أو من خاصة وزير في الاستانة ، أو خاصة موظف كبير في حلب أو الاستانة ، وكان أكثر الموظفين يحرش بين أعيان المدينة وكبرائها ، ويوقع بينهم البغضاء ، فيمالئ فريقاً على آخر ، ليضعفه ويستنزف ماله ، ثم ينقلب على الآخر فلا تزال الفتن متقدة بين الأهلين ، ولكل فريق أنصار في حكومة المعرة وحلب أو الاستانة ، فيقدم لها بالجملة ما ينهبه من الناس بالمفرق . وكثير من هؤلاء الحكام من تولى هذا القضاء ، وهو صفر الوطاب ، فارغ الجراب ، فانقلب عنه بعد برهة ، وهو أغنى من كنز ، وأخصب من روضة ، بعد أن يكون أدى ما فرض عليه لموليه ، وقدم من الهدايا والتقديم لرؤسائه ، ومن يخاف شرمهم من أعوانهم ، ما يقيه شرم ، ويضمن له رضاهم وحمايتهم ومناصرتهم .

وكذلك شأن القاضي وغيره من رجال الحكومة ، يأتي أحدهم أشعث أغبر بالي السربال ، فلا يلبث أن ينقلب على أرائك النعيم والترف من أموال الفقراء ، وينفق الأموال الجزيلة في سبيل شهواته وملأذه .

وكثيراً ما مالاً هؤلاء العمال الاغنياء والاعيان ، على أكل مال الضعيف ، واغتصاب ما يملكه من عقار أو أرض .

وقد رأيت كثيراً من فقراء المعرة ورجال الطبقة الدنيا فيها تذرعوا بوسائل مختلفة ، حتى أصبحوا من أعوان الحكام ، فانتعشوا وارتاشوا ، وأصبحوا في عداد الوجهاء والاغنياء ، ولكن الواحد منهم لا يصير غنياً حتى يفقر الوفاً من أهل المدينة أو الضاحية وكان للحكام القسم الاوفى ، والقَدَح المَعْلَى من هذا النهب . وعلى هذا النمط كانت تساس المعرة ، وتحت مثل هذه الاعباء كانت ترزح ، وكانت الحكومة ترهقها بالضرائب على فقر أهلها .

ولم تكن البلدة وضاحتها متمتعة بالأمن والنلمأينة ، وانما كانت أيدي العُتاة والبُغاة والمتمردين تعبت بها ، وقلما مر اسبوع لم تقع فيه سرقات ، أو قطع طريق ، أو نهب أو تعد على عقار أو شجر ، أو نحو ذلك ، وكان البدو يشن الغارة على نفسه ، وعلى أهل القرى التي تجاوره ، ويرعى زرعها ويفسد ضرعها .

وكانت البدأة تغير على المعرة نفسها ، فتخرج طائفة من مقاتلة أهلها ، فتصد غارتهم عنها ، وتذود عن حياضها بسلاحها وقد أخبرني والدي أنه كان وهو صغير ، يرى من سطح داره أسنة الرماح تلمع في أيدي البدو المغيرين على المعرة من الجهة الشرقية ، وهذا لم أره في عهدنا ، ولكن البدو لم يفتروا عن غزو القرى وقطع السابلة ، وقلما انقطعت الحرب بين الموالي والحديدية مدة طويلة ، وعلى هذا الأسلوب كانت تسير رجال السياسة في المعرة .

وأما الحياة العقلية في عهد الترك الذي أدر كناه ، وهو أول القرن الرابع عشر للهجرة ، إلى يوم جلائهم ، فقد كانت أسوأ ما كانت عليه في عصر من العصور ، لأن الحكومة أحدثت مكتباً رشدياً في (اصطلاحها) ، ابتدائياً في اصطلاح أهل هذا العصر ، وهو يشتمل على ثلاثة صفوف ، وقد كانت لغة التدريس فيه اللغة التركية ، كما كانت اللغة الرسمية للحكومة ، وما علمت أحداً خرج من هذا المكتب ، وهو يعلم غير الخط ، وقد كان مديره في عهدنا أي في سنة ١٣١٠ هـ فما بعدها ،

رجلاً تركياً من ديوريكي^(١) ، كان يدعي علم كل شيء ، ولم تجتن المدينة في عهده الطويل ، البالغ أكثر من خمسة عشر سنة فائدة علمية ، ولم ينبغ أحد ممن تخرج به واقتصر عليه ، ومن نبغ منهم ، فأنما حصل على ذلك من استاذ غيره .

وكان في المعرة على عهدنا شيخ يقال له : الشيخ صالح الرمضان ، وابنه محمد صالح ، كانا يحسنان النحو والفقه على مذهب أبي حنيفة والشافعي ، وقليلاً من المنطق ، فكان طلاب العلم يقرأون عليها هذه الفنون ، وكنت ممن أخذ عنهما ، وكانا يخافان أن ينبغ أحد من الطلاب فينازعهما مركزهما في المعرة .

وكان في المعرة شعراء يحسنون وزن الشعر في بعض البحور سليقة ، ويتكلفون للصناعات البديعية ، إلا أن أسلوبهم إلى العامة أقرب منه إلى اللغة الفصحى ، وما علمت أحداً في عهدي في المعرة ، يعرف شيئاً من العروض والقافية وعلوم

(١) في قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ٣ : ٢٢٢٠ : ديوريكي .

البلاغة وعلم الأصول وغيره من العلوم العربية ، سوى مدير
المكتب ، فانه كان يدعي معرفة العروض ، ولكنه لا يقيم
وزن الشعر ، وكان يعرف الفلك على اصطلاح المتقدمين ،
وقد قرأت عليه رسالة في الربع المجيب .

وما خلا ما أسلفنا ذكره ، لا تجد في المعرة أثارة من
علم ، أما كتابة الانشاء الصحيح فهي مفقودة ، والخاصة
والعامة منهم سواء ، في ركافة الأسلوب ، والبعد عن اللغة
الفصحى ، وكثرة اللحن ، وتمتاز الخاصة من العامة فيه بالسجع
المتكلف ، السمج الطافح باللحن والتحريف .

هذه حالة المدينة في العهد الذي خلفتها فيه ، وهاجرت إلى
دمشق ، وذلك في اليوم العشرين من جمادى الأولى سنة ١٣١٩ هـ
وظل هذا شأنها حتى جلا الترك عنها .

ولا شك أن السبب في تأخرها في مضمار العلم ، ونضوب
النبوغ فيها ، يعود إلى الحكومة والحكام الذين كانوا يصرفون
الناس عن الاهتمام بالعلم ، ومجاعة البلدان الحية فيه ، إلى
اهتمام كل بمواثبة أخيه ، والكيد له ، حتى انقسم الناس على

أنفسهم ، وتمكن الحكام من خطم أنوفهم ، وتسخيرهم في منافعهم .
وقد نبغ فيها في الأزمنة الغابرة عدد كبير ، لا يقلون عن
النابعين في الأمصار العظيمة ، يوم كانت الحكومات تعنى بشأن
العلم والعلماء ، ومن المؤسف أني لم أعر على كثرة تنقيي
وبحي في كتب التاريخ والتراجم ، على رجل نبغ من أهل
المعرة في المعرة ، في العهد التركي يشابه أحداً من النابعين في
عصر آخر ، كأنما العبقريّة رحلت عن هذه المدينة منذ وطئتها
قدم الترك ، ومن برّز في هذا العصر ، فلما أن يكون تثقف
في مدينة أخرى ، أو أتم ثقافته فيها ، وإلّا أن يكون نبوغه
بالنسبة للعدم ، أو بالنسبة لآخر ، ويمكننا أن نقول : إن الحياة
العقلية في المعرة في عهد الترك ، أسوأ ما كانت عليه في جميع
العصور ، وأن جميع أهل المدينة وضاحيتها كانوا أميين أو عاميين
وقد يكون فيها رجل فقيه ، يعلم شيئاً من أحكام الفقه
كالفتي وأمين الفتوى ، ولكن واحداً من هؤلاء لا يستطيع
أن يكتب نصّاً أو حادثة أو صكاً خالياً من اللحن والركاكة
كما تشهد بذلك الآثار التي خلفها ذلك الزمن .

مادة اللغز في هذا العهد :

لغة أهل المدينة تشبه اللغة العامية في المدن الشامية ، مع اختلاف قليل ، وقد تجد فيها كثيراً من الألفاظ العربية الصحيحة الفصيحة ، منها ما هو باق على حاله ، ومنها ما حرف تحريفاً قريباً ، ومنها ما حرف تحريفاً بعيداً سيئاً .

ومخارج الحروف في ألسنة أهلها كلها صحيحة ، إلا القاف فان فريقاً منهم يجعلها بين القاف الخالصة والكاف ، وكثير منهم يجعلها بين الهمزة والقاف ، ومنهم من يجعلها همزة في قليل من الكلمات ، وأسباب هذا أن المعريين خالطوا الأتراك كثيراً ، فاقتبسوا من لهجتهم ولغتهم ، وارتضخوا لُكْنَة تركية . وكثر اختلاطهم بالخليين بالسفر والتجارة والمصاهرة ، وقد كانت جمهرة الموظفين في أعمال الحكومة من الترك والخليين ، فأحبوا أن يتحدثوا على مثلهم في محاوراتهم ، وظهر ذلك جلياً في بعض الحروف وفي إمالتها ، وفريق منهم خالط الدمشقيين فتأثر لسانه بتحريف بعض الحروف ، وأهل المعرة مولعون بحب الغريب في كل شيء ، وإيثاره على ما لديهم ،

وهذه السجية سهلت عليهم هجر الفصح من لغتهم ، واستبداله
بالغريب الفاسد ، وتأصل الغريب في نفوسهم أكثر من غيره .
ويمكن أن يبين باختصار ما طرأ على اللغة من الدخيل
والتحريف والتبديل واللهجات التي اقتبسها المعريون المتأخرون
من غيرهم بما يأتي :

١ — ان المعريين خالطوا العُثمانيين التُرك ، أكثر من أربعة
قرون ، ففسرب إلى لغتهم كثير من اللغة التركية ، لأنها لغة
الحاكم ، ولغة القوي الغالب ، ولغة الغريب ، وقد جلت الترك
عن المعرة ، ولكن لا يزال بعض الكلمات التركية متفشياً في
لغة المعرة وضاحتها إلى هذا اليوم .

مثل لا تقارش فلاناً أي لا تخالطه ، وما له حياره ، أي
حيله ، وتركته أجيق أي مفتوحاً ، وقيدته في خاتته أي مسكنه
وذهب إليه دوغري أي تواء ، وامشي دوغري أي مستقيماً ،
وأكلت عرمودا أي كمثرى : انجاص ، وعمل يجابش معه أي
بأدله الوظيفة ، وفلان برتبة ظابط أي ضابط ، وكره كون :
قره قول : أي مخفر ، وفناق أي مئوى ومضيف ، وجندي

زاده أي ابن الجندي ، وباشكاتب أي رئيس الكتاب ، وخوجه
أي شيخ ، وقباداي أي شجاع .

ويدخلون لفظ جي في آخر الكلمات ، للدلالة على النسبة
مثل توتنجي ، قهوه جي ، مهلبجي ، شراباتجي ، شربجي ،
عرض حالجي .

٢ - ان المعريين اقتبسوا من الحليين إمالة بعض الكلمات
مثل باب الجنين أي الجنان ، وطردت الذين أي الذبان ،
وأذن العشى أي العشاء .

واقتبسوا نحت بعض الكلمات وادخال بعضها في بعض ،
مثل ايش فَنَسَطُوا أي أي شيء في وسطه ، ومثل إَكُوهُ خَيُّو
أي اليكه يا أخي ، وليك فلاناً وليكواي اليك فلانا واليكه .
واقتبس فريق قليل منهم من الدمشقيين ابدال الشين سيناً ،
والجيم زايأ ، والقاف همزة .

والسبب في ذلك كله أن فريقاً من أعيان المدينة وأغنيائها ،
كانوا يختلفون إلى حلب وحماة ودمشق ، وكانوا يتظرفون بالتشبه
بأهل تلك البلاد ، وتقليدهم في أقوالهم وأفعالهم ، وزاد الأمر

ضغناً على إِبالة ، أن فريقاً كبيراً من أهل المعرة تزوجوا من نساء حلب وحماة ودمشق ، فتنبشت لهجات هذه البلاد في المعرة ، بواسطة هؤلاء الزوجات ، وارتضخت أولادهن لُكُنة بلادهن ، وقلد هؤلاء المتطرفين فريق عظيم ، فأصبحت أهل المدينة كأوتار العود ، لكل واحد منهم نغمة ، وكنت تسمع ابن الشامية يقول : ياي شوف الشمس ، واشتر لنا من هذا الزوز ، وابن الحموية يقول : إي ياخيوا أزواح ، وابن الحلبية يقول : إيش قَسْطو ، وابن المعرية يقول : يا بوليك أخوي تشطح أي تشطح .

وهكذا أضاعت هذه المدينة لهجتها الأصلية ، وقد كانت أقرب اللهجات إلى العربية الفصحى ، كما كانت مخارج الحروف فيها أقرب إلى الصواب من غيرها ، وأكثر هذا التحول حدث في أيامنا ، لأن الاختلاط بسبب المتاجرة والمصاهرة كان فيها أكثر مما قبلها .

٣ — زاد المعريون على غيرهم ابدال السين شيناً ، في مثل قولهم شطحه فتشطح أي سطحه فتسطح ، ولبس الشروال أي السروال .

٤ — استعملوا كلمات لا تعرفها العرب ، ولا تجيزها قواعد اللغة وأصولها ، مثل قولهم عَجَقَهَا إذا زاد فيها وأكثر ، والمكان معجوق إذا كان فيه اناس كثيرون ، والأشياء معجوقة إذا كانت غير مرتبة .

ولم أر من ذكر هذه المادة : عَجَقَ : ولا ما اشتق منها ، وقد قال في (شفاء الغليل) ^(١) لا يجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية غير اسم جقوت . وقال في (التاج) ^(٢) القاف والجيم لا يجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب ومثله في (اللسان) في مادة : قَيْح ^(٣) .

ومثل قولهم : فلان خَرَطِيل ، يريدون أنه أبله غبي ضعيف العقل أهوج .

٥ — وقد أكثروا من تحويل الألفاظ إلى وزن فَعُول في اعلام المذكر والمؤنث ، فقالوا في قاسم : قسوم ، وفي هاشم هشوم ، وفي محمد حمود ، وفي بركة : برُوك ، وفي فاطمة وخديجة وعائشة وأسماء فَطُوم وخَدُوج وعَيُوش وأشوم .

(١) الخفاجي : شفاء الغليل ١٨٣ (ج) .

(٢) الزبيدي : تاج العروس ٢ : ٩٠ (ج) .

(٣) ابن منظور : لسان العرب ٢ : ٥٦٨ .

وشاركوا بقية البلدان الشامية في تقديم بعض الحروف على بعض في الكلمة الواحدة ، حتى تخرج الكلمة من الصحيح الفصح إلى العامي ، كقولهم : هذا جوز فلانة ، وقد جوز ابنه ، والأصل زوج فلانة وزوج ابنه .

وشاركوهم في ابدال الذال المعجمة بالذال المهملة في مثل أذن وأذان وذكر ، فيقولون : أذن ، وسمعت الأذان ، وذكر يوم الجمعة ، وكذلك يبدلون في كلمة أذن التي يسمع بها ، فيقولون : سمعت بأذني ، وملأ أذاننا ، ويجمعونها على دانات ، فيقال : داناته كبيرة ، كما يقال : آدان .

وشاركوهم في ابدال الثاء المثناة بالثاء المثناة ، في مثل ثوم وكراث فيقولون : توم وكرات .

وشاركوهم في مساواة النطق في الثاء والسين والزاي والذال والطاء والضاد ، فيقولون : رجل خيس وحسه على العمل سم ضربه ، والصواب خيث ، وحته ، وثم ضربه .

وكذلك يقول : أذكر الله وذكرني بالأمر غداً ، وفلان زخر لنا ، والأصل اذكر الله وذكرني وهو زخر .

ويقولون اركبه على ضهره وقلم ضفره ، والصواب اركبه على ظهره وقلم ظفره .

وشاركوهم أيضاً في ابدال الفاء تاء مثناة ، مثل : فم فيقولون : تم .

وفي ادخال الباء على الأفعال ، مثل : باكل ، بقوم ، ييجي ، بنام ، بتبرد ، والأصل : آكل ، واقوم ، ويحي ، وينام ، وتبرد . وفي ادخال لفظ بدي على الأفعال ، مثل : بدي آكل ، بدي أشرب ، بدو يسافر ، بدو يكتب .

وقد ذكرنا في كتابنا (الأمثال في بلاد الشام) : أن أصل بدي ربما كان بودي ، تقول بودي أن أذهب ، فحذف العامة الواو ، وابدلت كسرة الباء فتحة ، ثم توسعت العامة بهذه الكلمة ، فاستعملتها في الأفعال والأسماء ، فقالوا : بدي أكتب ، وبدي أسافر ، وبدي الكتاب ، وبدي الأمانة ، وكلها بمعنى أتمنى وأريد ، وإذا دخلت الباء وحدها ، أو لفظ بدي على الفعل حذف حرف المضارعة منه في أكثر الأحيان ، فيقولون : كل يوم بنام ساعتين أي أنام ، أو بدي نام الآن .

وشاركوهم أيضاً في ادخال لفظ عمّال على الفعل المضارع لتخصيصه بالدلالة على الحال ، فيقولون : عمال بصلي ، وعمال يصلي ، وعمال يكتب ، والأصل : أصلي ، ويصلي ، ويكتب ، وقد يحذفون اللام من عمال ، فيقولون : عما يقرأ ، عما يتوضأ .
و في جعل آل للنسب بدلاً من ياء النسب ، فيقولون : محمد الخالد ، مصطفى الأحمد ، خالد الدرويش ، ويريدون بالأول المنسوب إلى خالد ، وبالثاني المنسوب إلى أحمد ، ومثله على السيد يوسف ، وعثمان البم ، و خليل الخشان ، يريدون بذلك المنسوب إلى أسرة السيد يوسف ، وأسرة البم والخشان ، وهكذا .

ومع كل ما تقدم فإن المستقري لكلام المعريين ، يحد فيه كثيراً من الكلمات التي يتكلمون بها على وجهها الصحيح ، وفي معناها الحقيقي ، مثل : كلمة مشمش ، فانهم يلفظونها بكسر الميمين ، مع أن جمهرة بلاد الشام يضمنونها ، ومثل : كلمة ضنّى بمعنى كثرة الأولاد ، يقال : ضنّت المرأة ضنّى وضناء إذا كثرت ولدها ، قال الجوهري^(١) يهمز ولا يهمز .

(١) الجوهري : الصحاح ٢ : ٥٠٨ .

وفي كلامهم ألفاظ محرقة تحريفاً قريباً ، مثل : كلمة دَرْدَك
فيقال : في دار فلان دردك ، أي أطفال صغار ، وأصل هذه
الكلمة دَرْدَق بالقاف ، والدردق في اللغة الصبيان الصغار ،
والصغير من كل شيء ، وأصله الصغار من الغنم ، ومثل كلمة
كَرْسَعَنَة لنبات معروف وأصله قَرَصَعَنَة ^(١) على المشهور ، وألفاظ
استعملت مطلقة ، وهي في اللغة مقيدة كلفظ التَّحِيّ ، فانه
فاقد أمه من الانسان والابل . وبعض المعربين يطلقونه على
الصغير وإن لم يفقد أمه .

الحياة الدينية :

وأما الحياة الدينية فيها ، فان جمهرة أهلها مسلمون ، على
مذهب أهل السنة ، وقد كان فيها طائفة قليلة من النصارى ،
يعدون على الأصابع ، منهم : فريق يشتغل في الصياغة ،
وآخر في الصباغة ، وكان أهل المعرة يحسنون معاملتهم ،
ويعطفون عليهم لضعفهم وقلتهم ، وولي رجل منهم عملاً في
دائرة المالية في القضاء ، وما رأيت ولا سمعت أن أحداً من
أهل المعرة أو غيرهم ، تعدى على واحد قط في الماضي والحاضر ،

(١) وفي معجم الألفاظ الزراعية لمصطفى الشهابي ص ٢٥٦ و ٤٨٢ : قَرَصَعَنَة .

بل كان النصارى في دعة وراحة أكثر من المسلمين ، وليس لهم كنيسة ولا دير ، وانما كانوا يجتمعون إلى بعضهم ، وكانت نساؤهم يحتجن كالمسلات ، وكان الرجال والنساء يختلطون بأمثالهم من المسلمين ، ويجتمعون بهم في محافل الفرح والحزن ، ويعاملهم المسلمون بأحسن مما يعامل به بعضهم بعضاً .

وليس في المعرفة من غير المسلمين غير النصارى .

وكان أهل المعرفة وضاحتها على مذهب الإمام الشافعي ، وانما كانت الفتيا على مذهب الإمام أبي حنيفة ، لأن الحكومة التركية أوجبت ذلك في جميع البلدان الخاضعة لسلطانها من عربية وغيرها ، حتى أن المفتين فيها كانوا شافعيين ، وهم من أسرتنا إلى اليوم ، وقد كان كل من جدي وأخيه وأبيه مفتين على مذهب الحنفية ، وهم شافعيون ، وكان أكثر القضايا والخصومات التي تقع بين الناس ، يفصلها الشيوخ والعلماء على مذهب الشافعي ، يقص كل من المتخاصمين أمره على الشيخ بحضور خصمه ، فيفصل بينها صلحاً ، أو حكماً ، ويسمع البينة ، ويحلف اليمين ، إلا إذا طلب أحد الخصمين الاستفتاء

بصورة رسمية ، فإن الحكم فيها يكون على مذهب أبي حنيفة .
وكان الصالحون من الناس يقنعون بالحكم الشرعي ،
ويحجمون عن الرجوع إلى المحاكم الشرعية والنظامية ، لأنهم
يعتقدون أن ليس للحق فيها نصيب ، وهم على صواب في
اعتقادهم هذا ، لأن المحاكم كانت خاضعة للمؤثرات ، فإن
الحاكم أو العضو كان يجعل الباطل حقاً والحق باطلاً ،
تبعاً لمنفعته الشخصية ، من مال يجره ، أو رئيس يرضيه ويسره
أو عدو يكيده ، وقد يكون التأثير من رجل عظيم في الدولة
فلما نبي أعلم رجلاً من خاصة أبي الهدي الصيادي قتل رجلاً
آخر على مشهد من الناس ، وجاء جمع غفير فشهدوا لدى
الحاكم بأن فلاناً أطلق رصاصة من مسدسه على فلان ، عامداً
طائفاً ، فأرداه قتيلاً ، واستوفت شهادتهم جميع الشروط التي
تؤهلها للقبول ، وكانت المحكمة تحاول أن تجد فيها ما يوجب
إبطالها ، إلا عضواً واحداً ، فلما أعياهم ذلك كلفوا العضو
المستنطق أن يوافقهم على ما يريدون ، فأبى ، فوردت برقية
من أبي الهدي يلمح فيها إلى مساعدة القاتل ، فأبى ، فوردت
(١٢) ٥

برقية من المرجع المختص بنقل الدعوى إلى حلب ، فنقلت ،
ثم قررت براءة القاتل ، وخرج يسرح ويمرح ، وبعد حين
أخرج هذا العضو من المحكمة ، وهو من أبناء عمنا .

وليس هذا مما انفردت به المعرة ، بل كان ذلك شأن
أكثر الحكام والمحاكم في ذلك العهد ، وربما امتازت المعرة من
غيرها بتولية القضاة والحكام العاميين أو الأُميين ، فقد أدركنا
فريقاً منهم لا يحسن أن يكتب غير اسمه ، ولا يستطيع أن
يقراً سطرأً صحيحاً ، وذلك لأن الوظائف كانت تباع ببيع
السلع ، أو تعطى ارضاءً لفلان لأنه من بطانة فلان ، وظل
ذلك حتى أعلن الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ هـ فقل ذلك مؤقتاً ،
ولم ينقطع بتأناً .

وليس في المعرة فرق من المسلمين غير السنيين ، وانما كانوا
يكرهون غير السني ، وأكثر أهل المدينة محافظ على إقامة
الشعائر الدينية ، من صوم وصلاة وغيرهما ، وأما الزكاة فقلما
وجبت على واحد إلا قليلاً ، لأن معظمهم فقراء يرتزقون كل
يوم كالطيور ، ولهم عادات ومعتقدات سيأتي بيانها .

الطرق :

وفي المعرة طرق متعددة كالفادرية ^(١) ، والرفاعية ^(٢) ،
والنقشبندية ^(٣) ، والشاذلية ^(٤) ، ولكل طريقة آداب ونظم

(١) نسبة لعبد القادر بن موسى الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي ، وهو من كبار المتصوفين ، وقد ولد في جيلان وراء طبرستان سنة ٤٧١ هـ ، وانتقل إلى بغداد شاباً ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف ، وبرع في أساليب الوعظ ، وثقفه وسمع الحديث ، وقرأ الأدب وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد ، وتوفي بها سنة ٥٦١ هـ (ملخصة عن الأعلام للزركلي ٤ : ١٧١ ، ١٧٢) .

(٢) نسبة لأحمد بن علي الرفاعي المولود سنة ٥١٢ هـ وقد ثقفه وتأدب في واسط بالعراق ، وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير ، وتوفي بأمر عبدة بالبطائح بين واسط والبصرة (ملخصة عن الأعلام للزركلي ١ : ١٦٩ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢ : ٢٥) .

(٣) في كتاب المواهب السرمدية في مناقب النقشبندية لمحمد أمين الكردي الاربلي ص ٩ : نقشبندية أي منسوبة إلى نقش بند ومعناه ربط النقش والنقش هو صورة الطابع إذا طبع به على شمع ونحوه وربطه بقاؤه من غير محو أي لأن الشيخ محمداً بهاء الدين النقشبندي كان يذكر الله بالقلب إلى أن انتقش وظهر لفظ الجلالة إلى ظاهر قلبه فلذا سميت نقشبندية .

(٤) نسبة لأبي الحسن علي بن عبد الله الشاذلي ، وهو الصوفي والفقيه والناظم ، فقد ولد سنة ٥٩١ هـ ، وتوفي بصعراء عيذاب سنة ٦٥٦ هـ (ملخصة عن معجم المؤلفين لكحالة ٢ : ١٣٧) .

وشيوخ وأحوال خاصة ، وأكثر الطرق انتشاراً في العهد الذي هاجرت فيه - ١٣١٩ هـ - من المعرة الطريقة الرفاعية ، والشاذلية .

أما الطريقة الرفاعية فلأن أبا الهدي الصيادي سعى لدى الحكومة العثمانية ، فاستثنت المنسويين إلى الشيخ الرفاعي من الخدمة العسكرية ، وفتحت تكايا وزوايا للرفاعيين ، ووظفت أموالاً تنفق على القائمين بها ، وكان أخو أبي الهدي يزور المعرة حيناً بعد آخر ، فيقيم الأذكار على طريقة الرفاعية ، وكان رجال هذه الطريقة يزورونه في المعرة ، ويحتمعون به ويشاركون في إقامة الأذكار حباً بالمنفعة ، فكثر انتشار هذه الطريقة . ولما مات أبو الهدي انقطعت الأذكار ، إلا التي كان أصحابها يقيمونها قبل ظهور أبي الهدي .

كيفية الذكر عند هؤلاء الرفاعيين :

للمذكر طريقتان : إحداهما رسمية ، والثانية عادية .
أما الأولى فهي تكون في الغالب من قبل أهل الميت بعد موته بأيام معدودة ، يكلف الرجل شيوخ هذه الطريقة بعمل

ذكر يكون ثوابه لوالده أو غيره ، فيعين له الوقت في الجامع الكبير ، والغالب أن يكون بعد العصر ، فإذا انتهى إمام المسجد من صلاة العصر ، جلس شيوخ هذه الطريقة وخلفاؤهم ومريدوهم ، على شكل حلقة كبيرة في الجهة التي تكون غربي المنبر وجلس معهم الناس ، فأخذ أهل الطريقة يضربون بالزاهر والصفافتين ، حتى تبلغ أصواتها عنان السماء ، ويسمعا الداني والقاصي ، ثم يمسكون عن الضرب بها . ويضعون مسبحة ، أي سبحة حباتها كبيرة ، كل واحدة بقدر الجوزة الكبيرة ، فيديرونها في الحلقة ثم يبدأ أكبر الشيوخ بقوله : فاعلم أنه لا إله إلا الله بصوت ضخم ، وترتيل شديد بحيث تمتد أكثر من دقيقة ، ويبرز رأسه وجسمه إلى الأمام ، ثم إلى الوراء حتى تنتهي الجملة .

فينطق الحاضرون كلهم بصوت واحد ، يشبه صوت الشيخ في جهره وترتيله ، ويميلون إلى الأمام والوراء .

ثم ينشد المشدون أحياناً في مدح النبي (ص) على نمط الذكر ونغمته ، ويتحركون كما يتحرك الذاكرون ، وبعد أن

ينشدوا بضعة أيام ، يسرع الشيخ في لفظ الذكر قليلاً ، ويتابعه
الذاكرون والمنشدون ، ثم يسرع أيضاً ، ويجعل حركة رأسه
نحو اليمين والشمال ، ويتابعه الذاكرون في جميع أقواله وأفعاله ،
ثم ينشد رئيس المنشدين أحياناً ، ثم ينهض الشيخ والحاضرون
كلهم ، فيذكرون الله على أشكال شتى وبألفاظ شتى ، فيقولون :
لا إله إلا الله تارة على الشكل المعروف ، وتارة يضمون
الكلمات فيقولون لَوْ أَلُوهُ إِنْوَاللَّوْه ، وتارة يقولون : لا يلاه إلا الله ،
وتارة هُمْ هُمْ إِيَّا اللّوْه وتارة يَا اللّوْه ، وتارة أُمْ ، ويكررونها
 ويفصلون بينها بما يشبه النحنحة ، وتارة همهمهم يا اللّوْه ،
وهكذا يأتون بألفاظ مختلفة .

والشيخ هو الذي ينقلهم من فصل إلى فصل ، ومن نغمة
إلى نغمة ، فيبدأ ذلك ، ثم يتابعونه ، ويشير إليهم بيده أو يديه ،
أو يضرب باحدهما على الأخرى لينتبهوا عند الانتقال من فصل
إلى آخر ، أو من حالة إلى ما هو أسرع منها ، أو أخف ،
أو للمحافظة على النغم والوحدة .

والمنشدون يستحثونهم بالمشيد ، كما يستحث الحادي الإبل

بالِحداء ، فاذا انتهوا قرأوا دعاءاً موروثاً لهم ، أوله : نسأل
المولى علينا يتوب ترضي مشايخنا ، وتصفى القلوب .. وهذا
الدعاء يدعونه كلهم بصوت واحد عال ، ثم يدعو لهم الشيخ ،
وينفضّ الجمع .

وقد ينبغ بعض الذاكرين ، فيتقن الالفاظ ، والافعال ،
والحركات ، والسكنات ، ويحسن التحول والانتقال ، على وفق
النظم والاداب المتبعة عندهم ، ومن كان كذلك يسمى ذكّيراً .
وهذا الذكّير يظهر مهارته وبراعته في اثناء الذكر ، فيخالف
القوم في تحركهم من اليمين إلى الشمال ، أو من الامام إلى
الوراء ، ثم يعود بسرعة ، وإذا كانوا يميلون من الامام إلى
الوراء ، مال من اليمين إلى الشمال ، واطهر كأن يخالفهم ،
ثم عاد بسرعة إلى موافقتهم ؛ وقد يبطئ إذا أسرعوا ، ويسرع إذا
أبطؤا ، ويأتي بمثل هذه الاعمال للدلالة على قدرته ، ويدقق
أحوال الذاكرين والمشدّين ، فيحسبون له حساباً .

وإذا أخذ الشيخ مالا على الذكر ، أعطى منه جماعته ،
وأجزل حصة الذكّيرين ، وشيخ الطريق يقرب الذكّيرين

ويباهي بهم ، ويكرمهم ويخاف سخطهم ، فهم عنده بمثابة الأبطال
عند قائد الجيش !

ولذا أمعن الإنسان النظر في الأذكار ، وما يقع فيها من
تحريف اسم الله ، ومناداته بصور فظيعة ، وما يحدثه الذاكرون
من الأوضاع والحركات الشاذة بين يدي الله ، انكرها أشد
الانكار ، لأن الله جليس الذاكرين ، والأدب يقضي عليهم
بأن يكونوا في مجالسته على غاية من الهدوء والسكينة والأدب
مع أن هؤلاء ينادون الله بصيغ وصور ملحة متتابعة محرقة ،
ولو نادوا بمثلها عبداً من عبيد الله ، وتصرفوا باسمه كما
تصرفوا باسم الله ، للطمع في وجوههم وصفعهم في أقفيتهم ،
وسياتي لهذا الكلام ما يتممه .

وأما الشاذلية ففريقان : أحدهما ينتسب إلى الشيخ علي
الدين في ترشيحها ، وهذا الفريق لم يكتب له التوفيق في المعرة ،
لأنهم أنكروا عليه شيئاً من أعماله المنكرة ، ونسبوا إليه أفعالاً
مخزية ، ثم طاردوه في المعرة ، حتى نضب معينه ، وفقد
من يعينه .

والفريق الثاني ينسب الى أبي الحسن الشاذلي ^(١) ، وهؤلاء يجتمعون في كل صباح ، بعد صلاة الصبح في المسجد ، ويقرؤون ورد الشاذلية ، ثم يذكرون الله قعوداً ، ثم قياماً ويحرفون لفظة الجلالة ، فيجعلونه آ ، وتارة بين آ وأو ، وهكذا وينشد هم بعض الناكرين شيئاً من كلام القوم ، أو الغزل الذي يريدون به الله أو رسوله .

والناس يألفون هذا الفريق ، ولا يجدون ما ينكرونه عليهم ، لأنهم كلهم كهول أو شيوخ ، ولا يجتمعون في خلوات خاصة .

الحياة الاجتماعية :

وأما الحياة الاجتماعية فيها ، فهي جامعة بين الحياتين الحضرية والبدوية وفي أخلاق أهلها وعاداتهم شبه بأخلاق البدو والحضر ، نشأ من شدة اختلاطهم بهم ، فهم أصحاب نجدة وشجاعة وإباء وأنفة ، وكثيراً ما ثاروا في وجه الحكام ، أنفة من احتمال صغار أو إقامة على ضيم ، وقد كان أهل العصر الماضي والذي قبله اشد أنفة وشجاعة من أهل هذا العصر .

(١) نسبة إلى شاذلة قرية من افريقية .

الحاضر ، فإنهم كانوا يصدون غارة البدو بأنفسهم ، ويذودون عن حياضهم بسلاحهم ، ولشد ما ثاروا على الحكم وقهروهم . وقد حدثني بعض شيوخهم أن الحكومة التركية كانت أرسلت مأموراً لسحب القُرعة العسكرية ، اسمه حكيمي باشا فضاق به أهل البلد ذُرْعاً ، فثاروا عليه ، وحصلوه في دار الحكومة وهموا بقتله ، لولا أن حماه مفتيها وبعض أعيانها ، ثم جاءت قوة من الجند من حلب فأنقذته ، وقد أسلفنا ما لأهلها من المواقف في حرب الصليبيين وغيرهم ، مما يدل على شجاعتهم ، ولا تزال هذه السجية في أكثر أهلها .

وهم أسخياء وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل على جود أهلها ، منها : ما ذكره المؤرخون ، وهو أن أبا تمام^(١) كتب

(١) هو حبيب بن أوس الطائي الشاعر الأديب ، وقد ولد بجامم من قرى حوران بسورية سنة ١٨٨ هـ ورحل إلى مصر ، واستقدمه المعتصم إلى بغداد ، ثم ولي بريد الموصل ، وتوفي بها سنة ٢٣١ هـ (ملخصة عن الأعلام للزركلي ٢ : ١٧٠ ، ١٧١ ومعجم المؤلفين لكحالة ٣ : ١٨٣ ، ١٨٤) .

إليهم كتاباً أوصاهم فيه بالبحث^(١) ، فوظفوا له أربعة آلاف درهم في كل سنة ، وسيأتي في تراجم الرجال ما يدل على سخاء المتقدمين من أهلها .

أما في عصرنا الحاضر فقلما تجد فيهم بخيلاً ، على رقة حالهم ، وقلة ذات يدهم ، وإن احدهم ليؤثر ضيفه على نفسه وأولاده ، وربما باع ما يملكه من اثاث ورياش ، وقدمه لضيفه أو لعافيه ، وهو طيب النفس ، مسرور مغتبط بذلك ، وأهل المدينة والضاحية في ذلك سواء ، ولا تجد إلى يومنا هذا في المعرة خانا ، أو فندقاً للمسافرين^(٢) ، إلا خاناً وقفاً للقوافل لأن بيوت أعيانها وغيرهم مفتحة الأبواب لكل ضيف أو زائر أو ماراً بالمدينة ، وربما تصدى بعضهم للمارة ليكونوا ضيوفاً عنده ، ولا ينزل في خان أحد يعرف أحداً

(١) هو الوليد بن عبيد البحرى الشاعر الأديب ، وقد ولد بمنبج من أعمال حلب سنة ٢٠٦ هـ ، ونشأ بها وخرج منها إلى العراق ، وأقام ببغداد ثم عاد إلى منبج وتوفي بها سنة ٢٨٤ هـ . (ملخصة عن معجم المؤلفين لكعالة ١٣ : ١٧٠ - ١٧٢)

(٢) قد رأيت أثناء زيارتي للمعرة في كانون الثاني سنة ١٩٦٣ م فندقين متواضعين ربما أسسا بعد وفاة المؤلف .

من أهلها ، وربما نزل بهم من لا يعرفهم ، فلقني من الحفاوة
وكرم الوفاة ما يبهره .

وهم أصحاب غيظ وحقد وحب للانتقام وحسد على كل نعمة .
ولقد عرفت كثيراً من الناس كان يضيق على أهله في الرزق لضيق
يده ، ويبذل الأموال الكثيرة ليضر عدوآ له ، وكان الآخر لا يآلو
جهداً في ذلك ، فكان هذا وذاك ، وأشياع كل منهما يسرفون
في البذل لحكومة المعرة وحلب والأستانة ، فيغني هؤلاء ويفقر
أولئك ، ويتفاقم الشر وتنمو الضغينة ، وتتوارث
العداوة والأحقاد ، وكل فريق يستفرغ المجهود في ضرر
الفريق الآخر من تخريب عامر ، وقطع شجر ، وقتل دواب
وانعام ، ورعي زرع ، ولو استطاع لأحرق خصمه ، أو أكله
حيأ ، والحكومة تمد كل واحد في غيه ، وتساعد على بغيه ،
حتى تقوض عمران المدينة ، وانطمست معالم حضارتها ، وأخصب
الجل فيها وأمرع وادي الشر ، وأصبحت بعد اتساع رقعتها ،
وكثرة سكانها ، وغزارة العلم والأدب فيها ، شبيهة بالقرية
الكبيرة الخربة ، قليلة السكان ، بعيدة عن العلم والحضارة ،

مسرّحاً لا يمثل فيه إلا الروايات المحزنة ، والفواجع المخزية :
وأهل المعرة أذكاء ذوو فطنة ونباهة ، ميالون الى البطالة
وترك الأعمال في الغالب ، فلم يجدوا ما يصرفون فيه ذكاهم
ونباهتهم وأوقاتهم إلا إيذاء بعضهم بعضاً ، وانتقاد كل منهم
صاحبه ، ولعل هذا الخلق فيهم كان قبل العهد التركي ، فان
صاحب قصيدة الفراسة^(١) يقول فيهم :

في شئز وأختها المعرة خلّاثق الجهل وطبع الشرّة
فشيزر جهل بلا مضرة والفهم والضرر لدى المعرة

وينخيل إلي أن من أعظم العوامل في استفحال هذا الداء
في المعرة هو البطالة ، لأن الناس فيها طبقتان : أشراف ،

(١) هذه القصيدة نشرت في الجزء الثالث من المجلد الثاني عشر من مجلة
المجمع العلمي العربي في الصفحة ١٧٢ (ج) وقال كامل الغزي ناشر هذه القصيدة :
هي أرجوزة تعد ٢٣٢ بيتاً تضمنت ذكر فضائل الأجناس وما خص كل
جلس من جميل الطبع وقبيح الخلق وأثر كل بلدة بأهله ... إلى أن قال :
لم أرها في غير مسودة كتاب كنوز الذهب في تاريخ حلب لابن العجمي
المتوفى سنة ٨٨٤ هـ

وهم الأعيان ، وغيرهم وهم التجار والعمال والزراع ، فالأعيان يعيش أحدهم بما ورثه عن سلفه من مال وعقار ، ولو كان قدر ما يسد به الرمق ، أو أدنى ، ويحتفظ لنفسه بمركز آباءه السابقين ، وما كان لهم من الأبهة والعظمة ، وإن بات جائعاً ، أو يعيش مما يسلبه من الناس إن كان عاملاً في الحكومة ، وهذا يضيف الى أبهة سلفه ما عنده من عجرة وفخفة وعُجْبة ، ويحمل الناس على أن يسجدوا له ، لأنه جمع بين الحسب التليد والطريف ، وليس لكلا الرجلين نصيب من العلم يثقف عقله ويبين له أن ليس في عمله الا ما يندي الجبين ، ويطأطأ الرأس ، ورجال الحكومة كما قلنا يمدون كلا في ضلالتة وجهله .

وأما طبقة العمال فمنهم التاجر ، والبقال ، والسمان ، والنجار ، والحداد ، والحذاء ، ومن شاكلهم ، والمدينة لقلة أهلها ، وكثرة فقرهم ، يكفيها عدد قليل من هذه الفئة ، ولكن الطمع وحب الكسب ليس لهما حد يقفان عنده ، ولذلك ترى في سيق المعرة عدداً كبيراً من التجار ، والجزارين ، والبقالين ، والفاكهيين ، وغيرهم .

والعادة التي أدر كناها فيها ، أن كل إنسان يؤم السوق في أول النهار ، فيبتاع ما يحتاج إليه ، وفي الضحوة الكبرى إلى المساء ، لا تجد غير الباعة الكثيرين يصرفون بقية يومهم في الأحاديث والتنادر والمجازرة ، حتى ضرب المثل العامي بكثرة البائعين وقلة المشترين ، فقليل فيه : سوقُ المعرة ألف يَبَّاع ولا شَرَّاء ، ومن العمال : الصناع ، وهم محصورون في الحاكة ، والصباغين ، والصوانين ، والحذائين ، واللبادين ، والنحاسين . أما الحاكة فكانوا في القديم يحوكون الخام ، ويتخذ منه الناس القمص والسراويل وثياب البدو وما شاكلها ، فغلبت عليهم البضاعات الأفرنجية ، فانصرف الناس عن حياكة الخام ، واقتصروا على حياكة العباآت المخططة ببياض وسواد أو غيره ، ويسمونها العباة المدففة ، وكانت جيدة متينة ، فاعرض الناس عنها ، واقتنوا من صنع العراق والعجم ، لأنها أحسن وأثمن ، فكادت تموت هذه الصنعة .

وأما الصباغون فهم يصبغون ملابس البدو والعمال باللون النيلي والأسود لا غير ، وهم كثيرون ، ولذلك كان أكثرهم

فقراء ، لأن المدينة يكفيها ثلاثة أو أربعة ، وفيها أكثر من ذلك ، وقد أخذ الناس يستغنون عن صبغ الثياب عند هؤلاء بالثياب الافرنجية المصبوغة ، ولا تلبث أن تموت هذه الصناعة .

وأما الصناعة فعملهم مقصور على لحم الحلي للأغنياء ، وصنع الخواتم للبادية ، وهم عاجزون عن صوغ حلي من أسورة وغيرها لقلة عملهم ، لأن معظم الناس يأخذون ما يريدون من حلب أو حماة ، وكذلك شأن النحاسين .

وأما الحذاءون فقد كانوا يصنعون الأحذية للحضر والبدو «وهي المعروفة بالصرماية والخف والجزمة» ، ثم انصرف الحضريون إلى اتخاذ أحذيتهم من حلب ، وكذلك أهل القرى والضاحية ثم انصرف الحضريون إلى لبس الحذاء المعروف بالقندرة وفروعها والسباط والبوط ونحوهما ، وأكثرهم يبتاعون أحذيتهم من حلب وحماة ، ولذلك نجد صناع هذا النوع قليلين في المعرة لأن عملهم في الغالب منحصر في الترقيع والاصلاح .

وأما صناعة اللبادين فقد أعرض أهل المدينة ، وأكثر

أهل القرى والبادية عن اقتناء اللباد ، واستعاضوا عنه بالسجاد
لرخص ثمنه وطول بقائه ، واللباد هو على شكل البساط يتخذ
من صوف منقوش ويلف ثم يوطأ بالارجل حتى يتلبد ويصير
كالسجاد إلا أنه لا خمل له ، وفي وسعنا أن نقول : ليس في
المعرة تجارة ولا صناعة يستطيع أهلها أن يعيشوا منها عيشة
راضية ، فضلاً عن أن يكونوا أغنياء منها .

وأما الزَّرَّاع فهم أصحاب البساتين وأصحاب الأرضين ،
والقسم الأول هو الذي يسقي زرعه من ركايا عميقة ، يختلف
عمقها ما بين عشرة أمتار إلى أكثر ، وأحياناً يكون أقل من
ذلك ، يجتمع فيها الماء مما يتحلب من أرضها وجدرانها ، وما
يسيل إليها من المطر ، يستخرجونه منها بواسطة دواليب تديرها
دواب ، وعلى الدولاب حبلان يتخذان من أعواد الشجر
الدقيقة ، قنبلها محكم ، ويصل بين الحبلين أعواد ، وعلى كل
عود إناء يغرف الماء من الركية ، يسمونه قادوسا وبين القادوسين
نحو خمسين سانتيمتراً ، ويسمون الحبال مع ما عليها صَفْدَةً ،
وهي مستديرة تغوص في الماء ، فاذا دار الدولاب دارت

الصمدة ، فخرجت القواديس الغائصة في الماء مملوءة ، ودخل في الماء بعض القواديس الفارغة فيمتلئ ، وهكذا فإذا وصل القادوس المملوء إلى قرب الدولاب ، ابتداء يصب ما فيه من الماء على صندوق من دف واسع ، فإذا وصل إلى أعلى الدولاب صب جميع ما فيه ، وسال الماء المصبوب من ثغرة في الصندوق إلى ساقية ، ثم يصب في بحيرة يجتمع فيها الماء ، ثم يسقي به صاحب البستان ما يشاء من زرعه ، وربما اتخذت الصمدة من حديد ، إلا أنها تكون ثقيلة على الدواب .

وأصحاب البساتين يزرعون أنواعاً مختلفة في الصيف والشتاء يسقونها من ماء الركايا المذكورة ، ويسقون الأشجار التي يغرسونها بين الزرع وعلى حافته ، وربما نضب الماء في السنوات التي يقل فيها المطر والثلج ، فيجف الزرع وتيس الأشجار ، وينقلب الزارع بعد آماله الواسعة إلى يأس موجه وفقير مدقع^(١) .

(١) وقع السيد الوليد طالب وزير الشؤون البلدية والقروية عقداً في ٢٣ نيسان سنة ١٩٦٣ م مع أحد المتعهدين ، لتقديم وتركيب التجهيزات الميكانيكية والكهربائية ، لمشروع مياه معرة النعمان ، وتبلغ كلفتها ٥٤٤٥٤ ليرة سورية والجدير بالذكر أن هذا المشروع قد كاف الوزارة حتى الآن بأعماله —

وأما أصحاب الأرضين فانهم يزرعونها حنطة وشعيراً وذرة
وعدساً وحبانا وما شاكل ذلك ، وكلها تسقى بماء السماء ،
فاذا أخلفهم الغيث حالفهم البؤس والشقاء .

وقد كانوا لا يعنون بزرع القطن والبقول والخضر الغذائية
ثم صاروا في العهد الأخير يزرعون جميع ذلك .

وقد دلت التجارب على أن تربة المعرة خصبة ، وأن مناخها
ملائم لكثير مما يغرس ويزرع ، فقد يوجد فيها شجر الزيتون
والجوز واللوز والمشمش والتفاح والتوت والفرصاد^(١)
والكمثرى والخوخ والكرز والفستق والتين والعنب والسماق
والرمان والزعرور^(٢) وغيرها .

وقد يكون من الجنس الواحد أنواع متعددة ، كالشمش

— وتجيزاته مبالغ ٣٦٢٦٥٣ ليرة سورية ، وهذا يكفي لارواء ٣٠ ألف مواطن
موزعين في أربعة قرى هي : معرة النعمان ، كفر نبل ، الحاس ، وكفر روما .
(عن جريدة الوحدة العربية بدمشق السنة ١ العدد ٥٠)

(١) جنس شجر من الفصيلة القراصية والقبيلة التوتية ، تزرع لثمرها
يأكله الإنسان أو لورقها يطعمه دود قزينة التوت (عن معجم الألفاظ
الزراعية للشهابي ص ٤٣٩) .

(٢) في معجم الألفاظ الزراعية ص ٦٩ ، شجر مثمر معروف من فصيلة الورديات .

والكمثرى والتين والعنب والفسق ، فان في هذه الأجناس أنواعاً ، منها ما هو غاية في الجودة ، ومنها ما هو متوسط . فالشمش يكون أنواعاً منه ما يسمى شكر باردة وهو أجودها ، ومنه ما يسمى اللوزي ، ومنه المرّي وغيره . والكمثرى ويسميه بعض العامة انجاصا ، وبعضهم عرموطا ، وهو محرف عن التركية ، كذلك يكون أنواعاً متفاوتة في الجودة والطيب .

والتفاح منه نوع يقال له : خشخاشي ، وهو حامض طيب الرائحة ، ومن الحلو أنواع متعددة .

وأما العنب فأنواعه كثيرة منه : الفوعي وهو أبيض مشرب بصفرة ، حبه مستطيل قليلاً ، وقشرته غليظة ، ويشد حلاوة إذا نضج ، وأهل المعرة يكثر من غرسه ، لأنه يحمل كثيراً ، ويتحمل الحر والبرد ، ويتخذون منه الزبيب والدبس من عنبه وزيبه ، ومنه البلدي أو الرومي وهو أبيض رقيق القشرة ، كروي الشكل ، حلو كثير الماء ، ويتخذ منه عنب ، ومن عنبه وزيبه دبس وهو أطيب من دبس الفوعي وزيبه .

والسباعي لونه أسود ، وجهه مدحرج كروي ، وقشرته غليظة ، وماؤه كثير ، وحصرمه شديد الحموضة ، ويحمل من ثلاث مرات إلى سبع .

القرميشاني لونه ضارب إلى الصفرة ، وجهه كروي ، كبير الحجم ، كثير الماء والحلاوة ، وقشره غليظ ، وهو صلب ، وقد يتخذ منه دبس .

الحفرزلي لونه أحمر ، ضارب إلى السواد ، وجهه مستطيل وقشره غليظ ، وعناقيده مستطيلة ، ويتخذ منه زبيب جيد ، ودبس جيد ، وقد قلّ في المعرة في الأيام الأخيرة .

والزيني ويقال له : اصبع زينب ، أو أصبغة زينب ، ولونه أصفر ، وجهه مستطيل رفيع ، وحلاوته غير شديدة ، والناس لا يتخذون منه زيباً ولا دبساً ، وبعض الناس يسميه الزيني .

الخلّي لونه أسود ، وجهه كروي ليس بالكبير ، وماؤه كثير ، ويتخذ منه الخل في الغالب ، وقد يتخذ منه دبس .

البطحاني أو الشامي لونه أبيض ، وجهه كروي الشكل ، كبير الحجم ، كثير الماء ، شديد الحلاوة ، وقد يتخذ منه زبيب ودبس ، وهو قليل في المعرة .

وأكثر ما يعنى أهل المعرة بالغنب الفوعي ، لأنه كثير الحمل والماء ، سريع النضج ، طويل البقاء يصلح للزيب ، ويتخذ الدبس من عنبه وزيبه .

ولهم طريقة في حفظ الغنب إلى زمن الشتاء ، وهي أن يقطع الغصن الذي فيه الغنب ، ويحفظ في مكان لا تراه فيه الشمس ، ويقل فيه الهواء ، وأحسن منها أن يؤخذ العنقود مع الغصن الذي يكون فيه ، ثم تحفر حفرة عميقة ، ويدلى فيها العنقود والغصن ، بحيث لا تمسه الأرض من جميع جهاته ، ثم تغطى الحفرة ، ويبقى العنقود متديلاً في الهواء ، متصلاً بالشجرة التي أخذ منها ، فيمتص منها ما يعيش به إلى فصل الشتاء ، فإذا أرادوا أكله كشفوا عنه الغطاء ، وأخرجوه غريضا طريا ، ويقال للنصن مع العنقود : داروخ ، ويقال : داروخ أيضاً للجفنة المستطيلة الشكل المنبسطة على الأرض الكثيرة الحمل .

وأما التين فأنواعه كثيرة في المعرة ، منه : السلطاني وهو كبير الحجم كالكرة المبسطة ، ولونه يضرب إلى الصفرة ، وهو شديد الحلاوة ، ويؤكل رطباً ويابساً .

الْمَعْتَق ثمره كبير الحجم على شكل الكمثرى (الانجاص)
ولونه ضارب إلى الصفرة ، وهو شديد الحلاوة ، ويؤكل
رطباً ويابساً .

الشُّوشاري لونه خمري ، فيه حمرة إلى السواد ، كبير الحجم ،
غليظ القشرة ، حلوه شديد ، ولا يتخذون منه يابساً ، وبعضهم
يسميه شنشاري .

الخَضْرَاوي لونه أخضر وهو كبير الحجم ، ويبقى إلى نهاية
الخريف ، وهو قسبان : كبير الحجم ويسمى كف العرب ،
وصغير بالنسبة إلى الاول ويسمى خضراوي ، ولا يتخذون
منه يابساً .

الحِيشاوي لونه خمري ، وطعمه حلو ، ويؤكل أخضر ويابساً
ولعله منسوب إلى قرية حيش من عمل المعرة .

هَارِي لونه الخارجي أصفر ، ولون داخله أحمر ، وفيه شيء
من الحوضه ، ولعله منسوب إلى الهارب ، والهارب في عرف
المعرة حديقة تسيل إليها مياه الحمام ، فتجتمع في بحيرة ، وتسقى
منها أشجار الهارب ، وقد كان في المعرة هازبان : أحدهما في

المحلة القبلية ، والثاني في المحلة الشهابية ، ثم اندرس هذا وجعل مكانه طريق يصل ما بين السوق والجامع ومقام السلطان أو ليس كما ذكرناه في موضع آخر .

الكرسعاوي لونه خمري ، وحجمه صغير ، وطعمه حلو ، وينضج قبل غيره ، ويؤكل رطباً ويابساً وأظن أنه منسوب إلى كرسعة قرية من عمل المعرة .

وفي المعرة من كل جنس أنواع غير ما ذكرنا ، ولكننا اكتفينا بالمشهور ، وفي ضاحتها كذلك أنواع متعددة .

شجرة الحمض :

دلت التجارب على أن أشجار الحوامض لا تعيش في المعرة كثيراً ، لأن وطأة الشتاء فيها شديدة ، وقد يكثر الصقيع فيهلكها ، ولذلك يقل فيها شجر الليمون والكباد والبردقان وما شابهها . وكذلك شجر النخيل والموز وغيرهما لا يعيش كثيراً . وتنبت أرضها الحنطة الجيدة والشعير الجيد الكبير الحجم ، وجميع القطناني التي يريدونها كالغندس والجلبان ، والذرة الصفراء والبيضاء والحمص .

وفي بساينها يزرع كل ما يزرع من السقوي كالخيار والقثاء

والْكُوسَا^(١) والقَرْع واللُّؤَبِيَاءَ والبَاذِنَجَانِ والبندورة^(٢) والبامية
والفَاصُولِيَاءَ والفَائِيْفَلَةَ الخَضِرَاءَ والحَمْرَاءَ والخَسَّ والفُجْلَ والبَصَلَ
والجَزَرَ واللَّفْتَ والشَوْتَنَدَرَ والسِّاقَ والكَرْنَبَ والكُرَّاثَ والبراصيا
والفُولَ والمَلْفُوفَ والقُنْبِيْطَ والحرشَفَ (انكي نار) ،
أرضي شوكي^(٣) .

ويزرع في أراضيها الآنسون والسِفْسِم والقُطْنَ والبِطِيخَ
الأحمر الجيد والأصفر ، وأجوده المسمى قاوون .

وكثير من هذه الاشياء يزرع عذياً ، فلا يسقى بغير ماء
السماء ، ويكون جيداً غصاً ، ومنه ما هو أطيب من المسقي بالماء .
وقد تقدم ما يدل على أن القطن كان يزرع في المرة منذ
سته قرون فأكثر ، وأنا أعرف جماعة في المرة كانوا يزرعونه
قبل هجري منها .

وأكثر الزُّرَّاع في الضواحي وجمهور الأغنياء من أهل المرة ،
يتخذ عمالاً لزراعته ، ومن يزرع بنفسه يشغل نفسه في زمن

(١) في معجم الألفاظ الزراعية للشهابي ص ١٩٢ : كُوسَى ، كُوسَة .

(٢) في معجم الألفاظ الزراعية ص ٦٤٥ : بَنَادُورَى .

(٣) في معجم الألفاظ الزراعية ص ١٢٤ : شَوْتَنَكِي .

الحرث والزرع والحصاد والتذرية ، ثم يبقى بلا عمل بقية أوقاته .
وما أسلفنا يتبين أن معظم الناس لا عمل لهم ، ومن له
عمل منهم ، لا يشغل عمله إلا وقتاً قليلاً من حياته ، فلا يجد
ما يصرف فيه بقية أوقاته ، إلا اجتماعه بأشباهه ، ومشاركته
إياهم في نقد زيد وسب عمرو ، والاعتراض على بكر والكيد
لهذا ، والانتقام من ذاك ، ثم ينمي الاجتماع هذه الشرور ،
ويهون على الانسان ضر غيره ، ويجرئه الانتقام والافتراء في
سبيل الانتقام ، فيزداد الحسد وتنفقم الضغينة ، ويستفحل
الحقد ، ويستطير شر الشر ، حتى يستعذب المرء ، ويستسهل
الصعب ، ويطمع كل في القضاء على غيره ، ويطمح إلى أن
يخلفه في مركزه ، فلا يدخر وسعاً في سبيل ذلك .

ولذلك أصبحت المدينة في أخريات المدن ، كما أصبح
أهلها في أخريات الناس من حيث العمران والحضارة والعلم
والتجارة والصناعة .

ومن العجيب أنك لا تحدث واحداً من أهلها إلا وجدته
ينكر على غيره مثل ذلك ، وهو يفعله ، ويقبح هذا العمل

ويقرّفه ، ويعترف لك بأن الفساد منتشر في المدينة وضاحيتها ،
ويتوجع من ذلك ويأسف ، ولكن مثلهم مثل الشعراء يقولون
مالا يفعلون ، وقديماً ما درج على السنة العامة والخاصة
منهم هذان البيتان وهما من شعر العامة الملحون المختل الوزن :

ان المعرة مضره فيها الفساد مؤبد

كيف اسكن المعرة وانا من أمة محمد

وأظن أن بعض العامة أخذه من قول شرف الدين ابن
البارزي ، حين ولي قضاء شيراز :

إنما شيراز نار وبها القاضي مخلد

قلت لا أمكث فيها أنا من حزب محمد^(١)

هذا مجمل الحالة التي كانت عليها المعرة وأهلها إلى سنة
١٣١٩ هـ ، وظلت عليها إلى أن جلت الأتراك عنها ، وقد أغفلنا
ذكر شيء مما يتعلق بعمرانها ، وأرجأنا شيئاً آخر إلى وصفها
في هذا العصر خشية التطويل والتكرار .

(١) ابن حجة الموصلي : خزانة الأدب وغاية الأرب ٢٨٠ (ج) .

طريقة العثمانيين في أخذ الخراج والضرائب :

سلك العثمانيون طرقاً مختلفة في طرح الضرائب والمكوس وجباية الأموال من الناس .

وقد ذكر المؤرخون أن اقطاع اية حلب وخراجها ، كان يبلغ مسانته ثمانمائة وسبعة عشر ألف آقجة ، وكل ثلاث آقجات بارة ، وكل أربعين بارة قرش ، وقد كان في هذه الايالة مائة وأربع زعامات ، وسبعائة وتسعة وتسعون اقطاعاً ، وحاميتها ألفا فارس وخمسمائة فارس .

ولما فتح محمد علي باشا المضري بلاد الشام ، كان يأخذ من الأجانب من رسوم المكوس والضرائب ، أقل مما يأخذه من أهل البلاد ؛ حتى اضطر بعض التجار إلى ابتياع حماية الأجانب ، ليستطيعوا أن يتجروا ، وكان فرض على كل رجل ساكن في المدينة ضريبة تسمى « الفردة » ، تختلف من خمسة عشر قرشاً إلى خمسمائة قرش ، بحسب حال الرجل ، ولما عاد الترك إلى البلاد وجدوا صعوبة في جبايتها فأبدلوها بضريبة على البيوت .

وفي سنة ١٢٧٢ هـ قسمت الدولة العثمانية بلاد الشام إلى
إيالتين: إيالة دِمَشق ، وإيالة صِنْدَاء ، ويدخل في الأولى دمشق ،
والمَرَج ، والغُوطَة ، ووادي العَجم ، ووادي بَرْدَى ، وجبل
قَلْمُون ، وحمّاة ، وحمص ، وبَغْلَبَك ، ومَعَرَة النُعمان ،
وعَجَلون ، والبِقاع ، وحاصبيا ، وراشيا ، وحوَوران ، وجبل
الدُّروز ، وحصن الأكراد ، والقُنَيْطَرَة ، وكان دخل هذه
الإيالة من الخراج والأعشار والبدل العسكري والرسوم المختلفة
« ٤١٨٠٥ » أكياس ، والكيس خمسمائة قرش ، يضاف إليها
« ٩٠٠ » كيس ، كانت تدفعها الخزينة إلى الأوقاف ، وهذا عدا
ما كان يؤخذ من حمّاة وحوَوران وحمص وجبل الدروز وحصن
الأكراد ومعرة النعمان وعجلون عينا من الأعشار والرسوم ،
وهو « ١٨٧٥٩ » إردباً من القمح ، و « ٢٥٨٨٤ » إردباً من
الشعير ، و « ٩٥١ » من الذُّرّة ، و « ١٣٣٩٣ » أوقَة من
السمن ، و « ٣٢٠ » أوقَة من الحرير ، و « ١٣٠٠ » رأس
من الغنم .

خصائص المعريين :

إذا استقرى الانسان تاريخ المعريين في القديم والحديث ،
تبين أنهم يتشابهون في بعض الخصائص ، ولعدم اطلاعنا على
تاريخ المتقدمين اطلاعاً كافياً ، لمعرفة حالهم حق المعرفة ، نجد
في المتأخرين خصائص لم نقف على مثلها في أخبار السابقين .
فمن الخصائص المشتركة في غالب الأزمان ، تكنية الولد
صغيراً ، فان المتقدمين كانوا يكونون أطفالهم بمثل أبي العلاء ،
وأبي المجد ، وأبي الندى ، وأبي الحسين ، وأبي الفتح ، وأبي
المكارم ، قبل أن يولد لهم أولاد ، وربما لا يكون لهم أولاد ،
وقد ظلت هذه السنة متبعة حيناً من الزمن ، ثم تهاون بها
الناس قليلاً في أخريات العهد التركي ، وفي الزمن الأخير منه
أساء فريق من الناس استعمالها ، فقد كانوا يكونون أشخاصاً
بكنى مستهجنة كأبي خُرج ، وأبي العُنب ، أو مستقبحة بذئثة
كأبي سُرم^(١) ، ولكنهم في هذا العهد رجع فريق منهم إلى
التكنية كما كان في العصور السابقة .

(١) أي طرف المعى المستقيم والدبر .

ومن الخصائص المشتركة أيضاً التلقيب ، فإنك تجد كثيراً في أسماء المتقدمين مثل : نجم الدين ، وقاج الدين ، وبدر الدين ، وشمس الدين ، وشرف الدين ، وزين الدين ، وكمال الدين . وقد كان هذا قليلاً في العصور الأولى ، كثيراً في العصور الوسطى ، وأول من عرفته من أهل المعرفة بمن لقب بمثل ذلك بهاء الدين ابراهيم بن شاکر أبي اليسر التوخي المولود سنة ٥٦٥ هـ ، وابنه تقي الدين اسماعيل بن ابراهيم المولود سنة ٥٨٩ هـ ، ونجم الدين بن أسعد بن حلوان المولود سنة ٥٩٣ هـ ، وأخوه موفق الدين المتوفى سنة ٦٤٢ هـ .

وأما العصور المتأخرة فقد درج أصحابها على طريقة الترك ، فيسمون الولد محمداً أو أحمد أو غيرهما ، ثم يلصقون به لقباً ، ليفرق بينه وبين من يشاركه في اسمه ، مثل : سليم وأمين وصالح ومدحة ، وكان العامة يسمون هذا اللقب مخلصاً ، وربما كان اللقب أعجمياً أو عربياً غير فصيح ، مثل : محمد نيازي ، أحمد عزمي ، جواد حقي .

ومن هذه الخصائص المشتركة تكرار الاسم في الأسرة

الواحدة ، وتسمية الحفيد باسم الجد ، كما ترى مثل ذلك في ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد ابن سليمان ، وفي مثل محمد سليم بن محمد تقي الدين بن محمد سليم ، ومنهم من يكرر الاسم في الاب والابن والحفيد كما ترى في ترجمة محمد بن محمد بن محمد . وقد رأيت في حجة شرعية من محكمة المعرة محمد بن محمد بن محمد الجندي ، والغالب أن يكون مثل هذا ، إذا كان الجد أو الاب أصاب خطأ ، أو منزلة سامية في الحياة ، فانهم يسمون باسمه ، تعظيماً لشأنه باعادة اسمه وتفاوتاً به ، ليكون الولد أو الحفيد كالأب أو الجد .

ومن خصائص المتأخرين ضعف العصية القومية والوطنية ومن آثار هذا الضعف أن الرجل منهم قد يبلغ منزلة عظيمة في العلم أو الادب ، أو الإمرة ، أو غيرها ، فيستهيئ به أقرباؤه ، وأبناء وطنه ، وكلما ارتفع شأنه ازدادوا استخفافاً به ، وتحقيراً لأمره ، وربما تآلبوا عليه واغروا به ، وكادوا له ، حتى يخمدوا جذوته ويخضدوا شوكته .

وإذا طرأ عليهم طارئ غريب التفوا حوله ، ورفعوا شأنه ،
وعظموا الصغير من أمره ، وخصوه باحسانهم ، وغمروه بمنحهم ،
وافترّوا له من المناقب والمكارم ما ليس فيه ، وقد يكون فيهم
من هو أكثر منه علماً وأشد ورعاً وأفضل في كل شيء ،
ولكنهم ينادونه ^(١) ، وينابذونه ^(٢) بالألقاب المستهجنة ، وكثيراً
ما كنت أسمع من شيوخ المعرة وأنا صغير إذا رأوا مثل هذا ،
تمثلهم بقول القائل: أزهّد الناس في الرجل أقرباؤه ، ويقول الشاعر:
لا عيبَ لي غيرَ أني من دياركم وزامرُ الحمي لم تطرب مزامرُه
على أن هذا الخلق عام في السوريين جميعاً ، ومن استقرى
أحوالهم وجد الوفاء والشواهد والأدلة على ذلك ، وقد رأيت في
دمشق غير واحد من رجال المغرب يأتي المدينة ، وهو أشعث
أغبر ، بالي الطمر ، حافي القدمين ، لا يملك من متاع الحياة
وعُدَد الارتزاق إلا بُرُتسا بالياً ، وسواك من أراك ، وسبحة
عظيمة الحب ، وصرة من بخور يضعها في عمامته ، ومكحلة

(١) أي يخالفونه ويفارقونه عن عداوة .

(٢) أي يعيرونه .

ومروداً ، فإذا دخل المدينة عمد إلى مسجد من مساجدها ،
فإذا أقيمت الصلاة صلى صلاة متواضع خاشع ، فإذا فرغ
من صلاته بقي مستقبلاً القبلة ، وجهر بأوراده وأذكاره لسمع
الناس ، ثم لوى عنقه على صدره وأغمض عينيه ، وسكن كأنه
خشبة مسندة ، لا ترى ولا تسمع منه إلا قرع سبخته
وتحريك شفته ، فإذا رآه رجل من البلد من أهل المدينة
أقبل عليه وجلس على ركبتيه وقبل يديه ، وتودد إليه كأنه
ولد فقده ثم وجدته ، أو كنز كان ينقب عنه ثم ظفر به ،
فينظر إليه نظر المعرض عنه ، ليفهم أنه لا يريد أن ينصرف
عن ورده قبل أن يتمه ، فلا يزال يثني عليه ويتلطف به
حتى يلتفت إليه ، فيدعوه إلى منزله ، فيأبى ، فلا يزال يلح
عليه ، حتى يصحبه إلى منزله ، فيدعو جماعة من إخوانه وأشباهه
ليشتركوا معه في التبرك به ، ثم يسرد طائفة من مناقبه كأنه
يعرفه منذ جدائته ، ويفتري له من المكارم والكرامات ، ويبالغ
في مدحه بقدر ما أوتي من حول وطول في الكذب والاختلاق ،
فيتزاحم الحاضرون على دعوته إلى منازلهم ، فيتعفف ويأبى ،

فلا يزالون به حتى يحبسهم واحداً بعد آخر على كره منه ،
وكل واحد منهم يدعو في نوبته طائفة من أصحابه ليعرفهم
بالشيخ ويعرفه بهم ، فيتبارون في دعوته ، فلا يمضي قليل من
الزمن حتى يكثر مريدوه وأشياعه وأتباعه ، وهو يقرأ عليهم
في كل مجتمع شيئاً من البردة ، أو المنفرجة ، أو الجملوتية ،
أو نحوها ، ويحدثهم بأحاديث الجن وكيف يستطيع أن يسخرهم
في أغراضه ، فيعطونه كرائم أموالهم ، ثم يهبونه من أفضل
منازلهم ، ثم يزوجهونه أكرم عقائلم ، فاذا عاش وارتاش قال :
لإنه من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب ، وإنه كان يخفي
ذلك تواضعاً ، فيزداد أولئك الأتباع تعظيماً له ويزيدون في
بره وإكرامه ، فاذا تمكن من قلوبهم أوحى إلى نفر منهم أن
يسعى له بوظيفة ، أما درس في مدرسة ، أو إمامة في مسجد ،
أو نحو ذلك ، فيعمل هذا هو وأصحابه ، ويستفرغون المجهود
حتى يبلغوه مأملة ، ثم لا يلبث حتى يحجى بقريب له أو صديق
فيسعى حتى يوظفه في منصب آخر بعد أن ينزع منه من
كان فيه من أهل البلد ، ثم لا يزال هذا دأبه حتى يقصي

كثيراً من أبناء البلدة عن مرافق حياتهم ، ويستبدل بهم جماعة من أبناء جلدته ، حتى يصبحوا أولي الحل والعقد في المدينة ، ويتخيروا أشرف الأنساب وأكرم الألقاب .

وقد يكون في أبناء أشياعهم من هو أفضل من هؤلاء الطُراء الذين لا يعرف من أمرهم شيء ، وقد يكون فيهم جواسيس للحكومات الأجنبية ولصوص وعيارون ودجالون .. ولا يعد أن يكون مثل هذا في المتقدمين ، غير أن التاريخ ضن علينا به ، أو أننا لم نوفق إلى العثور عليه .

ومن تصفح شعر أبي العلاء في نقد الأخلاق والحياة الاجتماعية في عصره ، تين له أن التاريخ يعيد نفسه ، وأن أهل هذه المدينة اليوم يشبهون أهلها في ذلك العصر في كثير من الخلال السيئة والأخلاق الفاسدة ، ومن أقبح هذه الخصال أمور :

الأول الحسد ، وقد بينا أسبابه وما نجم عنه ، وفي شعر أبي العلاء وغيره كثير من ذم الحسد والحساد ، بما يدل على أن هذه العلة كانت متفشية في عصره ومصره .

الثاني الخيبة، فإن الجمهور منهم يتفكه بنهش الأعراض، وانتقاص الناس، ويعد ذلك من طُرف الحديث، وريحان المجالس، وأمانة على الشجاعة والجرأة.

الثالث النميمة، تفشى هذا المرض في الأيام الأخيرة حتى أنك لا تكاد تحدث أحداً بشيء إلا نقله عنك لايقاع الشر والفتنة، فإن كان من المحسنين لم يتزيد في حديثه، وإن كان غير ذلك زاد بقدر ما يحتاج إليه لايقاد الفتنة.

الرابع الصلف والتعجرف، وأظهر موطن يتجلى فيه هذا، أصحاب النسب الكريم والحسب القديم، فالعباسيون مثلاً يريدون الناس على أن يعظموهم اليوم، وإن كانوا صغاليك أو جهلاء، كما كانوا يعظمون المنصور والرشيد والمأمون، والعلويون يحملون الناس على أن يكرمّوهم، كما كانوا يكرمّون علياً والحسن والحسين، وإن كانوا جهلاء، فقراء، أشقياء، ومن كان أبوه أو جده مؤسراً يفرض على الناس أن يبجلوه كما كانوا يبجلون أباه، وهكذا سبيل كل ذي حسب تليد إذا رأى أحداً انتفخ كالزق، وتنفش كأنه خرّب تنفج من حذار الأجدل.

أما ذوو الشرف الجديد والحسب الطريف ، فانهم يقسرون
الناس على أن يعبدوهم ، وان كانوا كالأصنام في الجود والجهل .
الخامس الاغراء والتحريش والقاء العداوة والبغضاء بين زيد
وعمره ، وهذا الخلق يلجأ إليه من كان موتوراً عاجزاً عن
الانتقام ، أو من حيل بينه وبين أطاعه ، فلا يجد وسيلة يشفي
بها غلته ، أو يروي غلته ، إلا تسليط هذا على ذاك ، وربما
أضرم فتنة التهمت الأخضر واليابس .

السادس حب الأثرة فان الرجل منهم يريد أن تموت
المدينة بأسرها ليحيا وحده ، ولذلك ترى أكثرهم في صراع
دائم وجدال مستمر ، يسعى كل واحد إلى إبادة خصمه ، فيسد
عليه مسالك الهواء ، ويشدد الخناق ، ولا يدخر وسعاً حتى
يظفر ، أو يقبر ، وقد تماليء الحكام أحد الفريقين ، حتى
يضعف الآخر ، وربما انقلبوا على الأول ، وانما يريدون اخلال
كل منها ، واستلاب ماله ، وتفريق رجاله ، فاذا تغلب أحدهما
لا يلبث أن يصطدم بآخر ، فيقع بينهما ما وقع بين الأولين
والرابع في كل حال رجال الحكومة ، لأن الظافر في كل

معركة لا يستطيع أن ينال من خصمه درهماً حتى يعطي الحكومة تسعة أعشاره .

السلام في المعرة بعد الحرب العامة الأولى :

في سنة ١٩١٤ ميلادية الموافق سنة ١٣٣٢ هـ أعلنت الدولة العثمانية الدخول في الحرب العامة ، وجردت الجند من البلاد الشامية وغيرها ، واستولت على أموال البلاد وغلاتها ، باسم الاعانة تارة ، والاعاشه تارة أخرى ، ونعم رجال الحكومة من عسكريين وملكيين وأشياهم وأتباعهم ، بيؤس أهل البلاد الذين ذهب شطر كبير منهم في ساحات الحرب ، وشطر آخر ضحية الجوع والحميات والأوبئة والأمراض الفتاكة ، ولم أقف على شيء يفصل حياة المعرة في ذلك العهد ، الا أنني أعلم أنها شاركت البلدان الشامية في كل ما قاسته من ابتزاز الأموال ، وقتل الرجال ، وذل العزيز ، وعزة الذليل ، ونحو ذلك من أنواع الشقاء ، وأن جماعة من طبقات مختلفة في المعرة لم يشبعوا من خبز الشعير مدة الحرب ، وانما كانوا يعيشون بما تثبت الأرض من بقل في الربيع ، ويدخرون شيئاً آخر منه لما بعد ذلك .

ويمكن أن تلخص الحالة في زمن الحرب بأن الحكومة كانت تتصرف بالرجال والعقارات والاموال تصرفاً مطلقاً ، وأنها كانت تمتن الاهلين وتسخرهم في مصالحها العامة كما يسخرهم رجال الحكومة في مصالحهم الخاصة . ولو كتب لها الظفر في هذه الحرب ، لادعى كل واحد من الاثراك ما ادعاه فرعون وقال للناس : أنا ربكم الاعلى .

وأن الترك من عمال الحكومة وغيرهم كانوا يتنعمون من شقاء الامة ، ويشبعون من جوعها ، وأن صنائعهم من العرب والمستعربين كانوا كالعلق ، يمتصون دماء الامة ليشبعوا شهواتهم منها .

وفي اليوم الثاني من المحرم سنة ١٣٣٧ هـ الموافق ايلول سنة ١٩١٨ م . دخل الجيش الانكليزي والعربي مدينة دمشق ، ثم سارت فصائل الجندين ، فدخلت المعرة ، ثم دخلت حلب في العشرين من المحرم ، وأصبحت منذ ذلك الحين تابعة للحكومة العربية في دمشق .

وفي ٢٥ تموز سنة ١٩٢٠ م دخلت الجيوش الفرنسية

بلاد الشام واستولت عليها ، لأنها كانت منتدبة عليها من قبل جمعية الأمم ، ودخلت دِمَشق ثم حلب ، وأصبحت سورية كلها خاضعة للنظم التي تسنها الدولة المنتدبة للبلدان عامة ، وظلت المعرة تابعة لحلب ، كما كانت ، وبقيت حكومتها على ما هي عليه ، وكان فيها مستشار فرنسي ، فكان يسيّر الحكومة على وفق هواه وإرادته ، ويسخر الناس في مقاصده ومنافعه ، فكانت تذوق من ألوان الجور والسلب والعجرفة ، وتقريب الغبارين وأهل الدعارة ، واقصاء الاشراف واهانتهم ، ما كانت تذوقه بقية البلاد السورية .

وفي سنة ١٣٤٤ هـ شبت الثورة ضد الفرنسيين واتخذ الثوار جبل الزاوية معقلاً لهم ، فكان بعض أهل المعرة يشاركون الثوار علناً ، وآخرون سراً ، فكان فريق منهم يخرج تحت ستار الظلمة فيمدون الثوار بما لديهم من عتاد وأسلحة ، ثم يعودون إلى بيوتهم ، ومنهم من كان يشترك في حرب الليل ، ويعود إلى بسايتين المعرة نهاراً ، وقد فطن الفرنسيون لذلك

فشددوا الحصار على المعريين ، وضيقوا عليهم الخناق .
ولما هجم الثوار على المدينة ، وضع الجند متارس وخواجز
من حجارة على سطح الخان والسكنة التي تقابله ، واختبؤا
وراءها يقاتلون الثوار ، حتى تهشمت جدران الخان من
الرصاص ، وذهبت نضرتها ، وبقيت آيات شاهدة وآثار دالة
على همجية الفرنسيين وأعمالهم السيئة .

ثم دهم المعرة فئة من الصيونيين وعلى رأسهم رجل منهم
يقال له : نورس طيبى ، أو طيبة ، فاحتل دار الحكومة ،
وأخذ ما فيها من الاموال ، فاستكبر أهل المعرة ذلك ، ثم
حصروه هو وأصحابه ، وقبضوا عليه وشدوا وثاقه ، وأبقوه
حتى جاء جند الحكومة من حماة وحلب فسلموه إليهم ، ثم
قتلته الحكومة .

ثم اعتقلت الحكومة المنتدبة جماعة من أعيان المدينة منهم
المفتي ، ونقيب الاشراف

وخضدت شوكة المعريين حتى استسلموا للفرنسيين ، وظلوا
خاضعين لسلطوتهم وعدوانهم وبغيهم ، حتى خضد الله شوكتهم
وأخرجهم من البلاد السورية عامة .

سورية والفرنسيون :

كان السوريون يسمعون الشيء الكثير من جور الفرنسيين وعسفهم وتعديهم على البلاد التي يستعمرونها ، ومحاولتهم القضاء على مقومات حياتهم الدينية والاجتماعية ، وأنهم لا يألون جهداً في إخراجهم عن دينهم ، ومنعهم من إقامة شعائره بطرق ظاهرة وباطنة ، وفي إخراجهم عن قوميتهم ، ومنعهم من تعلم لغتهم ، وحملهم على الطرق التي تجعلهم فرنسيين ، واستباحة أموالهم وأعراضهم واحتقارهم بصور فظيعة ، ونحو ذلك من الأعمال المنكرة الوحشية ، فكرهوا الفرنسيين بسبب ذلك كرهاً لا مزيد عليه ، وبلغ الفرنسيين ذلك عن طريق جواسيسهم .

فنقم السوريون على الفرنسيين أعمالهم وظلمهم ، وخافوا من شرهم وظلمهم ، فلما انتهت الحرب سنة ١٩١٨ م ، وأراد الفرنسيون احتلال سورية تآهب أهلها لمحاربتهم على ضعفهم وقلة عددهم وعددهم ، ثم حاربوهم ، فظفر الفرنسيون ، ودخلوا البلاد عنوة ، فلما توطدت أقدامهم فيها فرضوا على الناس ضرائب مختلفة بأسماء متنوعة ، وفرضوا عليهم مقداراً من

الاسلحة ، وجمعوا أضعاف ما فرضوه من الاموال والاسلحة ولكن ليس هناك من يراقب أو يحاسب ، وعاملوا الناس بقسوة واهانة ، فوضعوا على أبواب المساكن التي تأخر أصحابها عن دفع الضريبة جنوداً من المغاربة والسودان والسنغال للارهاب ، فخاف الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، ثم بدأوا يسومون الناس سوء العذاب ، وأسكرتهم نشوة الظفر . ومن استقصى أعمال الفرنسيين في سورية ، لا يرتاب في أن حكمهم لا يدوم ، وان أمانهم ستعود بالخيبة والخزي ، وذلك لاسباب كثيرة ربما كان من أعظمها أو أعظمها أمران : أحدهما مصدر السياسة التي كانوا يسوسون بها البلاد ، والثاني القائمون بالأعمال السياسية وغيرها .

أما الأمر الأول فان الفرنسيين كانوا يكرهون السوريين ، لما يبلغهم عنهم من كراحتهم إياهم ، فلما دخل الفرنسيون ظافرين وهم أصحاب طيش وحمق وغرور ، وقصر نظر في سياسة الشعوب ، اتصل بهم أكثر الذين كانوا يتصلون بهم من قبل ، وأوغروا صدورهم وملأوها بكره المسلمين وحرصوهم

على الانتقام منهم ، ودلوهم على ما يجهلون من أحوالهم وأموالهم
فهب الفرنسيون إلى السلب والنهب والقتك والاذلال
والانتقام ، كأنهم وحوش ضارية ، لقيت غنماً ليس لها من
يحمي ذمارها ويدود عن حياضها ، ولو استطاعوا أن يمحوا
المسلمين والعرب ، ويطمسوا معالمهم في يوم واحد لفعلوا .

وأما الأمر الثاني فإن أكثر القائمين بالأعمال السياسية
وغيرها من الفرنسيين ، ليسوا على شيء من الاخلاق الفاضلة
فقلما يجد الانسان فيهم عفيفاً ، أو نزيهاً ، أو ماهر اليد
أو الذيل ، بل كان أكثرهم أسرق من فأرة ، وأزنى من فرد
وأجوع من كلبة حومل ، وأطمع من أشعب .

وكان كثير منهم من يبيع مصاحبة دولته الغالية بثمن بخس
يرتشي به .

بما جعل نقمة السوريين تشتد على الفرنسيين ، وتغلي
مراجل الحقد في نفوسهم ، وكانوا ينتظرون فرصاً تسنح ،
ليشفوا بها غللمهم .

وقد ثاروا على الفرنسيين غير مرة ، ووقعت بين الثوار

والفرنسيين ومن معهم من المتطوعة معارك دامية ، قتل فيها خلق كثير من الفريقين .

ولما اعلنت الحرب الاخيرة سنة ١٩٣٩ م تحفز الفرنسيون للمقضاء على السوريين ، وأعلنوا مصادرة الاموال والرجال ، فأخذ فريق من الشبان يفرون إلى بلاد الترك والعراق وشرقي الاردن وفلسطين وغيرها ، خوفاً من أن يجندهم الفرنسيون فأعلن الفرنسيون أنهم يريدون مصادرة العمال ليشغلوهم في مثل أعمالهم ، لا ليجندوهم ، فهدأ روع الناس قليلاً .

ولكن الفرنسيين أخذوا ينصبون الشباك ليحولوا بين الناس وبين الفرار ، كما أخذوا يمدون أيديهم للاستيلاء على مرافق الحياة والتجارة بقوانين وضعوها ، ولكن أمرهم لم يطل ، فقد هزمهم الالمان ، واستولى على معظم بلادهم ، فلانت قناتهم في سورية ، وخفت غلواؤهم .

ثم دخل الجيش الانكليزي سورية ، ووقع بينه وبين الجيش الفرنسي معارك ، كان الظفر فيها للانكليز ، لأنه أغرى كثيراً من رجال الحكم وقادة الجند الفرنسيين بابقائهم

في وظائفهم وترفع رتبهم ، فأصبحوا تابعين لقيادة الجيش الانكليزي بحسب الحقيقة .

ثم أخذ يفل شباتهم ، وينخذ شوكتهم ، ويقصيم واحداً بعد آخر ، ولكن أبقي لهم غرورهم وعجرفتهم وطماعتهم في الاستفادة .

وكان الناس في سورية قبل دخول الجيش الانكليزي ، يسرون بخطى واسعة نحو الفقر والفاقة ، ويتوقعون أزمة خانقة من تصرف الفرنسيين السيء ، وما أحدثوه من الوظائف والادارات التي قبضوا بسببها على منافذ الحياة ومراقبها ، مثل مكتب القطع النادر ودوائر الاعاشة والميرة والاستيراد والتصدير ونحو ذلك ، فكان كل شيء تحت تصرفهم لا يدخل شيء إلى البلاد ، ولا يخرج شيء منها إلا بإذن منهم ومن رجالهم الذين كانوا يعملون لمصلحة أنفسهم قبل مصلحة حكومتهم .

وكانوا يأخذون حاجة الجيش من طعام وشراب وغيرهما بما في البلاد ، ويستولون على ما يجدونه فيها من المواد الاجنبية التي يحتاجون إليها ، فوقفت الاعمال ، وقلت البضائع ،

وارتفعت الأسعار ، فمنها ما زاد ثمنه عشرة في المائة ، ومنها ما زاد مائة ضعف ومائتي ضعف وأقل وأكثر .

وبعد انكسارهم واستيلاء الالمانيين على قسم من بلادهم ، أخذوا يمتنون بلادهم من سورية ، فيرسلون إليها القمح والسكر والسمن والصابون والعدس وكل شيء أمكنهم إرساله ، وكان كل واحد من جنودهم يرسل في كل برید ما يمكنه إرساله إلى أهله من ذلك .

فازداد بذلك ضيق البلاد ، واشتدت نقمة أهلها على الفرنسيين ، وكان الانكليز على عكس ذلك ، فكانوا يستقدمون إلى البلاد ما تشتد إليه حاجتها من سكر وأرز وقمح وغيرها .

وأخذوا يفتحون طرقاً ، ويحدثون أبنية للعسكر ، فقلت بذلك البطالة ، وشبع كثير مما كانوا يأخذونه من الجنود بيعاً وهبة . وكان الانكليزيون يحسنون معاملة الناس ، ويساعدون التجار على جلب الارزاق والبضائع في كثير من الاحيان ، فأحبهم الناس بقدر ما كرهوا الفرنسيين فحشر الفرنسيون بأن نفوذهم أخذ

يتقلص في البلاد ، وأن كرههم قد استحکم في قلوب السوريين عامة ، وكانت أذية رجالهم وعمالهم تشتد يوماً فيوماً ، وكانت جواسيسهم وبطائنتهم توغر صدورهم على الناس ، ليتمكنوا بذلك من السلب والنهب ؛ فرتبوا من حمقهم خطة أرادوا أن يثبتوا بها أقدامهم في البلاد ، ويستعيدوا سلطتهم ، فتأهبوا للشر ، ووضعوا متارس وأكياساً من الرمل في بعض الأماكن في الطرقات ، وعلى سطوح المنازل ، وعلى أبواب الأماكن العسكرية ، وفي المنعطفات وغيرها ، حتى أن من يطوف في مدينة دمشق يظن أنه في ميدان حرب .

وشعر الأهليون والحكومة الوطنية بما يكنه الفرنسيون في صدورهم من الكيد والشر ، فوضعت الحكومة قطعاً من الدرك في بعض الأماكن ، وعلى باب دائرة الحكومة ، ومجلس النواب . فلما كان يوم ٢٩ مايس سنة ١٩٤٥ م . بدأ الفرنسيون باطلاق النار على المارة في الشارع الممتد بين الجامعة السورية إلى سوق الأروام والمسمى بشارع النصر ، فهرب الناس إلى منازلهم واختبأوا ، وأخذ الفرنسيون يطلقون النار بصورة (٢٠)

متابعة من المدافع المثبتة في أماكن مختلفة من الثكنة الحديدية وشارع النصر والمستشفى العسكري وطريق الصالحية وشارع بغداد وغيره .

وكانت المصفحات والدبابات تطوف في المدينة ، وهي تطلق النار على المارة والجدران والنوافذ ، وألقيت قنابل كثيرة على بيوت فدمرتها ، وقتلت من فيها ، ووقع بين الدرك السوري والجيش الفرنسي معارك ثبت فيها الدرك على قلة سلاحهم ، وامتد ذلك إلى الليلة الثانية ، فاشتدت وطأة الفرنسيين ، وأحرقوا حارات بنيران القذائف ، وقد احترقت حارات مجاورة لحارتنا ، وهي حارة الشالة ، وكادت النار تلتهم منازلنا ، وكلما أخرجنا واحداً لاطفائها رماه الجند بالرصاص .

وفي هذه الليلة أصلوا الدرك نيراناً حامية ، فاضطروا إلى الفرار من أماكنه ، وقتلوا حامية المجلس النيابي ، فقطعواهم أرباباً ، وهم أحياء .

وقامت السيارات الكبيرة التابعة للفرنسيين تطوف في الأسواق ، ويفتح رجالها مخازن التجارة ، ويملأونها من البضائع

التي فيها ، ويرسلونها إلى لبنان فتباع فيه ، وكثر السلب والنهب من قبل الجيش وأعوان الفرنسيين وأنصارهم ، ولم يستطع أحد من الناس أن يخرج للمحافظة على رزقه وأمتعته خوفاً على حياته ، وكانت مثل هذه الحالة في حلب وحماة وغيرهما . ثم إن رئيس وزراء بريطانيا (ونستون تشرشل) أمر قائد الجيوش الانكليزية في سورية أن يقف القتال ويمنع الفرنسيين من عدوانهم ، وكتب إلى عميد الفرنسيين في ذلك العهد ^(١) برقية يذكر فيها اعتداء الفرنسيين على السوريين ويأمره بأن يوعز إلى الفرنسيين بأن يكفوا عن أعمال القتل والسلب والنهب ، وقال له فيها : إننا أمرنا قائد جيشنا الجنرال باجت أن يقف القتال والتعدي بالقوة .

فأرسل هذا القائد دبابات ضخمة إلى مراكز المدافع الفرنسية ، ومراكز القوى المحاربة والناهبة ، وأمرهم بأن يكفوا فوراً عن كل عمل ، فأنصاع أكثرهم للأمر ، وتمرد فريق كانوا في بعض المنازل التي يسكنونها ، أو يقيم فيها فريق من الجند ، فهددهم بضرب المنازل ، فأنقادوا صاغرين .

(١) لعله يريد الجنرال بينيه المفوض السامي الفرنسي .

وقويت شوكة الناس عليهم ، فكانوا ينهالون على رجالهم بالسب والشتم والاهانة ، وكان القائد أو الموظف الفرنسي لا يستطيع الخروج من مكان إلى آخر ، وكانت المصفحات والسيارات الانكليزية تنقل رجالهم من مكان إلى آخر ، وتحافظ على مراكزهم ومنازلهم ، حتى تم جلاؤهم عن المدينة . وهذه هي النتيجة المتوقعة من السياسة التي كانوا يستوحونها من خالصاتهم وأعدائهم . ومن الغريب أننا كنا نسمع سب الفرنسيين ولعنهم من رجالهم الذين كانوا يعولون عليهم في سياستهم ويستوحونها منهم ، وقد كانوا يظهرون الشهامة بهم ، ويعددون من مساوئهم ما يعلمه الناس وما يجهلونه .

أما المعرة فلم يكن فيها موظفون فرنسيون ولا جنود فرنسية ، ولذلك لم يحدث فيها شيء ، وإنما حدث في حماة بين أهلها وبين الفرنسيين حروب طاحنة ، وكان فريق كبير من أهل المعرة قد خرج لموازة الحمويين ، واشترك معهم في القتال ، حتى جاء القائد الانكليزي فوقفه كما فعل قائد دمشق وقائد حلب وغيرهما .

صفة المعرة

رأيت كثيراً ممن كتب في تاريخ هذه المدينة ، كتب ما تلقاه من أفواه العامة ومزاعمهم ، أو بما أوحاه إليه هواه وتعصبه ، أو بما حدثته به نفسه ، أو نقل عن لا يوثق بنقله فلم يصب شاكلة الصواب فيما كتب ، ومن هؤلاء صاحب (نهر الذهب)^(١) فقد ذكر أن في المعرة غاراً يشتمل على قبر عطاء الله بن أبي رباح حامل لواء النبي (ص) ، وعطاء توفي في مكة ، ولم يُعرف أنه قدم المعرة أو مات فيها ، ولا عُرف أنه صحابي كما سيأتي .

وقد تابعه على ذلك أصحاب (مجلة العاديات) التي تصدر في حلب في العدد الأول من السنة الثانية سنة ١٣٥٠ هـ الموافقة لسنة ١٩٣٢ م .

وقد ذكر أصحابها أيضاً أن قلعة المعرة من عهد الملك

(١) أي كامل الغزي .

الظاهر ، وقد بينا أن بناءها تم سنة ٦٣١ هـ ، وأن الملك المظفر هو الذي بناها .

ومنهم طه حسين فقد ذكر في (ذكرى أبي العلاء)^(١) أن قلعة المعرة متخربة من عهد الصليبيين ، وأنها تعرف بقلعة النعمان . ومنهم لويس شيخو فقد ذكر الاستاذ الميمني عنه : أنه قال : إن منارة الجامع من بناء عمر بن الخطاب . وقد بينا في هذا الكتاب الصواب في كل ما ذكر .

ونحن نصفها الآن على وفق ما رأينا ، أو نقلنا عن الثقات والمراجع الرسمية ، لنقف بالقارىء على الصواب بقدر ما استطعنا فنقول :

المعرة الآن مدينة متوسطة ، واقعة بين حماة من الجنوب ، وحلب من الشمال ، بينها وبين حماة نحو ثمانية وخمسين كيلو متراً وبينها وبين حلب نحو ثمانين كيلو متراً ، بحسب قيود وزارة النافعة السورية^(٢) سنة ١٣٥٤ هـ و سنة ١٩٣٥ م .

(١) طه حسين : ذكرى أبي العلاء ١٢٤ (ج) .

(٢) أي وزارة الأشغال العامة السورية .

طولها وعرضها :

ذكر أبو الفداء في (تقويم البلدان) ^(١) أن طولها إحدى وستون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة .

ارتفاعها عن سطح البحر :

قال صاحب (ذكرى أبي العلاء) ^(٢) : إن المعرة ترتفع عن سطح البحر نحو خمسة وستين وثلاثمائة متر ، والصواب أنها ترتفع نحو ٤٩٦ متراً على حسب قيد وزارة النافذة السورية وربما كان أكثر .

الطرق المارة بها :

كان أكثر الناس في القديم إلى انقضاء عهد الحكومة العثمانية يسировن على طريق القوافل ما بين حلب وحماة ، فكان الانسان يخرج من حلب إلى خان طومان ، فسراقب ، فخان السيل ، فالمعرة ، فخان شيخون ، فهورك ، فحماة .

(١) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٤ .

(٢) طه حسين : ذكرى أبي العلاء ١٢٤ .

وكان الانسان يخرج من المعرة من جنوبها الغربي فيمر على مكان يقال له قبة الحجى ، وهو عبارة عن تل صغير يقع على يمين الخارج من المعرة ، ثم يذهب جنوباً ، فيمر شرقي حُنَاك ، إلى جهة حيش ، فخان شيخون . وسيأتي في ترجمة محمد ابن عبد الله بن محمد أخى أبى العلاء أن داره بباب حناك ، وتعرف بدار القبة ، فلعلها هي قبة الحجى ، وقد كان الناس في عهدنا يخرجون إلى استقبال الحجاج من هذا الطريق ، فينتظرون وصولهم إلى المعرة في هذا المكان ، وفيه آثار تدل على أن هناك كانت أبنية مرتفعة ، ثم أخنى عليها الدهر .

وفي سنة ١٣٤٤ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٥ م شرعت الحكومة بتسوية هذا الطريق وتعميده وتزفيتة من حلب إلى تَفْتَنَاز ، ومن المعرة إلى خان شيخون ، وغيرت مخرجه من المعرة ، فأصبح يمر من شرقي المعرة إلى مرحطاط رأساً ، وهجرت المخرج الأول الذي كان يمر على قبة الحجى إلى شرقي حُنَاك . وفي نحو سنة ١٣٦٥ هـ الموافقة لسنة ١٩٤٧ م شرعت في تعبيد طريق يصل ما بين المعرة وأريحا ، وهذا الطريق يبتدىء

من غربي المعرة ، فيمر شرقي مقبرة بني الجندي إلى شرقي
القلعة ، ويذهب إلى جهة النخيا ، فيمر من شمالي عين آسية ،
ثم يذهب إلى أريحا ^(١) .

فنج شارع أبي العلاء :

كانت المعرة تقسم إلى محلتين كبيرتين : شمالية وقبلية ، وكان
يفصل بينهما من الشرق الجامع الكبير ، ثم السوق ، ثم الطريق
الآخذ من السوق غرباً إلى مقبرة بني الجندي وبني العظم ،
وكل محلة تقسم إلى حارات متعددة تسمى كل حارة باسم
خاص ، والحارة عبارة عن مساكن متعددة يجمعها اسم واحد
كحارة الحبشة ، والحارة الغرية ، وحارة الكنيسة ، ولعلها هي
التي ذكرها أبو العلاء في رسالة الغفران ^(٢) حيث قال : وحدثت
أن أبا الطيب أيام كان إقطاعه بصف ^(٣) ، رؤي يصلي بموضع
بمعرة النعمان يقال له : كنيسة الاعراب ... وربما قيل لها :
زقاق كذا ، مثل زقاق رازم .

(١) وقد تم تعبيد هذا الطريق وتزفيتة ، وكذلك الطريق الذي يصل
المعرة بادلج .

(٢) أبو العلاء : رسالة الغفران ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٣ : ٤٠١ : صف ضيعة بالمعرة كانت
إقطاعاً لمتنبي من سيف الدولة ومنها هرب إلى دمشق ومنها إلى مصر .

وفي سنة ١٣٤٩ هـ سنة ١٩٣١ م فتح في المعرة شارع أبي العلاء ، ومبدؤه من طريق حلب ، شرقي المدينة ، يمر بين خان مراد وخان أسعد أو الشكنة ، ويمتد إلى غربي المدينة ، ويتصل بطريق أريحا الذي سبق ذكره .

وهذا الشارع جعل المدينة قسمين : قسم شمالي ، وقسم قبلي ، وقد انشئت فيه أبنية جديدة ، غيرت معالم المدينة ، وجعلتها شبيهة بالمدن الحديثة ، إلا أن الأبنية العظيمة قليلة فيه ، وقد بنيت في غربيه مدرسة ثانوية ، فقطعت امتداده نحو الغرب ، واضطرت الطريق إلى أن يلتوي وينحرف .

عدد نفوس المدينة وما ألحق بها :

بلغ عدد سكان المعرة في الإحصاء الذي عملته الحكومة العثمانية سنة ١٣١٠ (٤٥٧٧) نفساً ، وعدد نفوس المدينة والقضاء (١٨٥٧٠) نفساً ، وبلغ في الإحصاء الذي عملته الحكومة السورية. في سنة ١٣٤٠ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٢ م (٥٢٢١) نفساً .

وقد بلغ مجموع عدد نفوس المعرة وقراها بحسب قيود

الحكومة في سنة ١٣٥٩ هـ وسنة ١٩٤١ م (٣٦١٨٠) منه (٨٨٧٤) عدد نفوس المدينة وحدها ، وعدد الذكور منهم قريب من النصف ، وسيأتي جدول نبين فيه نفوس المدينة وكل قرية على حدة .

مكرونة المعرة ومقرها :

المعرة مركز قضاء تابع لولاية حلب في هذا العهد ^(١) ، وفيها حاكم إداري (قائم مقام) ، وقاض شرعي ، وقاض مدني ، يختلف بحسب تشكيلات الحكومة ، فتارة يسمى حاكماً منفرداً ، وتارة يسمى رئيس محكمة صلح ، وتارة وتارة . وفيها مركز للبريد والبرق من عهد الحكومة التركية ، وفيها مركز للهاتف أنشأته الحكومة السورية نحو سنة ١٩٢١ م . وفيها بلدية ولها رئيس يعين ، وأحياناً كان ينتخب . ولها ناحيتان في كل منها مدير ، إحداهما خان شيخون ،

(١) وبموجب التقسيمات الإدارية المعمول بها سنة ١٩٦٣ م ، فقد صارت مدينة المعرة مركزاً لمنطقة المعرة التابعة لمحافظة إدلب .

والثانية قلعة المضيق ، وفيها قوة قليلة من الدرك ، ومن قوى
البادية العسكرية .

مقر الحكومة فيها :

كانت الحكومة منذ القديم تقيم في دار واقعة غربي الحتام
التحتانية والسوق ، وفيها جميع دوائر الحكومة ، ثم جعلت
داراً في الساحة الكبرى في المحلة القبلية محكمة شرعية يقيم
فيها القاضي الشرعي وعمال المحكمة من كتاب وغيرهم .

وفي نحو سنة ١٩٢٦ م الموافقة لسنة ١٣٤٤ هـ أنشأت الحكومة
داراً لها في شرقي المدينة وفي شرقي الخان الشاهي مسامتة له .

وفي سنة ١٣٤٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٣١ م افتتحت شارع
أبي العلاء الممتد من شرقي المدينة إلى غربيها ، فمر من جنوبي
دار الحكومة ، وأقامت في وسطه حديقة جميلة ، وجعلت أمام
دار الحكومة حديقة ، وفي الضفة التي تقابلها من الجنوب
حديقة تقاربها .

والموظفون في أعمال الحكومة الملكية عامة يعملون في
لدار المذكورة .

ماء المعرّة :

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أهل المعرة يشربون من الآبار ، ويسقون بعض الزرع والأشجار في البساتين من الرّكّايا والآبار ، وأن ليس في المعرة ولا في ضاحيتها نهر جار ، إلا ما زعمه بعضهم من أن مخاضاً اسم لنهر في المعرة ، أو بالقرب منها ، وقد بينا بطلانه .

والآبار التي يستخرج أهل المعرة ماءها للشرب والاستعمال نوعان : أحدهما يجتمع ماؤه من ماء المطر الذي ينزل على سطوح الدور وساحاتها ، وبعضهم يضم إليه ما يسيل في الأزقة ويسمونه جبّاً .

وهذا الماء كله عذب ، بارد في الصيف ، حار في الشتاء ، وقد يكون فيه نوع من الدود الأحمر والعلق .

وأكثر الآبار التي يجتمع فيها هذا الماء حديث العهد والبناء ، وفيها آبار قديمة . النوع الثاني من الآبار يتحلب ماؤه من أرض البثر ، وقد يضاف إليه ما يسيل من المطر ، ويسمون هذه الآبار بالركايا جمع رَكِيّة ، وكثير من هذه الركايا ما يكون

ماؤه ملحاً ، فيستعملونه في غير الشرب ، وهذه الركايا يكون بعضها خاصاً بأصحاب المساكن التي تكون فيها ، ويكون بعضها عاماً ، فيخرج منها السقاؤون ماء يحملونه إلى البيوت في روايا لقاء أجر معلوم ، وفي وسع كل انسان أن يشتري قدر حاجته منه ، وفي المعرة عدة ركايا عذبة الماء يشرب منها الناس ، منها ركبة الحمام التحتانية ، وهي في أول باب السوق الغربي الشمالي المقابل للجامع ومنارته من الغرب ، وهذه الركبة يخرج منها للحمام المذكورة ، ويشرب منه قسم من أهل المحلة الشمالية .

ومنها ركبة العرائس ، ويقال لها : عين العرائس ، وهي شرقي المعرة ، وشمالي خان مراد ، وغربي مقام أُوَيْس ومتصلة به ، ومنها يشرب قسم من أهل المحلة الشمالية ، ومنها : ركبة حمام السيد يوسف ، وهي في الزاوية الشرقية الشمالية من الساحة الكبرى في المحلة القبليّة ، ومنها يشرب قسم من أهل المحلة القبليّة .

ومنها : الركبة المعروفة بالسبيل ، وهي واقعة جنوبي المدينة في شرقي زاوية بني الكيال إلى الجنوب ، وفي غربي مقام نبي الله يوشع إلى الجنوب ، ومنها يشرب قسم من أهل المحلة القبليّة .

والسيل في عرف أهل المعرة حفرة كبيرة تشبه البشر
الواسعة ، تبنى حولها أربعة جدران ، وترتفع فوق الأرض
كأنها غرفة مسقوفة ، ويجعل لها باب ينزل إلى وسطها منه ،
يجتمع فيها ماء المطر ، فيرده أبناء السيل فيشربون ويتوضئون
ويسقون دوابهم منه ، ويأخذون حاجتهم ، وإذا أرادوا صلوا
فوق ظهره ، والغالب أنهم كانوا يجعلونه في الطرق كطريق
حلب وحماة ، لاغائة أبناء السيل ، ولذلك يسمونه سيلاً .
والسيل أيضاً يطلق في عرفهم على مكان يصب فيه الماء ،
يختلف طوله وعرضه من ذراعين إلى أكثر ، فيشرب منه المارة
وأهل السوق ، وأكثر ما يكون هذا النوع في الأسواق ، يقف
ثمّن مائه أهل الصلاح واليسار ، وقد كان في عهدنا في سوق
المعرة عدد من هذا النوع ، ويجمعونه على سبلان .

ومنها ركية القهوة الكبيرة والقهوة عبارة عن مقهى في وسط المدينة
ظهرت فيه ركية ماء غزيرة ، ثم جعلت طاحونة ، وركب على الركية
مضخة نارية (موتور) فخرج منها ماء كثير يزيد عن حاجة الطاحونة

والمقهى ، وقد أسيل إلى بعض البيوت في أنابيب حديدية .
هذه هي أشهر الركايا العامة التي يشرب منها أهل المدينة ،
وقد قدمنا الكلام على الركايا التي في البساتين ، وعلى بعض
الركايا التي في الحمامات ، وسيأتي تمام ذلك .

ثم وجدت الحكومة أن الماء المستخرج من الركايا السابق
ذكرها غير نظيف نظافة طبية ، ولا كاف لحاجة الأهلىن ،
فعمدت على جلب مياه تنبع من بطن الأرض في موضع
في أخريات وادي النسيم من جنوبي المعرة إلى الشرق ، وعلى
رفعه إلى خزان بواسطة مضخة بخارية ، ثم توزيعه على المساجد
والمساكن وغيرهما ، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم
السبت السابع من شوال سنة ١٣٥٨ هـ وضع الحجر الأساسي
لخزان الماء المذكور ، الذي بني في طرف المدينة الجديدة من
الشمال الغربي ، مقابل ضريح أبي العلاء إلى الغرب ، وفي
الوقت المذكور وضع الحجر الأساسي لخزان الكهرباء الذي
أعد لتوفير المدينة .

وهي الآن تنار من قوة تتولد من موتور الطاحونة التي في

المقهى الكبير ، ولكن القوة المولدة لا تكفي حاجة المدينة كلها ،
وقد حضر وضع الأساسين مندوب من دمشق ، ومندوب
من حلب ، ومستشار الداخلية ، وهؤلاء من الفرنسيين .
وحضرت طائفة من عمال الحكومة السورية معهم ، وطائفة
من أعيان المعرة (١) .

(١) وتقوم بلدية معرة النعمان في عام ١٩٦٢ - ١٩٦٣ م في عهدة رئاسة
الدكتور أكرم الخاني بالأعمال الانشائية والعمرائية التالية :

١ - انشاء مجاري عامة للمدينة وقد تم انشاء الفرع الجنوبي منها وبلغت
تسكليفه ما يقارب الـ /٣٠٠٠٠/ ثلاثين ألف ليرة سورية ويباشر بانشاء
الفرع الشمالي والفروع الداخلية قريباً وقد رصدت البلدية لهذه الأعمال
١٧٨٠٠٠ ل.س .

٢ - تعبيد وتزفيت ورصف الشوارع العامة بالمدينة

٦٥٠٠ ل.س

٣ - انشاء مسلخ فني وشراء سيارة لنقل القمامات

٢٥٠٠ ل.س

٤ - تزويد المسلخ بمنفخ كهربائي للفخ الذبائح على

الطريقة الحديثة ١٠٠٠ ل.س

٥ - انشاء حديقة عامة ونصب لتمثال أبي العلاء فيها

المقدم هدية من وزارة الثقافة والارشاد القومي ٥٠٠٠ ل.س

المجموع ٢٧٤٠٠٠ ل.س

٢ (٢١)

المطاب والمدرسي في المعرة:

كانت الحكومة التركية في عهدها لا تُعنى كثيراً بأهل هذا القضاء ، ولا يهتموا من أموره شيء ، إلا أخذ الأموال من طريق الضرائب والاعانات المختلفة ، وكان عمال الحكومة في ذلك العهد لا يهتمهم إلا سلب الأموال من طرق الرشوة والاحتيايل ، وتسليط هذا على ذاك ، واعانة كل على أخيه . وكانت جمهرة أهل المعرة ولواحقها فقراء ، يكلفون أنفسهم فوق طاقتها من الأعمال ليشبعوا نهمة العمال .

- ٦ - تزويد مصلحة الكهرباء بمجموعة كهربائية جديدة بقوة /٤٥٠/ حصاناً ٧.٠٠٠ ل.س
- بالإضافة إلى المجموعتين السابقتين بقوة /٢٣٠/ حصاناً و /١٢٥/ حصاناً .
- ٧ - تقديم مشروع الكهرباء وتوسيع شبكته ٢٥٠٠٠ ل.س
- ٨ - مشروع جر مياه الهوة الضخمة إلى مدينة المعرة التي تبعد عن المدينة /٧/ كم والذي يستفيد منه /٣٠/ ألف مواطن من المعرة وفي ثلاث قرى محيطة بالمشروع وقد بلغت نفقاته حتى الآن ٣٨١٠٠٠ ل.س

ولذلك لم يستطع أحد منهم إرسال ولده إلى مدينة أخرى ليتعلم فيها ، وقد كان في المعرة إلى نهاية سنة ١٣١٩ هـ مكاتب أو كتاتيب ، والمكتب ^(١) عبارة عن غرفة في مسجد أو زاوية أو بيت ، يعلم فيه أستاذ جماعة من الصبيان القراءة والكتابة ، وربما علم بعضهم في دكانه . وأنا قد تعلمت القراءة مع جماعة عند أستاذ يقال له : الشيخ أحمد من آل ادريس ، وكان حائكا في الصيف ، فراء في الشتاء ، وأكثر من كان يعلم الصبيان في المكاتب أو الكتاتيب من العميان ، لأنهم فقراء لا يجدون مرتزقا من غير هذا الطريق .

وقد أنشأت الحكومة التركية مكتبا رُشديا ^(٢) جعلته ثلاثة صفوف ، وقد تخرجت فيه ، وكان عدد الطلاب قليلا وعناية مديره بتعليم الطلاب أقل ، وأكثر من تعلم فيه خرج وهو

(١) المكتب بفتح الميم والتاء وسكون الكاف موضع تعليم الكتابة ويجمع على مكاتب ، وبعضهم يقول : كتاب بضم الكاف وتشديد التاء ويجمعه على كتاتيب ، وقد أنكر الأخير جماعة من اللغويين ، والتمس آخرون وجها لجوازه (ج) .

(٢) وقد كان هذا المكتب في جامع الشيخ عطا الله بمدينة المعرة .

لا يحسن غير القراءة والكتابة ، وكان مديره يقرئ الطلاب الكبار الفقه الحنفي والنحو والفلك ، وقد وازبته على دروسه هذه مدة طويلة ، وكان بعض علماء المدينة يقرئ الطلاب الكبار شيئاً من النحو والفقه والمنطق في غرفة في الجامع الكبير ، ومنهم من كان يقرئ في داره ، وكلا الفريقين يعلم مجانا ، ولا يأخذ أجراً على تعليمه ، وقد قرأت في غرفة الجامع الملاصقة لمنارته من الشرق شيئاً من النحو على الشيخ حسن ابن الشيخ صالح رمضان ، وشيئاً من النحو والفقه الشافعي على والده الشيخ محمد صالح رمضان المعري ، وقرأت القرآن على الشيخ حسن ابن الشيخ أحمد المطر في دكانه ، وعلى شيخه الشيخ عبدو الشحنة في الزاوية الداودية ، وأكثر طلاب العام بل كلهم كانوا يحذون على هذا المثال . ثم أنشأت الحكومة السورية في المرة مكتبين ابتدائيين : أحدهما المذكور^(١) وفيه خمسة صفوف . والثاني للناث وفيه صفان . ثم أنشأت مدرسة للتجيز في الزاوية التي تقع غربي المدينة ويتصل فيها طريق أريحا بشارع أبي العلاء ، وفيها صفان

(١) وتسمى بمدرسة الغزالي وفيها الآن جناح قديم وآخر حديث وعدد

طلابها في العام الدراسي (١٩٦٢ - ١٩٦٣ م) : ٤٥٨ .

وشرع في التدريس فيها نحو سنة ١٣٦٥ هـ ، ثم أنشأت صفوفاً
آخر^(١) وأنشأت من قبل مدرسة في خان شيخون ، وفي كَفرْ نَبَل
وفي التمانعة ، وفي معرة حرمة^(٢) .

ولكن العناية بهذه المدارس أقل مما تستحقه ، كما تبيّن لي
ذلك من احصاء وزارة المعارف .

هذه معاهد الدراسة والتعليم الحديثة في المعرة ، ولحّة من
طريقتها . وأما في العهد الذي قبل سنة ١٣٠٠ هـ فلا نعلمه على
التحقيق ، الا أننا نقيسه على العهد الذي أدركناه ، وقد كان
في المعرة مدرسة للشافعية ، قيل : إنها بنيت زمن الملك
المنصور محمد الأول أحد ملوك الأيوبيين في حماة سنة ٥٩٥ هـ
ولعله المنصور بن تقي الدين ، فإن صلاح الدين جعل المعرة
وغيرها للمنصور سنة ٥٨٧ هـ كما قدمنا .

والمعروف في المعرة أنها مدرسة من بناء نور الدين الشهيد ،

(١) وتسمى الآن بثانوية أبي العلاء وعدد طلابها في العام الدراسي (١٩٦٢)

- ١٩٦٣ م) : ٦٨٨ .

(٢) وسيأتي البيان بالمدارس التجهيزية والاعدادية والابتدائية في البحث
عن منطقة المعرة .

ويسميا بعضهم المدرسة النورية ، وقد ذكرها كذلك أصحاب مجلة العاديات ، وزعموا أن علي بابا كتابة من سنة ٥٧٥ هـ مع أن نور الدين توفي سنة ٥٦٩ هـ ، واستولى صلاح الدين على البلاد الشامية سنة ٥٧٠ هـ ، وجعل المعرة إلى تقي الدين سنة ٥٨٢ هـ ، ثم جعلها إلى ابنه المنصور سنة ٥٨٧ هـ .

وهذه المدرسة الموجودة الآن في المحلة القبلية ، لها باب من الشرق ينزل منه إلى ساحة المدرسة ، وعلى يمين الداخل إليها غرفة صغيرة فيها قبر ، ولها ساحة فسيحة في وسطها بئر ماء . وفي الجهة الشمالية منها غرفتان صغيرتان يتجه بابها إلى القبلة ، يعلم فيها الصبيان رجل مكفوف البصر . وفي الجهة القبلية غرفة كبيرة سقفها قبة مزخرفة ، وعلى قنطرة بابها حجارة ضخمة مستديرة حول القنطرة على شكل جميل ، وقد اتخذها الناس مصلًى ، وإلى جانبها الشرقي مرحاض .

وقد كتب على عتبة بابها الخارجي جمل استطعنا أن نقرأ منها هذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

أنشأ هذه المدرسة المباركة والبنية الميمونة من ماله ، ووقفها
على مذهب الامام الأعظم والسيد المكرم إمام الأمة أبي عبد الله
محمد بن إدريس الشافعي الهاشمي المطلي رضوان الله عليه ،
في أيام مولانا الملك المنصور ناصر الدنيا والدين عماد الاسلام
والمسلمين أبي المعالي محمد حسن^(١) شاهان شاه ابن أيوب ظهير
أمير المؤمنين أدام الله أيامه ، العبد الفقير إلى رحمة ربه
أبو الفوارس نجاة بن عبد الله بن علي بن معافا رحمه الله في سنة خمس
وتسعين وخمس مائة ، وتولى عمارتها موفق رحمه الله .

وتحت هذه الكتابة مكتوب هذه الجملة : « الله صنعه ماهر بن
علي بن قانت رحمه الله » . وسيأتي أن هذا هو الذي بنى منارة
الجامع الكبير . وأخبرني رجل أن تحت قبة المدرسة فوق
المحراب مكتوب هذه الكلمات : « ماهر بن علي بن قانت
رحمه الله » .

وكان فيها مدرسة للشافعية أيضاً بناها الشيخ عمر بن الوردي

(١) قال لي بعضهم : ان المكتوب هكذا محمد بن عمر بن شاهان شاه . (ج)

في النصف الأول من المائة الثامنة ، وقد بني جامعها على مثال الجامع الأعظم في حلب .

وقد هدمتها الزلازل والإهمال ، ولم يبق منها إلا بعض جدرانها ، وكان المقامرون يجلسون فيها ، وكذلك شراب الخمر والحشاشون ، إلى أن قبض الله لها رجلاً من أهل المعرة يقال له مصطفى البلاتي ، فرمى بها نحو سنة ١٣١٥ هـ تقريباً ، وهي واقعة في الشرق الشمالي من المعرة مسامة لمقام الشيخ حمدان تقريباً . وطول الباقي من هذه المدرسة عشرة أمتار ، وعرضها سبعة ، وليس في شرقها بناء في عهدنا هذا ، ولا في جنوبها سوى الخان ، ودار الحكومة التي بنيت حديثاً . وستأتي تمة الكلام فيها في ترجمة إنيها .

الزوايا :

وفي المعرة زوايا ، والزاوية في اصطلاحهم مسجد يدفن فيه ، أو في غرفة فيه رجل من الصالحين ، وقد يزول القبر وتبقى بركته .

منها : زاوية بني الكيال ، وهي في جنوبي البلدة ، وكان

الرام^(١) أمامها ، ولم يفصل بينها بناء . ثم حدثت أبلية فصلت بينهما ، وهي غربي جامع يوشع بن نون (ص) وهذه الزاوية بُنيت في ربيع الآخر سنة ١١٦٢ هـ كما هو مكتوب على عتبة بابها ، وكتب إليّ بعض المعريين أن البناء فرغ منه في شهر ربيع الآخر سنة ١١٥٧ هـ على يد الحاج أبي بكر بن الشحنة وهو مدفون في هذه الزاوية .

ومنها : زاوية الداودية وهي في المحلة الشمالية بالقرب من الحمام التحتانية ، ومن السراي (دار الحكومة) القديمة ، ولم أعلم شيئاً من أمر هذه الزاوية ، ولا تاريخ بنائها . وقد كانت في عهدي كُتّاباً ، وقرأت فيها القرآن على الشيخ عبده ابن الشحنة ، ثم استولى عليها شيخ رفاعي الطريقة ، وقد عثر بعض الباحثين في شرقي الجبانة المعروفة بجبانة بني الجندي الواقعة غربي المدينة

(١) الرام في عرف المارة وضاحتها مستنقع يجتمع فيه الماء من الطر يستقي الناس منه دوابهم ، ويستعملونه في أعمالهم ، وفي جنوبي المارة إلى الغرب هذا الرام وإلى جانبه الشرقي رام آخر ، الأول الرام الكبير ، والثاني الصغير ، وقد أبطلتها الحكومة ، وردمتها لما يتكون فيهما من الأقدار ، ويؤثر من الجراثيم الضارة كاللاريا ونحوها (ج) .

على قبر مكتوب عليه بخط جميل : « عبد الكريم بن عبد الوهاب
الداودي المنقاري في أواخر شوال سنة ٩٥٥ هـ » . فلعل هذه
الزاوية منسوبة له ، أو لأحد من أسرته .

ومنها : زاوية الشيخ العجمي ، وهذه لم أقف على شيء
من أمرها ، وهي في المحلة الشمالية أيضاً ، تشتمل على ساحة
صغيرة ، وفي غربها مقابل الباب الذي يدخل إليها منه غرفة
صغيرة ، وفي جنوبي الساحة مسجد في شرقيه ضفة فيها
قبر يقال : إنه قبر الشيخ محمد العجمي ، ولا أعلم هل هو
عجمي حقيقة ، أم من بني العجمي ، وهم أسرة في حلب
معروفة بالصلاح ، وهذه الزاوية يصلّى فيها بعض الأوقات
بجماعة ، ويقام فيها الذكر على الطريقة الرفاعية بعد الجمعة ،
وشيوخها من أبناء غمنا .

المساجد :

وفي المعرة مساجد كثيرة من أشهرها وأعظمها : المسجد الجامع
الكبير ، وهو في وسط المدينة من الشمال والجنوب ، وفي طرفها من

جهة الشرق ، وهو الفاصل بين المحلة الشمالية والقبلية من هذه الجهة ، وفي شماليه أرض خالية من العمران يسمونها حَيْرًا ، وهي وقف له ، وقد وجدت فيها رَكِيَّة ماء مقابل باب الجامع الشمالي ، وكان غريبه متصلاً بالسوق من أوله إلى آخره ، ثم هدمت البلدية في نحو سنة ١٣٥٢ هـ القسم المتصل بالمنارة من السوق ، وأضافت مكانه إلى ساحة السوق فأنكشفت المنارة من هذه الجهة . وفي جنوبيه أرض على قدره أيضاً ، وقد بني أمامها سوق يسمى سوق الجامع ، فلم يقبل عليها الناس ، فهدمت في نحو سنة ١٣٤٩ هـ ، حين فتح شارع أبي العلاء ، وهذه الأرض مسورة بجدار يصل بين حرم المسجد القبلي وبين الركية التي يستخرج منها الماء ، ثم يسيل في ساقية على أعلى الجدار المذكور إلى مخزن في المسجد ، فيأخذ منه الناس للوضوء .

ولهذا المسجد بابان أحدهما من الجهة الشمالية ، وهو متصل بالمنارة من جهتها الشرقية ، وهذا الباب لم يكن قديماً ، وإنما يقال : إن جدي فتحه ، ولا أعلم في أية سنة فتحه ، ولكنه فتحه قبل وفاته بسنوات وكانت وفاته سنة ١٢٦٩ هـ ، وإذا صح

أن تجدي سليما هو الذي فتحه ، فيكون ذلك لسبيين ، الأول :
أن باب الجامع الأصلي من جهة السوق ، وكانت الأسواق في
ذلك العهد لها أبواب تقفل كل يوم مساء ، وتفتح صباحاً ،
ولا يستطيع أحد أن يدخل المسجد في هذا الوقت إلا بإذن
الحراس ، وفي ذلك صعوبة على المؤذن والمتجهدين والمصلين
في الغلس .

الثاني : أن جدي كان إمام هذا المسجد ، وكان لا يصل
إليه بكرة إلا بواسطة الحرس ، وهذا الباب الذي فتحه قريب
من باب داره ، لأنها أول دار تقع في شمالي الجامع ، فكان
الجامع بعد فتحه قريباً منه ، وتسنّى لمن يريد أن يأتي المسجد
أن يدخله متى شاء ، من غير أن يدخل من السوق ويستأذن
الحراس . وهذا الباب ينزل إليه بخمس درجات عراض :
والباب الثاني ، وهو الباب العظيم من الجهة الغربية ، ينزل
إليه من ساحة السوق بعشر درجات ، وقد غيرت درجاته
وعرضت في نحو سنة ١٣٥٠ هـ .

وقد بني على سَمْتِه إلى الشمال ، أي إلى جهة المنارة ، ثلاث غرف

ليس لها منفذ الا أبوابها ، وفتح فوقها ثلاث نوافذ للدكاكين التي فوقها ، وأبوابها من السوق ، وقد شوهت نضرة الجامع بأبواب الغرف المذكورة والنوافذ التي فوقها .

وقد قدمنا عن ناصر نحسرو ، وكان رأى العرة نحوراً من سنة ٤٤٠ هـ أن جامع الممرمة مبني على أكسة قائمة وسط المدينة ، ومن أية جهة أتيته ترتقي إليه بثلاث عشرة درجة . وفي عصرنا الحاضر يرى هذا الجامع في منخفض من الأرض من أية جهة أتيته ، إلا من الشرق ، لأن أكثر ما يكون انخفاضه يظهر إذا انحدرت إليه من الشمال والجنوب والغرب ، أما الشرق فلخلوه من العمران لا يظهر انخفاضه عنه كثيراً .

والذي أعتقد أنه في قول ناصر نحسرو شيئاً من الحقيقة وأن الجامع كان مرتفعاً عن المدينة ، ولكن توالي الخراب بسبب الحروب والغارات والزلازل جعل المباني ركاماً وكان الناس حين يعودون لبناء منازلهم فقراء يعجزون عن استئصال الأبنية القديمة ، ويكتفون بالبناء على أنقاض القديم ، فجاء البناء الحادث أعلى من القديم ، وبهذا السبب صار الجامع

منخفضاً ينزل إليه بدرجات بعد أن كان عالياً يصعد إليه بدرجات .

وأهل المعرة إلى هذا اليوم إذا أراد أحدهم أن يبني داراً ، أو غيرها ، وعثر على بناء قديم تحت الأرض وراه متيناً ، وضع بناءه فوقه وتوكل على الله .

ويدل على ما ذكرنا كثرة ما عثر عليه من الأبنية المختلفة ، تحت الأرض منها : أن رجلاً أراد أن يبني داراً في أرض قريبة من الجامع المذكور ، من شماليه الشرقي ، فلما كان العامل يحفر الأساس ويخرج ما يجده من الحجارة فيه ، انهار التراب في الموضع الذي كان يحفره ، فلما سكن الغبار جاء صاحب الدار وعماله ليروا سبب ذلك ، فوجدوا هوة عميقة ، فأدلوا إليها عاملاً ليتبين أمرها ، فوجد أن الهوة حدثت في سقف مخزن كبير فيه آنية من الفخار لوضع الماء شبيهة بما يسقى في بلاد الشام بالشربة ، وهي دقيقة الطرفين ، منتفخة الوسط ، ولها عنق طويل ، وهي مطلية بطلاء أبيض كالحواري وفيها نقوش مختلفة ، كان كل واحد منها غرز ظفر يتألف

منه عدة صور متنوعة ، وقد أخرج قسم كبير من هذه الأواني صحیحاً وبيع للناس ، وكنت اشتريت واحداً منها وأنا صغير ، وربما كان ذلك سنة ١٣١٢ هـ أو بعدها بقليل ، وفي جنوبي هذا الموضع إلى الغرب ، حفر رجل آخر أساساً فأنحسر التراب والرّدم عن جزء كبير من حتمام مفروش بالبلاط الناعم ، ووجد فيه مجاري الماء إلى الحمام .

وكلا الرجلين رمم موضع الثغرة التي حدثت في أرضه وقواها ووضع بناءه عليها .

وسقف المخزن والحمام مساوياً لأرض الجامع المذكور تقريباً ، وربما كان فوق هذه الأبنية قصور عالية سميت المعرة من أجلها ذات القصور ، وعثر في المعرة على كثير من مثل هذه الأبنية تحت الأرض ، وفيها الآن كثير من معاصر الزيتون تحت الأرض ، وهذا وأمثاله يؤيد قول ناصر خُسرو .

ويؤيد هذا أيضاً أنهم لما فتحو شارع أبي العلاء ، أراد أصحاب الحمام المعروفة بحمام الزهور إصلاحها وتغيير شكلها فهدموها ، وكانت منخفضة عن السوق التي تجاورها ، فوجدوا

تحتها مخازن ، ووجدوا تحت المخازن دكاكين صاغة مردومة ، وفيها بعض الآثار الدالة على أنها كانت دكاكين صَوَاغ .

ويكون الجامع أعلى من هذه الدكاكين ، وإن كان يتبين للناظر أنه منخفض عن الأبنية الجاضرة . وقد حدثني بذلك رجل من بني الشُّحنة من أهل المعرة سنة ١٣٦٦ هـ ، وهو الذي تعهد هدم الحمام المذكورة وبناءها .

وقد يشكل على هذا أن في بعض الجهات الشمالية والغربية والجنوبية بعض أبنية أساسها قائم على صخر تحت أديم الأرض ، وهي أعلى من الجامع .

وعلى هذا ينبغي أن يكون الجامع قائماً على أكمة ، كما قال ناصر خُشرو ، وما حوله قسم منه منخفض عن الجامع ، وبعد هذا قسم يختلف عن هذا ، بعضه مساوٍ له ، وبعضه أعلى منه .

ويجوز أن تكون الأمكنة العالية هي التي بنيت فوقها القصور وسميت المعرة بسببها ذات القصور .

كما يجوز أن تكون البلدة في الأصل قسمين : عالٍ ، ومنخفض ، والجامع بالنسبة للقسم الثاني عالٍ يصعد إليه بدرجات .

وفي هذا الجامع أنماط مختلفة من البناء ، ولذلك زعم بعض المؤرخين أنه عُمرى ، أي بني في عهد عمر بن الخطاب وآخرون جعلوه أقدم عهداً من ذلك ، والمتأمل فيه يجد أن بناءه لم يكن في عصر واحد ، فإن في الجهة الشرقية من ساحته بناء يشبه بناء الرومانيين ، وفي صحنه قبة صغيرة ، قائمة على ستة أعمدة من حجر ، تشبه البناء في عهد عمر .

ويليها إلى الشرق قبة تحتها بركة من الماء ، يتوضأ منها الشافعية ، قائمة على عشرة أعمدة من حجر ، بناؤها يشبه الأبنية المتأخرة كثيراً عن عهد عمر .

ويليها من الجنوب الشرقي قبة يسيل منها الماء إلى القبة الأولى ، وهي أصغر حجماً منها ، مستورة الجوانب ، يتوضأ منها الحنفية ، وتسمى الحنفية ، وقد كتب على وجهها الجنوبي ما يلي :
جدد هذه الحنفية المفتقر إلى رحمة ربه كيوان بك عز نصره
في سنة ٩٧١ هـ ، وبلي الكتابة هذان البتان :

غرض بونقشدن کم اولدی ایاد دعاي خیر در آیدن اولسون شاد
جونکه کرد ابن سبیل خیر را دعاي کیوان بك نجوای اهل داد

والذي يفهم بما قدمنا من كلام البلاذري وغيره ، أن
أبا عبيدة صالح أهل المعرة على أن تكون كنيستهم العظمى
جامعاً ، وقد ذكرنا أن ملك الروم أحرق هذا الجامع سنة
٣٥٧ هـ ، وأن الفرنجة أحرقوه سنة ٤٩٢ هـ ، ولا أعلم إن
كان خرب مع المعرة من قبل الخوارزمية وغيرهم ، أو خرب
في الزلازل التي خربت المعرة كلها ، وهذا يدلنا على أنه غير
عُمري ، وأنه ليس أقدم عهداً من عمر .

والظاهر أنه بقي منه شيء من آثار عهد عمر ، وهو القبة
المذكورة ، وشيء من آثار الكنيسة ، وهو بعض حجارة في الجهة
الشرقية ، وما عدا ذلك فهو يشهد لنفسه بأنه حدث في أوقات
مختلفة بعد ذلك ، ولعل المسلمين أضافوا إلى الكنيسة أكثر
منها ، وفي ساحة الجامع يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب نحو
(٦٠) متراً ، وعرضها من الشمال إلى الجنوب أقل من ذلك .
وفيها هذه القباب الثلاث ، وبثران أحدهما قبلي الحنفية ،
والثاني شرقيها ، وحديقة بين القبة المذكورة والجهة الشرقية
من الجامع ، وفي جنوبي الحديقة البئر الثانية .

والماء يسيل إلى البثرين من المطر الذي يصب في سطوح
المسجد وساحته ، ومن مجرى يتكون فيه المطر الذي ينزل في
الأسواق ، فينحدر في ساقية من حجارة منحوتة نحتاً بديعاً ،
وكل حجر من حجارة الساقية طرفاها ، وأرضها من قطعة
واحدة ، وعليها غطاء من حجر محكم الوضع ، وقد غيرت هذه
الساقية ، واستعوض عنها بأخرى مؤلفة كل قطعة منها من ثلاثة
أحجار ، أحدها أرض ، والآخران طرفان ، وفوقها غطاء ،
وهي أقل إحكاماً من الأولى ، وذلك حين جدد بلاط الجامع
نحو سنة ١٣٤٠ هـ .

وماء البثر الشرقية شديد البرودة لشدة عمقها ، ولا يبعد
أن يتسرب إليها شيء مما تمتصه أرض الحديقة ، التي يسال إليها
ماء البركة مرتين في كل أسبوع ، وماء الحنفية الذي لا ينقطع ،
كما لا يبعد أن يتسرب إليها شيء من مياه المراحيض المستنقعة
منذ مئات السنين ، وفي كل يوم يصب فيها مقدار كبير من
مياه المتوضئين وأبوالهم وفضلاتهم ، وهي لا تجري إلى مكان
آخر ، ولا تزيد عما هي عليه ، ويقوي هذا الظن أن البثر

المذكورة أعرق من المراحض والحديقة ، بأكثر من ثلاثين متراً وهي متصلة بالحديقة ، وليس بينها وبين المراحض أكثر من خمسة عشر متراً ، وتكثر الديدان المختلفة الألوان في هذه البئر إذا قل ماؤها ، ولعل ذلك يتولد مما يحمله الماء حين جريانه إليها من الأدران والأقذار ، وقد فطن لذلك أهل الحل والعقد ، فجعلوا المراحض تسيل إلى مجرى واحد ، وهو يسيل إلى جهة الشرق من المدينة ، من شمالي الخان .

وفي ساحة الجامع في الزاوية الغربية الجنوبية غرفتان ، قائمتان بين جدار الحرم القبلي وبين باب الجامع الغربي ، كان طلاب العلم في عهدنا يجلسون فيهما للمطالعة والمذاكرة ، وربما تغلب بعضهم على واحدة فاتخذها مقراً له ، ومجتمعاً لطلابه حين الدرس ، وقد زرت المعرة سنة ١٣٥٧ هـ فوجدت إحدى الغرفتين قد خربت ، والثانية على وشك الخراب .

وفي ساحة المسجد مصلى ، وهو صُفَّة كبيرة أمام الحرم الشمالي ، تمتد من شرقيه إلى غربيه ، في عرض نحو أربعة أمتار ، وفي وسطها من الجنوب شبه محراب متصل بها ، متقدم

عليها ، وهو مرتفع عن أرض الساحة بنحو ذراع ، ويصل بين هذا المصلى والبركة حجارة مربعة الشكل ، موضوعة فوق البلاط وضعاً ، مفصولة بين كل حجر وآخر بمقدار نصف متر ، ينتقل عليها المتوضئون من البركة إلى المصلى ، كما يصل مثل هذه الحجارة بين البركة والحرم القبلي ، وينتقل عليها المتوضئون منها إلى الحرم .

وفي الجامع موضعان للصلاة أحدهما شمالي ، والآخر قبلي ، فالقبلي وهو أعظمها ، فيه المحراب والمنبر ، وفيه تكون الخطبة والجمعة وصلاة الظهر والعصر في زمن الصيف ، لاتساعه وبرودته ويسمونه الحرم ، ولهذا الحرم ستة أبواب قديمة فتحت منذ بنائه ، عرض كل واحد منها ٢٧٥ سانتيمتراً ، وباب جديد فتح في عهدنا في نحو سنة ١٣١٥ هـ وهو آخرها من الشرق ، وأقلها طولاً وعرضاً ، وفيه منبر من خشب قديم عرضه ٨٠ سانتيمتراً .

وطول هذا الحرم من الشرق إلى الغرب ٥٨ متراً و ٤١ سانتيمتراً ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١١ متراً و ٥٦

سانتيمتراً ، وفيه ضفتان : احدهما من الغرب ، والثانية من الشرق ، والشرقية أعلى من الغربية ، يصعد إليها بدرجات ، وقد وضعت في ناحيتها الشمالية حنفيات للوضوء نحو سنة ١٣٥٠ هـ ، وفي شرقها غرفة صغيرة مظلمة ، وفي زاويتها الجنوبية الشرقية كوة يسيل منها الماء إلى خزان في جدار المسجد الشمالي ، بين الباب السادس والسابع الشرقي ، وفيه حنفية من الداخل ، وأخرى من الخارج يتوضأ منها ، ثم يسيل الماء من هذا الخزان إلى الحنفية التي جددتها كيوان ، ثم منها إلى البركة .

وقد رأيت جماعة من العجم يتبركون بتلك الكوة ويتمسحون بمائها ، لأن بعض الناس قال لهم : إن رأس الحسين بن علي حين ذهب به إلى الشام وضع في هذا المكان ، وبني الصالحون عليه هذا البناء ، وأسألوا الماء إليه ، ولا شك أن هذا الرجل أراد الاحتيال عليهم ، ليأخذ أموالهم باسم الزيارة ، ولكن من الناس من أثر فيه هذا الزعم ، وجعله عقيدة راسخة . وفي الجدار القبلي من هذا الحرم ، مما يلي المحراب إلى

الشرق كتابة قديمة ، أثر فيها طول العهد ، وشدة ارتفاعها ،
وقلة العناية بتنظيفها ، فلم أستطع قراءتها ، فكلفت قريبا أن
ينقلها ، فاستعصى عليه بعض الكلمات ، وأطاعه بعض آخر ،
وهذه صورة ما أمكن نقله منها بالحرف :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ، الأمر بالعدل والإحسان
الناظر بعين الرحمة إلى كل إنسان ، الموفق للعمل الصالح من
نعمائه ، الذي شرف عبده محمداً ﷺ ، وبجاهه فاز ، وبعد فلما
جدد مولانا ملك الأمير المعز الباقي ، كافل المملكة الحموية ،
أعز الله أنصاره ، وجعل الأمانة تقام إلى المعرة المعمورة ،
التي أصبحت بنعمة كفاءته معمورة ، وحبه الجامع طرفاه
إلى الدين ، فطالع بأمره اللائق الشريف طالب مرضاة
العزيز الغفور

إن أوقافه يوجد منها الآن باسم النقود بالكامل ، ولم يفضل
منه ما يقوم بمصالحه ، ولم يفعل ذلك من هو بالخيرات عامل ...
المرسوم الشريف بكل فعل ، وأمر منيف ، رسمه بالأمر الشريف
العالي ، المؤلف السلطاني الملكي الأشرفي ، الناظر بولائه إلى

تلحيظه ببيته بمصالح الله ، وأمره عام ، أخذ الاغدا
ويحفظ معالم جهاتها برمز معناها ، فلا . . . الناظر على الاستمرار
وعهد إلى إقامة شعائر الدين الحنيفي ، باتصال جهاتها ، بمعمور
جماعاتها بنيل الجنان . . . ان من يصرف ربيع وقف الجامع
المعمور بالمعرة ، فانه يجد به من العماره من يصرف بعمل
صالح ، لا يحتاج الذم الفاحش ، والستور عمن يصرف مغالط
الخطيب والمؤذنين والقوام ، ومن يكون في درجتهم ممن يقوم
بعمارة كاملة مهما فضل ، يعود ذلك ينصرف لأناس بالنقود
من الأيتام عن الأمراء والجنند المستقرين على الوقف المذكور
باسم الشونة ، فليعمل المرسوم الشريف بكل وقف له غلة ،
. بعمل بحسبه ، وبمقتضاه من غير غفلة عنه ولا خروج عن
معناه ، بعد الختم الشريف إن شاء الله تعالى ، كتب في التاسع
عشر من شوال سنة ٧٧٥ هـ خمس وسبعين وسبعمائة ، فلذلك
رسم بالأمر النعماني المشار إليه على الحجر ، لينخلد إلى يوم
المحشر ، ما أذن مؤذن ، وخطب خطيب على المنبر ، والله تعالى
الموفق إلى خير الأمور . . (وبقي سطر آخر لم تمكن قراءته) .

وقد اجتمع في هذا الأثر علتان عظيمتان ، منعنا من فهمه كله أو بعضه ، الأولى حذقة المنشئ وحرصه على السجع السمج المتكلف ، والثانية استعصاء بعض الكلمات على الناقل وزاد ضغثا على إباله كثرة أوصاف المدح ، واستعمال كلمات من مصطلح ذلك العصر يشق فهمها ، والاستدلال على غيرها وقد تقدم ما يفيد أن المعرة كانت في سنة ٧٤٥ هـ للملك الصالح بن اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، فلعل هذا المرسوم صدر منه ، أو بمن يليه في الملك ، بمن لم نقف على اسمه .

وأما الموضع الشمالي ، ويسمونه الحجازية ، وفيه تقام صلاة الجماعة في الشتاء ، لأنه أكثر دفئاً من الحرم القبلي ، وأصغر حجماً ، وقد كان يتصل به من جهة الشرق رواق عظيم في صدره غرفتان ، يقيم فيهما الفقراء من مهاجرة الغرب والهند والعجم وغيرهم ، بمن يمر بالمعرة فقيراً ، وباب هاتين الغرفتين يتجه إلى القبلة ، ويتصل بهما غرفة أخرى ، يتجه بابها إلى الغرب ، وكان يقيم فيها متولي وقف الجامع وجاياه ، ثم ضم جميع الرواق والغرفتين إلى الحجازية المذكورة ، وجعل

فيها محل للوضوء ، وفتح لها باب إلى القبلة من جهة الغرب في سنة ١٣١٢ هـ فمابعدھا إلى سنة ١٣٤٧ هـ ، وتتصل الحجازية من جهة الغرب بباب الجامع الشمالي ، ومدخله إلى ساحة المسجد ، وفي سقف هذا الباب والمدخل غرفة تصل بين المنارة والحجازية ، يصعد إليها من الدرج الذي يصعد منه إلى المنارة ، وفي هذا المدخل عن يمين الداخل غرفة صغيرة تحت المنارة من الطرف الجنوبي .

وأما المصلی الذي في ساحة المسجد فتقام فيه في الصيف فقط صلاة الصبح والعشاءين بجماعة .

وفي جنوبي الحجازية الشرقي باب صغير ، فيه غرفة كانوا يضعون فيها الدابة ، التي يخرج عليها الماء من ركية الجامع ، وتصب في خزان يسيل منه إلى المراحيض والمسجد ، وهذه الغرفة شمالي المراحيض إلى الغرب .

وأما منارة هذا المسجد فهي أجمل اثر عُمراني أبقاه الزمن في المعرة ، وأنفس ذخيرة حفظتها الأيام ، لتكون مثالا يدل على مبلغ الفن العمراني في ذلك العهد ، وهي والحق يقال

بديعة الرؤاء ، محكمة البناء ، وليس في منارات المساجد التي رأيناها في بلاد الشام ومصر ، ما يشابهها في إحكام الصنع ، ودقة الوضع ، الا منارة الجامع الكبير في حلب ، الا أن آثار الجدة والاتقان بادية في منارة المعرة ، أكثر منها في منارة حلب .

وهذه المنارة واقعة في زاوية الجامع الغربية الشمالية ، وهي منقسمة إلى ثمانية أبراج متساوية في الطول والعرض ، ارتفاع كل واحد منها نحو ثلاثة وخمسة وثمانين سائمترا وأحد الأبراج الثمانية مدفون أكثره في الأرض ، وفي كل برج أربع نوافذ من جهاته الأربع ، متساوية في الشكل والحجم ونوافذ كل برج مخالفة لنوافذ الأبراج الباقية في الشكل والحجم وفي أعلاها حلق أي درابزين من حجارة كبيرة ، يحيط بأطرافها الأربعة ، وهو بديع الشكل ، دقيق الصنعة ، مثقب على نمط متشابه بديع ، وفي الوسط غرفة صغيرة ، توضع فيها المصابيح التي توقد في شهر رمضان والأيام المباركة ، لأنهم كانوا يوقدون مصابيح بزيت الزيتون يسمونها قناديل ،

ثم صاروا يوقدون مصابيح بزيت الكاز ويسمونها فوانيس ،
يجعلونها صفاً واحداً يحيط بالمنارة من جهاتها الأربع ، وفوق
الحلق قبة قائمة على أربعة أعمدة ، وفي أطراف المنارة من
جهاتها الأربع حجارة بارزة على قدر متساوٍ ، كالخطوط
العريضة من أدناها إلى أعلاها ، ويقسم كل برج عن الآخر
بمثل هذه الحجارة .

وقد كتب على قوس النافذه (الشباك في جهتها الشرقية
هذه الجملة : (صنعه قاهر بن علي بن قانت رحمه الله) ،
وقد تقدم أن هذا الرجل بنى المدرسة الشافعية سنة ٥٧٥ هـ ،
فيكون بناء المنارة في ذلك العهد .

ويوجد مثل هذه الكتابة بعينها في البرج الثاني من جهة الغرب ،
وفي أعلى المنارة من الجهة الشمالية الغربية حجر في داخل
المنارة ، نقش عليه كلمات منها : (الحمد لله رب العالمين
أما بعد فقد وضع هذه الشبكة المعلم ابراهيم) ، وهناك سطر
آخر لم تمكن قراءته .

وفي الطرف القبلي أمام هذه الكتابة نقش هذه الكلمات
(جدد هذه الشبكة العبد الفقير إلى الله تعالى الحاج خليل

ابن الحاج محمد النطار عفا الله عنه وعن المؤمنين .)
ولم أعثر على تاريخ لهذه المنارة ، ولا على شيء غير ما
ذكرته ، بما أمكن الوقوف عليه لمن كلفته بقراءتها .
ولكنني رأيت في مجلة العاديات ما هذه خلاصته :
(أما الجامع فهو قديم جداً ، لأن مئذنته هي من سنة
٤٢٧ هـ ، وعليها كتابات لم نجد سبيلاً إلى استطلاعاتها كلها
ولكن عرفنا أن الأولى منها بقلم ريحاني . ، والثانية التي
في البرج الثالث هذا نصها : محمد بن قانت بن قاهر
ابن علي ، والثالثة على البرج السابع . . . وما يذكره التاريخ
عن هذه المئذنة أنه في عهد الصليبيين ، وعن أمرهم كان قد
علق الناقوس فوقها ، وكان هذا الحكم قد أصدر في شأن
مئذنة حلب أيضاً ، ثم ألغي كلا الأمرين ، ورجع الحق
إلى نصابه) .

هذا ما ذكره أصحاب هذه المجلة ، والعهدة عليهم لأنني
لم أتول قراءة المکتوب على المنارة بنفسي ، ولم أجد تاريخاً
ذكر أنها بنيت سنة ٤٢٧ هـ ، ولا علق عليها صليب .

ولكن جماعة من الفرنسيين وغيرهم توهموا أن هذه
المنارة من بناء الصليبيين، وحجتهم في ذلك النقش المرسوم
على البرج الثاني، وقد تبين أن الكتابة التي عليه، وعلى
غيره اسلامية، عربية، وبما لا شك فيه أذا نقشت في
زمن بناء المنارة، وقد تقدم أن باني المنارة هو الذي بنى
المدرسة سنة ٥٧٥ هـ فلا مساغ للشك، أو التوهم، فالمنارة
والجامع بوضعه الحاضر إسلاميان، عريان، من أساسهما إلى
رأسهما، ما عدا الجدار الشرقي الذي وراءه المراحيض
فانه قديم.

ورأيت في الجزء الأول من (تاريخ خلاصة الأثر في
أعيان القرن الحادي عشر للمحي^(١)) في ترجمة الشيخ
أحمد بن محمد القادري الحموي الجيلاني، أنه بنى جامع
المعرة في جملة ما بناء، ولكن لم يفصل ما هو المبني، وكانت
وفاة المذكور سنة ١٠٣٠ هـ.

أما ماء المسجد فيخرج من رَكِيَّة عميقة، يسمونها ساطورة،

(١) المحي : خلاصة الأثر ١ : ٢٩٣ (ج)

بالدلاء على دولاب شبيه بدواليب البساتين السابق ذكرها ،
ويسيل في ساقية على الجدار الذي يصل بين الجامع وبين
الركية ، ثم يصب في خزان كبير قبلي المراحيض إلى الغرب
وهي تبلغ واحداً وعشرين مرحاضاً ، ومنه يملأ المتوضئون
الماء بأباريق من فخار بواسطة حنفيتين ، ومنه يسيل إلى
الحاصل الذي في جدار المسجد ، ثم إلى حنفية كيوان ، ثم
إلى البركة ، وإذا تغير من الوسخ أسيل إلى الحديقة كما ذكرنا .
وقد أحدث المتأخرون في الجهة الشرقية الشمالية من
الحرم القبلي ، مكاناً يتوضأ منه الناس ، بدلاً من حنفية
كانت في جداره بين البابين الآخرين من جهة الشرق ، فوضعوا
حنفيات متعددة يسيل منها الماء للتوضؤ ، وجعلوا تحتها
ساقية على طول المحل ، ينزل عليها الماء المستعمل ، ثم يسيل
إلى المراحيض .

ولهذا الجامع أوقاف كثيرة ، يقوم بها متول ، تعينه دائرة .
الاقواف ، وجاب يجي غلاتها ورعيها ، ويقال : إنها كانت
كثيرة ، ثم عبثت بها أيدي الخونة كغيرها من الاوقاف ، فلم
يبق إلا هذا .

عدد	
٨٢	دكان في المعرة
٢٦	دار
١٧	كرم
٣٤	أرض
٤	أرض مغروسة زيتونا
٥٥	أحكار
٣٠٠	جفنة كرم في كفر قلا، وهي مزرعة في كُفر رُوما
١	نصف بيت في كفر روما
	ربع الجب في صفة الحاكورة
	نصف حاكورة العوسجية

مسجد الشيخ عطا:

ومن المساجد المشهورة مسجد الشيخ عطا ، وهو في الجهة الغربية من منتصف البلدة ، ولم يكن في سنة ١٣١٩ هـ شيء من الابنية ، بينه وبين جبانة بني الجندي والمقابر الواقعه غربي البلدة ، وهو في نَشْر من الأرض ، يحده من

الغرب طريق يمر من المحلة الشمالية من جنوبي العنبر «الأبنار» إلى المحلة القبليّة الغربيّة ، ومن الشمال طريق أخذ من الجبانات المذكورة إلى السوق ، ومن الشرق هذه الطريق ، وأبديّة حدثت في هذا العهد وكان أمامه من جهة الشرق الجنوبي «حَيْر» يمتد إلى جهة مدفن أبي العلاء ، وليس فيه عِمارة مطلقاً ، ثم أخذ الناس يبنون فيه دوراً بعد سنة ١٣١٠ هـ . وهذا المسجد يصعد إلى بابه من الشرق بوضع درجات ، يدخل منه إلى ساحة طويلة ، فيها بئر ماء ، بينها وبين الحرم قبر عليه شعر تركي مؤرخ سنة ١١٩٣ هـ يقال : إن فيه رجلاً باشا من الترك ويليّه قبور مندرسة ، لم نعلم أصحابها ولا تاريخها ، وعن يسار الداخل من باب الساحة منارة ، منقوش عليها من الجهة الغربيّة كلمات ، أمكنّا أن نقرأ منها هذه : «لما كان بتاريخ شهر شعبان المعظم . . بناء هذه المنارة الفقير نجم الدين سنة ٧٥٥ هـ .»

ثم يلي المنارة من الجنوب والغرب غرفة فيها قبران : أحدهما للشيخ قدور الكيّال ، والثاني لأبيه ، ثم يليها الحرم في جنوبي الساحة والقبور والغرف .

ويزعم الناس أنه فيه قبر عطاء الله بن أبي رباح الصحابي
وأخذ عنهم أصحاب مجلة العاديات ، فقالوا في الكلام على
المعرة : وفيها جامع فيه غار يشتمل على قبر عطاء الله بن أبي رباح
حامل لواء النبي ...

وهذا القول باطل من وجوه كثيرة : منها أن عطاء ولد في
آخر خلافة عثمان ، وتوفي في مكة سنة ١١٥ هـ أو سنة ١١٤ هـ أو
سنة ١١٧ هـ كما ذكره النووي في تهذيب الأسماء^(١) ، فليس بصحابي
ولا حمل لواء النبي ولا دفن في المعرة ، وليس قبره في غار ، ولا في
المسجد المذكور غار أيضاً .

وأظن أن عطاء هذا هو باني المسجد ، أو رجل صالح دفن
فيه ، أو كان يقيم فيه ، ويؤيد هذا أنه مشهور بمقام الشيخ
عطاء ، وما عرف أن أحداً من المتقدمين يلقب أحداً من
الصحابة بشيخ .

ومنها مسجد يُوشع بن نُون (ص) ، وهو في جنوبي المدينة

(١) محيي الدين النووي : تهذيب الأسماء واللغات ٣٣٣ (ج) .

الشرقي ، وليس في عهدنا هذا بناء في شرقيه ولا جنوبيه إلا قليلا ، وفي كلتا الجهتين آثار أبنية في الأرض ظاهرة .

ولهذا المسجد باب من جهة الغرب يدخل منه إلى ساحة صغيرة في صدرها ، مقابل الباب صُفَّة كالاَيوان ، وفي طرف الباب منارة ، وفي الجهة الشمالية من الساحة بناء يقال : إن فيه قبر يوشع ، ويليه من الجهة الغربية غرفة ، اتخذها بعض القراء البصراء مكتبا لتعليم القرآن ، وفي الجهة الجنوبية حرم المسجد ، وبين الحرم من الجهة الشرقية والاَيوان مدخل إلى المراحيض ، وأمامها ساحة تشبه الحديقة ، فيها بعض شجيرات ، والناس يعتقدون أن يوشع عليه السلام مدفون في هذا القبر ، وشايعهم بعض المؤرخين الذين يتلقفون الأخبار من العامة .

وأكثر المؤرخين على أن يوشع دفن في أرض ميرائه ، قيل : في نابلس وقيل : في ثمنة سارح في جنوبي نابلس .

قال ابن الشَّحَنَة ^(١) : وفي معرة النعمان فيما زعموا قبر يوشع بن نون عليه السلام ، في مشهد هناك ، جدد عمارته الملك الظاهر غياث الدين غازي ، ووقف عليه بالمعرة وقفًا

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ٩٨ .

وهو يزار ، ولما خرج الملك المعظم فخر الدين توران شاه من حبس مصر ، اشترى له بالمعرة أرضا ، ووقفها عليه ، وفوق باب هذا المسجد حجر مكتوب عليه أن بانيه غياث الدين غازي سنة ٦٠٤ هـ .

وقال ابن سعيد المغربي في تاريخه : إن يوشع مدفون في المعرة .

وقد تقدم عن صبح الأعشى أن قبر يوشع داخل المعرة ، وقال ياقوت : وفي جانب سورها من قبل البلد ^(١) قبر يوشع فيما قيل ، والصحيح أنه بأرض نابلس . وقد زار المعرة الشيخ أمين الجندي الحصي ، فلما دخل مقام سيدنا يوشع (ص) قال قصيدة يمدحه فيها مطلعها :

قلبي لشمس جمال حسنك مطلع افهل يرى فيه لغيرك موضع
وفيها يقول :

مالي إليك وسيلة في نيل ما أملتُه الا نبئك يوشع
ويقول :

كف به أهل المعرة قد نجوا من هول كل معرة تتوقع

(١) لعله قبلي البلدة لأنه واقع في طرفها القبلي كما ذكرنا (ج) .

وقد جرت عادة المعريين في عهدنا أن يجتمعوا في هذا المسجد في أوقات معينة ، منها يوم المولد النبوي في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من كل سنة ، فانهم يجتمعون بعد صلاة الظهر من اليوم المذكور في الجامع الكبير العمري لاستماع قصة المولد ، وبعد انتهائها فيه يجتمعون في هذا المسجد لسماعها أيضاً ، وبعد انتهائها يوزع على الحاضرين صرر فيها ملابس ، ثم ينصرفون . ومنها : ليلة نصف شعبان من كل سنة ، فانهم يخرجون من الجامع الكبير بعد صلاة العشاء ، وهم يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير في الطريق من الجامع إلى هذا المسجد ، فيزورون المقام ، ثم ينصرفون كما جاءوا إلى مقام أؤيس القرني ^(١) ، وفي يوم نصف شعبان يطبخون أرزاً ومعه طعام آخر ، ويطعمون الفقراء منه ، ويوزعون قسماً منه على الفقراء وقسماً على فريق من الأغنياء للتبرك به .

(١) هو أؤيس بن عامر ، من بني قنر ، كان أحد العباد المقدمين من التابعين ، أصله من اليمن كان يسكن القفار والرمال ، روفد على عمر بن الخطاب ، ثم سكن الكوفة ، وشهد وقعة صفين مع علي ابن أبي طالب ، ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها (ملخصة عن الأعلام للزركلي ١ : ٣٧٥) .

ولهذا المسجد أوقاف كثيرة ، كان ينفق عليه من رعيها ،
ثم أصبحت نهياً مقسماً بين المتولين والمتغلبين ، فلم يبق إلا
النَّزْر اليسير منها :

ثلث مزرعة دير دورين .

وربع فدان بيد أهالي كفر روما .

وثلث مزرعة ترنله بيد أهل كَفَر رُومًا .

جميع مزرعة كفر قنا في كفر روما .

أراضي بالخمسة في كفر روما .

ثلث مزرعة معرة بيطر في قرية حاس .

ثلث مزرعة أبي مكى في قرية جَرْجَنَاز .

ثلث مزرعة معران .

فدانان في كفر يعليل ضايعة ، وهي بيد أهل جرجناز .

ربع مزرعة كفر ناول ضايعة ، وهي بيد أهل الدير .

جميع مزرعة جامع خرارين .

سدس مزرعة صهيان ضايعة .

نصف قرية تَلْ مَنْس .

- أرض في بسوقلا مع أهل تل منس .
- ثلث مزرعة تل جراد في الروج .
- ثلث مزرعة داجرة في قرية معر شورين .
- أرض سلم الرجم بقرب قرية معر شورين .
- ثلثا مزرعة بليصا .
- خمس مزرعة السقيعة قريباً من الصرمان .
- ثمانية فدادين في قرية كفرنبيل .
- أرض عجم في قرية الفطيرة .
- أرض زيتون في معر بلت .
- أرض في باب إيلا .
- أرض زيتون في قرية جبالا .
- شجر زيتون في قرية سجننا .
- أرض في قرية معر زيتا .
- زيتون في قرية معر شمشة .
- مزرعة رجم الصنف قرب قرية الغدقة .
- نصف مزرعة تل جبرين .

- أرض في سته ضايعة .
- بستان الزعكل في المعرة بيد بني العظم .
- حقل الجورة ضايعة .
- حَير في دار السلطان في المعرة ضايعة .
- راية العمود في المعرة ضايعة .
- أرض وادي بنا في المعرة .
- حير ابراهيم التركماني في المعرة ضائع
- أرض حقل السواد بالمعرة ضائعة .
- حائران في البرّيج .
- أرض قرب تل سريج .
- أرض في وادي البيطار .
- حضة الباسليق .
- أرض في الباسليق .
- حقل الشمس ..
- سهم الفستقة .
- أرض جريا .

حائر القبر .

حوائر حارة الشهالية .

أرض عند الشيخ حمدان .

سدس ثلاث قطع .

والظاهر أن كثيراً من الأوقاف استباحها جماعة من المتغلبين ،
فغيروا أسماءها ، فضاعت على الوقف .

وقد رأيت كتاباً من أمير الحاج إبراهيم والي الشام مؤرخاً
في ١٩ صفر سنة ١٢٠٥ هـ ، إلى متسلم المعرة عبد القادر بك ،
يذكر فيه أن لوقف سيدنا يوشع معيناً في بعض مزارع الميري ،
في كل سنة تسعة مكايك خنطة بكيل الحاصل ، ويأمره فيه
أن يدفعها إلى السيد محمد الجندي ^(١) ، وأن لا يتخلف عن
دفعها في كل سنة .

ورأيت فرماناً ^(٢) من السلطان العثماني مؤرخاً في جمادى
الآخرة سنة سبع ومائتين وألف ، يتضمن أن نصف تولية وقف

(١) هذا جد أبي (ج) .

(٢) أي أمراً ملكياً أو سلطانياً .

سيدنا يوشع والوظيفة المرتبة لها ، وهي آفجة ^(١) عدد ٢ كل يوم ، انحلت عن الشيخ ياسين ، ووجهت إلى أخيه الشيخ محمد خليفة شريكه في التولية .

مسجد أوبس القرني ، أو السلطان ويس :

في شرقي المدينة على بعد نحو كيلومتر منها ، قريباً من الطريق الآخذة من حماة إلى حلب مسجد أو مقام ، وهو عبارة عن ساحة قوزاء ^(٢) ، ممتدة من الغرب إلى الشرق تبلغ نحو (٢٢) متراً ، ومن الشمال إلى الجنوب نحو (١٧) متراً ، ويتصل بها من الغرب الركية المشهورة بركية العرائس ، وفي جنوبي الساحة إيوان كبير ، في غربيه غرفة كبيرة ، يزعمون أن فيها قبر أوبس القرني ، وفي شرقيه غرفة ثانية ، وإلى جانبها من الشرق درج يصعد منه إلى سطح الايوان والغرفتين ، وطول هذا البناء طول الساحة ، وعرضه ستة أمتار ، والباب في جدار الساحة الشمالي مقابل الايوان ، وقد مات لبعض أمراء الترك ولد ، فدفنه في هذه الساحة ، فاقتفى الناس أثره في دفن

(١) هي قطعة من اللند التركي الصغير المتداول في ذلك العصر .

(٢) أي واسعة .

الصغار ، ثم الكبار ، حتى أصبحت الساحة مقبرة مكتظة بالقبور وقد توفيت لي ابنة صغيرة فدفنتها هناك ، وأهل المعرة يعظمون هذا المقام ، ويكثرّون زيارته ، وتقريب القرابين والوفاء بالندور فيه ، لأنه في سهل فسيح يتصل به من الشرق بساتين من ورائها كروم العنب ، فيجمعون بين الطاعة والاسترواح .

وقد رأيت في تاج العروس ^(١) ما يفيد أن مقام أُوَيْسَ القرّني بكفر الحمى بالقرب من زبيد .

والصحيح أن أويسا قتل في صُنَيْن مع علي بن أبي طالب ، كما ذكره ابن حجر في كتابه الإصابة ^(٢) ، وابن الأثير في (أسد الغابة) ^(٣) على أن هذا المقام ، أو المسجد كان ولا يزال مشهوراً في المعرة بأنه مقام السلطان ويس .

مسور السبخ محمدان ، أو مقام السبخ :

يزعم فريق من أهل المعرة أن فيه قبر الشيخ محمد الهمداني

(١) الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٦١١ .

(٢) ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ١ : ١١٨ - ١٢٠ .

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ١ : ١٥١ ، ١٥٢ .

وهو مسجد قائم في الجهة الشرقية الشمالية من المدينة ، شمالي مسجد أُويس القُرَني إلى الشرق ، بينها ما يقرب من كيلو متر ، وليس بينه وبين مدرسة ابن الوردِي بناء في عصرنا الحاضر ، وحوله من الشمال والغرب قبور قديمة وحديثة ، وآثار أبلية قديمة ، وفي شماليه كروم ، وفيها أشجار من التين والرمان وغيرهما ، وفي جنوبيه فسحة فيها آثار قبور ينحدر منها إلى الطريق الموصلة إلى مسجد أُويس ، وفي شرقيه فسحة ينحدر منها إلى طريق حلب المذكورة ، وقد كانت بعض قبور شرقي الطريق أيضاً ، فدرسها أصحاب الارضين ، وأضافوها إلى أرضهم .

وهذا المسجد له باب صغير يتجه إلى القبلة ، يدخل منه إلى ساحة فسيحة ، في غربيها بئر ماء قديمة ، وتنتهي الساحة من الشمال إلى الشرق بدرج يصعد منه إلى القبة ، وهذه القبة فيها ضريح يقال : إن فيه الشيخ حمدان ، ولها نوافذ من جهاتها الأربع ، شبايكها من حجارة محكمة الصنع ، وامامها من الجنوب رواق على قدر القبة :

وفي جنوبها في آخر الساحة مما يلي الباب إيوان كبير ، له نوافذ من جهاته الثلاث ، شبائيكها من حجر أيضاً ، ويلي الايوان من الشرق درج يصعد منه إلى سطح الايوان ، والايوان متقدم كله على الباب .

وهذا المسجد يتخذة المقامرون والحشاشون وأرباب الدعارة ، مقرأ لهم في بعض الاحيان ، ويتخذة النساء متنزها هن في الربيع والصيف والخريف يجتمعن فيه ويجمعن بين التزه ووفاء الذور وزيارة القبور .

ولم أقف على شيء يبين لي حقيقة الشيخ حمدان ، وهذا المسجد .

مسجد الرهباني :

في شمالي المدينة ، وآخر بناء منها في تلك الجهة .

جامع الفيض :

جامع الفطرة :

جامع الشيخ محمد الرشيدي :

هو في شمالي المدينة الغربي ، وفي الشمال الشرقي من مصلى بني الجندي الواقع في شمال جباتهم ، وعند المنحدر الذي ينزل

منه إلى وادي الجنان من المدينة ، وقد كان موضعَ هذا المسجد أنقاض متراكمة مساوية للطريق ، ثم مرَّ رجل فقير بالمعرة ، وكان شديد الولوع بالتنقيب عن مقامات الصالحين ، فحفر هذا المكان ، وأزال ما كان فيه من الحجارة والتراب ، فأنكشف عن ساحة صغيرة فيها قبور ، وفي جنوبيها جدار فيه محراب ، والبناء كله قديم ، محكم متقن ، وبينه وبين دور المدينة إلى الشرق نحو خمسمائة متر ، وإلى الجنوب حيز^(١) ينتهي ببناء قديم ، فيه قبة قديمة في دار قديمة ، يقال لها : دار الجندي ، وبابها يشبه باب الحمام أو المسجد ، ثم كشف في هذا العهد في جهة الدار الغربية عن آثار مسجد ، ووجد في غربيه قبر عبد الكريم الداودي المتقدم ذكره في الزاوية الداودية .

ولما فتحت الحكومة الطريق ما بين المعرة وأريحا ، وقع هذا المسجد شرقي الطريق الذاهب من هناك إلى جهة القلعة . وحول هذا المسجد آثار أبنية قديمة من الجنوب والشرق والشمال ، ولا يبعد أن يكون هناك سور للمدينة وباب الجنان .

(١) في الصحاح للجوهري ١ : ٣١١ : الحيز بالفتح شبه الحظيرة أو الحمى .

مسجد الشيخ محمود :

هو في المحلة الشمالية ، وهو اليوم عبارة عن بقعة مستطيلة مسورة بأربعة جُدر ، محاطة بالطرق الضيقة من جهاتها الأربع في وسطها قبور ، وليس لها سقف ، ولا تقام فيه صلاة .
وقد زرت المعرة سنة ١٣٦٦ هـ فوجدت هذا المسجد متهدماً ، وقد ذهب بعض حجارته ، وسيذهب الباقي منها ، لان دائرة الاوقاف هناك لا تعنى بالابنية العامة ، فكيف بالمتهدمة .

جامع موسى بك :

هو في المحلة الشمالية أيضاً في الجهة الغربية .

جامع باكير أغا

جامع الشيخ فابل

جامع السيد يوسف :

هو في المحلة القبلية ، وهو جامع صغير له باب من جهة القبلة ، يدخل منه إلى ساحة صغيرة ، ينزل منها بضع درجات إلى ساحة ، في شمالها إيوان ، وفي جنوبها الحرم . وهذا المسجد تقام فيه الصلوات أحياناً . وقد بناه السيد يوسف رئيس الاسرة .

التي تسبب إليه في المعرة وسيأتي ذكره .
وهذا الجامع متصل بداره العظمى من الجهة الشرقية الجنوبية .

جامع زقاق رازم

جامع الشيخ محمد المصري :

هو في المحلة القبلية ، بالقرب من الشكنة ، في جنوبيها من الغرب ، وفيه قبة تحتها قبر الشيخ محمد المصري ، وبجانبها غرفة فيها ضريح يقال : إن فيه عبد الله بن المغيرة ، وفيه قبور يقال : إنها لبعض الصحابة ، وهذا كله أصبح اليوم في ساحة من مسجد بناء رجل يقال له : مصطفى من بني الحصتين ، تقام الآن فيه الصلوات غير الجمعة .

جامع المعوسى

جامع الخابزة

جامع الشيخ أبي بكر

جامع بني النميل

جامع بني البر

جامع الشيخ ربيع

جامع بني الأصغر

جامع نور الأبصار

مسجد أبي العلاء :

وهو في المحلة القبليّة ، في غربيّه طريق آخذ من الشمال الى جنوبيّه ، وغربي هذا الطريق من الشمال حيّز ينتهي بطريق يفصل بينه وبين حيّز آخر يسمى الحيز الكبير ، وهذا ينتهي بالجبانة الغربيّة .

وفي شمالي الحيز الأول من الغرب مسجد الشيخ عطاء الله السابق ذكره ، وقد قدّمنا أنّه حدث فيه عُمران في عصرنا هذا . وفي شمالي مسجد أبي العلاء وشرقيّه دور .

ولهذا المسجد باب صغير من الجهة الغربيّة ، يدخل منه إلى ساحة طولها من الشمال الى الجنوب نحو ثمانية أمتار وسبعين سائمتراً ، وعرضها من الشرق الى الغرب نحو ستة أمتار واثنين وثمانين سائمتراً ، وفي شمالي الساحة صُفّة مرتفعة نحو (٣٠) سائمتراً واصلة ما بين الجدار الغربي والمدفن الذي فيه الباب وعرضها (١٢٠) سائمتراً وفيها بعض الشجيرات .
‡ (٢٤)

ويقابل هذا الباب الغرفة التي فيها قبر أبي العلاء ، ولها باب صغير يتجه الى الغرب ، وطول هذه الغرفة (٣،١٨) وعرضها (٢،٩٥) وفيها قبة ارتفاعها أربعة أمتار تقريباً .

وتحتها القبر وطوله (١،٢٥) وعرضه (٧٥) ساتيمتراً تقريباً وفوقه حجران قائمان مكتوب عليهما بالخط الكوفي وطول التي عند الرأس متر واحد .

ويتصل بالقبة من الجنوب غرفة صغيرة تزيد في طولها نحو متر عن الغرفة السابقة ، وعرضها نحو عرض الأولى ، وارتفاعها أقل بنحو متر ، وفيها شيخ بصير يقرأ الأطفال القرآن .

وفي جنوبي الساحة الأولى الخارجية مسجد طوله من الشرق الى الغرب (٦،٥٠) وعرضه من الشمال الى الجنوب (٥،٥٥) وفي جنوبي هذا المسجد من الغرب قبر طويل مكتوب عليه بالخط الكوفي ، استطعنا أن نقرأ من المكتوب عليه سورة الإخلاص .

وفي هذا المسجد محراب وليس فيه منبر ، وفي جداره الشرقي باب يخرج منه الى ساحة فسيحة ، طولها من الشمال الى الجنوب (١١،٧٥) ، وعرضها من الشرق الى الغرب

(٦٠٣٧) وفيها قبر طوله نحو مترين ، وارتفاع شاهدته نحو متر ، وقد كان فيها قبور كثيرة ، أخذ حجارتها جيرانها وكسروها ، وجعلوها في عمارتهم ، ولا يزال فيها القبر المذكور وأثار غيره . وفي الساحة المذكورة بئر ماء يتوضأ منه المصلون ، وفيها شجيرات من التين والرمان .

وأصل مسجد أبي العلاء ساحة من دور أهله عليها باب قديم صغير ، هكذا قال جمهور من المؤرخين .

وهذا الرسم الأول فيه صورة باب الغرفة ، وفي داخلها القبر مع شيء من الساحة الخارجية ، وباب الغرفة الثاني وشجرة في الساحة . والصور الرابع التي تليها صور الحجرة المكتوبة على قبر أبي العلاء وقد استعصى علينا قراءة بعضها ، فرغبنا إلى أحسن رجل بدمشق في عصرنا يحسن قراءة مثل هذه الآثار وهو مدير الآثار فيها ، فرسم لنا صورة ما استطاع قراءته منها وهي هكذا .

رقم (٢) الله لا إله إلا هو الحي القيوم .

رقم (٣) رحمة الله عليه .

رقم (٤) أبا العلاء بن عبد الله بن سليم ولعلها سليمان ،
وهذا الحجر هو الذي وضع فوق قبره الآن وحده .

رقم (٥) أبا العلاء بن سليمان رحمه الله تعالى . الثاني الخميس
ليال مـضـو . . رمضان سنة . . وثلثين وخمسمائة .

هذا ما بينه لنا ويظهر في هذه الحـجـارة ؛ أن قبل لفظ الجلالة
في الرقم (٢) كلمة لم تفهم .

وفي أعلى رقم (٣) كتابة على شكل نصف دائرة ، لم تمكن
قراءتها .

وفي أعلى رقم (٤) كلمات محطمة لم تمكن قراءتها أيضاً ،
وأظن أن كلمة سليم فيها ، وهي سليمان .

وفي الرقم (٥) كلمات عـسـر فهمها ، وما قيل : لفظ خمسمائة
أقرب ، إلى رسم ثمانين منه ، إلى رسم ثلثين .

وهذا التاريخ على علـاتـه بعد وفاة أبي العلاء بكثير من الزمن
لأن أبا العلاء توفي سنة ٤٤٩ هـ .

فإما أن يكون هذا التاريخ لعمل القبر لا للوفاة ، ولكن
ذلك غير معروف ولا مألوف ، وإما أن يكون الحجر الذي

عليه تاريخ وفاة أبي العلاء قد فقد ، واستبدل بحجر عليه تاريخ أحد أقربائه من بني عبد الله بن سليمان .

ولا يستبعد أن يكون الحجر الأصلي حطمه بعض المتورعين ، لأن المعرة أتى عليها حين من الزمن كانت تعد فيه أبا العلاء من الزنادقة والملحدين ، كما سيأتي في ترجمته عن ابن الوردي وغيره .

أو أن يكون الحجر الأصلي باعه أحد الرعاع الجهلة ، أو أخذه وحطمه ، وجعله في بناء داره .

وقد أخبرني بعض علماء حلب ، أنه زار المعرة ، ورأى حجراً إلى جانب قبر أبي العلاء ، فادعى أنها شاهدة قبره ، ورفع حجراً من القبر ووضع مكانه ، وإنما لا شك فيه أن ذلك الحجر الذي وضعه ليس الحجر الأصلي ، وقد فاتني أن أسأله أي حجر هو ، ولكنني أعتقد أنه ذو الرقم (٥) لأن خطه مخالف لخط الحجارة الباقية ، وعلى هذا يكون هذا الحجر من قبر آخر ، والتاريخ لغير أبي العلاء .

وقد زار هذا القبر القفطي ^(١) بعد الستمائة ، فرأى عليه
خُبَازَى يابسة ، وهو على غاية من الإهمال ، ورآه الذهبي ^(٢)
بعد ذلك بمائة سنة ، فرآه كما رآه القفطي .

فاما أن يكون قبره كان مكشوفاً ، ثم بنيت عليه الغرفة
والقبة ، وإما أن يكون رأى الخبازى في ساحته ، لأن الغرفة
التي فيها القبر لا يعيش فيها نبات ، لأن الشمس لا تدخلها ،
وليس لها إلا باب صغير يتجه إلى الشمال ، وأرضها مفروشة
بالبلاط ، وزاره علاء الدين بن المظفر الوداعي سنة ٦٧٩ هـ

(١) هو علي بن يوسف بن ابراهيم القفطي . عالم ، أديب ، مشارك في
النحو واللغة والفقه وعلم القرآن والحديث والأصول والمنطق والفلك
والهندسة وغير ذلك . ولد بمدينة قفط بمصر ، ونشأ بالقاهرة ، ورحل
إلى حلب وولي الوزارة فيها ، وتوفي بها . له تصانيف كثيرة في
عدة علوم .

(ملخصة عن معجم المؤلفين لأمير رضا كحالة ٧ : ٢٦٣ ، ٢٦٤)
(٢) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الأصل
ثم الدمشقي الذهبي . محدث ، مؤرخ . ولد بدمشق ، وسمع بحلب
وبنابلس وبمكة من جماعة ، وسمع منه خلق كثير ، وتوفي بدمشق .
له تصانيف كثيرة في الحديث والتاريخ .

(ملخصة عن معجم المؤلفين لأمير رضا كحالة ٨ : ٢٨٩ — ٢٩١) .

فراه قد دثر ولصق بالأرض ، وهذا يؤيد أن البناء الذي فوق
القبر حادث ، وصفة البناء وأوضاعه تشهد لذلك .

وزعم صاحب (نهر الذهب) ^(١) أن هذين البيتين :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة نفيسة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيره منه إلى الصدف
مكتوبان على قبر أبي العلاء . وهذا غير صحيح اذ ليس على
القبر شيء منها وانما هما مكتوبان في قطعة من ورق ، كتبها
استاذنا الحاج أبو بكر صدقي الديوريكي ، حين كان معلماً
للمكتب الرشدي في المعرة في نحو سنة ١٣١٣ هـ ، وفيهما تحريف
وقد صححتهما ، وكتبتهما على قطعة صغيرة بقلم رصاص في
السنة المذكورة بخطي .

وقد ذكر صاحب (الروضتين) ^(٢) هذين البيتين :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ثمينة صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها فردها غيره منه إلى الصدف
للأمير شبل الدولة مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري قالهما

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ١ : ٤١٨ (ج) .

(٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ص ٢٦ (ج) .

في الوزير نظام الملك الحسن بن علي بن اسحق الطوسي المتوفى
سنة ٤٨٥ هـ .

وذكرهما في (الكامل)^(١) وروايته لؤلؤة يتيمة . عزت فلم
تعرف ورواهما له الأُبَشِيهِي^(٢) في (المستطرف) : وروايته لؤلؤة
يتيمة عزت ولم تعرف .. فردها عندما عزت إلى الصدف .

كيفية بناء ضريح أبي العلاء الجبريد :

في نحو سنة ١٣٤٤ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٥ هـ عازمت الحكومة
السورية على بناء ضريح لأبي العلاء المعري ، ثم وقفت عن
العمل بسبب نشوب الثورة السورية .

فلما استقرت الأمور أثار أحد النواب هذه القضية في
الجلس النيابي المنعقد في سنة ١٣٥٢ هـ الموافقة لسنة ١٩٣٣ م ،
واقترح على الحكومة أن تطبع مجموعة من الطوابع البريدية
باسم أبي العلاء المعري في عهد أول جمهورية سورية ، وحاول
بعض النواب بمالأة للحكومة ، أرجاء البحث في هذه القضية

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ٨٥ (ج) .

(٢) الأُبَشِيهِي : المستطرف في كل فن مستظرف ٢ : ٣٤٠ .

وتسويقها ، ولكن النواب الآخريين اشتدوا على الحكومة ، فأقرت هذا الاقتراح ، وظهرت الطوابع في سنة ١٣٥٣ هـ الموافقة لسنة ١٩٣٤ م ، ونقش عليها رسم أبي العلاء ، وبيعت في عهد قليل ثم فترت عزيمة الحكومة ، وقام فريق من الأدباء يطالبونها بانجاز هذا العمل ، فعمدت إلى الموسيو ايكوشار المهندس المعماري الفرنسي ، أن يضع شكلاً للقبر والبناء الذي يحيط به ، يكون على طراز المدارس الاسلامية القديمة ، فاتم ذلك في أكثر من عام ، وجعل موضعاً للمكتبة بجانب الضريح على نمط الأبنية في القرن الرابع الهجري ، بحيث يرى منها الضريح القديم . وقد أزيلت الدور التي كانت تكتنف مسجد أبي العلاء من الغرب والشمال

وقد شرع في هدم المسجد والضريح المذكورين في ٦ آب سنة ١٩٣٨ م ، وقد زرت المعرة في ذلك العهد ، ورأيت العمال يهدمون حجارة الجدران فوق القبر ، فتشطم الحجارة من الطرفين ، فاعلمت رئيس البلدية بذلك ، فأوصاهم بأن يغمروا القبر بالتراب حتى لا تنهشم حجارته .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم السبت ، وهو اليوم السابع من شوال سنة ١٣٥٨ هـ ، والثامن عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٩ م ، وضع الحجر الاساسي من البناء المذكور ، بحضور جماعة من الحكومة السورية ، رئيس مجلس المديرين ومدير العدلية ، ومندوب المفوض السامي الموسيو هوتكلوك ، ومستشار الداخلية الموسيو فوكنو ، ومحافظ مدينة حلب ، ومندوب المفوض فيها ، ورئيسا البلدية والنافعة ومدير الشرطة فيها وبعض رجال الصحافة .

وخطب الموسيو هوتكلوك خطبة أعرب فيها عن سروره باشتراكه في هذه الحفلة ، وذكر شهرة أبي العلاء ، وأنه كان أبدع مظهر للذكاء العربي .

ثم أذاعت دائرة المطبوعات في الجمهورية السورية في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٥٨ هـ و ١٩ كانون الاول سنة ١٩٣٩ م بلاغاً ذكرت فيه أن قد تقرر تأسيس مكتبة في معرة النعمان خاصة بأبي العلاء ، تقام بجانب ضريحه ، وتحتوي على مؤلفاته ، وما ألف فيه في اللغة العربية وغيرها ، لتكون مصدراً يرجع

إليه من يود دراسة أدبه وفلسفته ، وأن بلدية المعرة تنقبل بالشكر كل ما يهدى إلى هذه المكتبة من كتب مطبوعة ، أو مخطوطة ، أو مجلات ، أو غيرها ، وتسجل كل كتاب باسم مهديه ، وقد أهدي لها بعض كتب من نواح مختلفة .

وقد تم بناء ضريح أبي العلاء ومسجده في سنة ، ولكن البناء جاء على شكل يمقته كل من رآه ، وينقم على مهندسه الذي رسم خططه ، والحكومة التي وافقته في البناء على شكله . ولما أكثر الناس لوم الحكومة وانتقادها من أجله ، غيرت خريطة البناء وهدمته ، ثم بنته على شكل جديد ، رآه الناس حسناً بالنسبة للبناء السابق ، ولكنها لم تقم فيه مكتبة ، ولم تجمع كتباً .

ولعل الحكمة في ذلك هي أن الله تعالى قدر على أبي العلاء أن لا يخلو من منقص في حياته وبعد موته ^(١) .

(١) أعلن الدكتور طه حسين باسم الحكومة المصرية في المهرجان الألفي لأبي العلاء الميري (سنة ١٩٤٤ م) تبرعها بالعين من الجنيئات ، فقال : ثم رأت مصر أن تكون مشاركتها في إحياء ذكرى أبي العلاء متصلة بشخصه وبلده ، وقد علمت أن سورية قد جددت

المهرجان الثقافي لأبي العلاء :

وفي سنة ١٩٤٤ م الموافقة لسنة ١٣٦٣ هـ قرر المجمع العلمي العربي في دمشق ، إقامة مهرجان لمرور ألف سنة على ميلاد أبي العلاء المعري ، وخصصت حكومة دمشق لذلك أربعين

قبر الشيخ وأقامت إلى جانبه مكتبة ، فقررت أن تشارك في هذه المكتبة ، وكلفني وزير المعارف أن أعلن أن الحكومة المصرية تتبرع بألفين من الجنيهات لتشتري بها الحكومة السورية بعض ما تحتاج إليه هذه المكتبة من الكتب .

وقد وضع هذا المبلغ باسم المرحوم الأستاذ خليل مردم الأمين العام للمجمع العلمي العربي في أحد المصارف بدمشق ، وقد كلفني الأستاذ المرحوم بأن أبتاع مجموعة كبيرة من أمهات الكتب في الأدب واللغة والتاريخ والتفسير والحديث والفقه الخ . . . فقت بتنفيذ ذلك ، وأرسلت الكتب إلى المعرة ، فوضعت في بناء ضريح أبي العلاء ، وانتفع بها جمهور غفير من طلاب العلم والأدب ، لما ألحق ذلك البناء بوزارة الثقافة والإرشاد القومي سنة ١٩٥٨ م ، وأطلق عليه اسم المركز الثقافي العربي .

وزرت هذا المركز في كانون الثاني سنة ١٩٦٣ م ، فوجدته غاصاً بالمطالعين ، وشاهدت رئيسه السيد عبد العزيز دقّاق يبذل الجهد لازدهار هذا المركز وتقدمه .

وقام هذا المركز بنشاط طيب في خلال عام ١٩٦٢ م ، فزادت كتبه فبلغت ٣١٢٧ ، وبلغ عدد رواد المركز ١٧١٤٣ ، وعدد الندوات والمحاضرات التي أقيمت فيه ١٤ .

ألف ليرة سورية ، ودعا المجمع جماعة من أعضائه وغيرهم ،
للاشتراك بهذا الاحتفاء ، فلبى الدعوة فريق ، وتحلف فريق
آخر لمعازير مختلفة . وقد ابتدأت الحفلة في الساعة الخامسة من
يوم الاثنين ٨ شوال سنة ١٣٦٣ هـ ٢٥ أيلول سنة ١٩٤٤ م
في الجامعة السورية في دمشق .

فافتتح الحفلة رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي
بكلمة نوه فيها بذكر المعري ، ثم تصدى إلى الترحيب بالضيوف
والثناء عليهم .

ثم قال الدكتور طه حسين رئيس وفد وزارة المعارف في
مصر كلمة في الفصول والغايات ، وقد خصص الوقت الذي بعده
للسيد حسن حسني عبد الوهاب وزير القلم في تونس ، ولكنه
لم يحضر .

ثم قال الأستاذ مهدي الجواهري ، ممثل وزارة المعارف في
العراق قصيدة ، عدد أبياتها خمسة وثمانون بيتاً .
وتلاه المستشرق الأستاذ وليم مرسيه ممثل جامعة الجزائر ،
فقال كلمة في موقف الإسلام من العالم الحيواني .

ثم قال بدوي الجبل قصيدة جمع فيها بين مدح أبي العلاء
ومدح رئيس الجمهورية ، وعدد أياتها نحو تسعين : وهي معدة
للإلقاء في مدينة اللاذقية ، ولكنها قدمت عن وقتها لما فيها من
مدح رئيس الجمهورية ، ولتغيب أحد الخطباء وهو حسن حسني ،
وقد أعيدت في اللاذقية في الزمان والمكان المخصصين بها .

وفي اليوم الثاني الثلاثاء ٢٦ ايلول سنة ١٩٤٤ م ، ابتدأت
الحفلة الثانية في الساعة الخامسة في مدرج الجامعة السورية
فألقي السيد احمد أمين ممثل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
ومجمع فؤاد الأول كلمة عنوانها سلطان العقل في نظر المعري
وتلاه محمد اسعاف النشاشيبي من علماء القدس ، فقال كلمة
عنوانها التفاؤل والاثريّة عند المعري . ثم تليت قصيدة للسيد
محمد البرز الدمشقي . ثم قال المستشرق الأستاذ ألفريد غليوم
من جامعة او كسفورد ، كلمة عنوانها المعري في نظر المستشرقين
وقد خصص وقت للأستاذ رضا الشيباني رئيس مجلس النواب
العراقي ليقول كلمة عنوانها لزوم ما لا يلزم في الأدب العربي ،
ولكنه لم يحضر من العراق .

وفي يوم الأربعاء ٢٧ ايلول سنة ١٩٤٤ م ذهبت الوفد
إلى المعرة ، وقد تليت على قبر أبي العلاء في المعرة قصيدة
الأستاذ معروف الرصافي العراقي ، عنوانها شاعر البشر . وقد
وصل الوفد إلى المعرة في الساعة السادسة من اليوم المذكور
وبعد أن استراحوا من عناء السفر ، ذهبوا إلى قبر أبي العلاء ،
فابتدئت الحفلة بقراءة عشر من القرآن الكريم ، أولها « يا أيها
الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، ثم جعلناكم شعوباً وقبائل »
ثم قال الدكتور طه حسين كلمة ابتدأها بأبيات من قصيدة أبي العلاء
غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد

ثم تليت قصيدة الرصافي . ثم ألقى السيد مهدي البصير
كلمة عنوانها على قبر أبي العلاء . ثم ذهبوا إلى مأدبة أعدها
لهم السيد حكمة الحراكي ، ثم ساروا ليلاً إلى حلب .

وفي يوم الخميس ٢٨ ايلول سنة ١٩٤٤ م ابتدأت الحفلة
الرابعة في مدرسة التجهيز في حلب في الساعة الخامسة . وقد
خصصت أول ساعة للأستاذ أحمد حسن الزيات المصري ،
ليقول كلمة موضوعها فن المعري ، ولكنه لم يحضر ، فقال

ابراهيم عبد القادر المازني يمثل الصحافة المصرية ، كلمة عنوانها
بحث أدبي عن أبي العلاء المعري ..
ثم تلا الأستاذ سامي الكيالي كلمة موضوعها الاضطراب
السياسي في عصر أبي العلاء وأثره في بيئته وشعره ، ثم قال
الأستاذ طه الراوي ممثل وزارة المعارف العراقية كلمة موضوعها
سر الخلود في شعر المعري : ثم قال الأستاذ عمر أبو ريشة
قصيدة عنوانها الفيلسوف .

وفي يوم الجمعة ٢٩ ايلول سنة ١٩٤٤ م ابتدأت الحفلة الخامسة
في فندق كازينو في اللاذقية . فقال الأستاذ عبد الحميد العبادي
عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول ، كلمة عنوانها الناحية
التاريخية في أدب المعري . ثم قال الاستاذ جميل صليبا كلمة
عنوانها فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء . ثم قال الاستاذ بدوي
الجميل قصيدته السابق ذكرها . ثم قال الاستاذ محمد الشريقي
كلمة موضوعها أسلوب المعري . ثم قال الاستاذ أنيس الخوري
المقدسي ممثل الجامعة الاميركية في بيروت كلمة موضوعها الروح
العلائية في أدبنا الحديث .

وفي يوم الأحد في ١ تشرين الأول سنة ١٩٤٤ م ابتدأت الحفلة السادسة في الجامعة السورية في دمشق ، وقد كان الوقت معيناً لحسنة خطباء ، ولكن زيد عليهم أكثر من هذا العدد ، فقال الدكتور عبد الوهاب عزام كلمة عنوانها اللزوميات متى نظمت وكيف رتبت ، ثم قرئت كلمة كنت أعدتها لهذه الحفلة ، موضوعها دين أبي العلاء ، وقد لقيت قبولا من السامعين أكثر من كل ما قيل في هذا الاحتفاء ، لأنهم أدركوا أن أكثر الخطباء يتعمد غمز أبي العلاء ليظهر على أكتافه ، وقد ادحضت حججهم وأبطلت مزاعمهم ، وبينت لهم نواحي من أبي العلاء كانوا لا يعلمونها . ثم قال الشيخ عبد القادر المغربي كلمة موجزة من خطبة موضوعها شيخ المعرة والشيخ الدرا . ثم قال الأستاذ هنري لاووست حكمة عنوانها اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء . ثم قال الأستاذ شفيق جبيري قصيدة .

وختم رئيس المجمع الاحتفال بكلمة أثنى فيها على الوفود والحكومة السورية ، وانتهى الاحتفال ، وهذا الذي ذكرنا هو المقرر في برنامج الحفلة في الأصل ، ولكن القائمين بها لم يستطيعوا أن يراعوه فزادوا في كل حفلة أو نقصوا .

وقد زادوا في هذه الحفلة الاخيرة كلمة لمندوب وزارة المعارف اللبنانية ، وكلمة أخرى لجهان الموصلي ، أنكرت فيها على أبي العلاء قسوته على المرأة وارتيابه. فيها ، ثم أقامت له العذر في ذلك ، وكلمة ثالثة لعارف العارف (١) .

(١) وبهذه المناسبة رأيت من الفائدة ادراج كلمة الدكتور جميل صليبا في وصف حفلة افتتاح مهرجان أبي العلاء فقال : لم يكد المجمع العلمي العربي يعزم على إقامة المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري ، حتى ابتداء الاستعداد له في كل مكان . فعهد المجمع إلى لجنته الإدارية في تنظيم المهرجان وتحديد أمكنته ومواقيمته وحفلاته ، فرأت أن يدوم المهرجان اسبوعاً كاملاً من ٢٥ ايلول إلى ١ تشرين الأول ١٩٤٤ م ، وان تشمل حفلاته مدن دمشق وحص وحما ومعرة النعمان وحلب واللاذقية . ودعا المجمع أعضاءه العاملين والمراسلين إلى الاشتراك في المهرجان ، وكلف بعضهم اعداد كلمة تلقى في الحفلات الخطابية ودعت وزارة المعارف السورية ووزراء المعارف في الدول العربية . فأرسلت الدعوة إلى وزراء المعارف في مصر ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وشرقي الاردن ، ولبنان ، وتونس ، والمغرب الأقصى ، واليمن . ودعي أيضاً بجمع فؤاد الأول للغة العربية (اليوم بجمع اللغة العربية) ، ورؤساء الجامعات العربية ، وغيرها وبعض المستشرقين ، ونقباء الصحف في دمشق وحلب وبيروت والقاهرة ، ويمثلو محطات الاذاعة في سورية ولبنان وفلسطين ومصر ، فلبى كثيرون منهم دعوة المجمع .

وقد عرض لي عائق منعي من الاشتراك مع الوفد في

- ولم يحن موعد المهرجان ، حتى توافد المدعوون إلى دمشق ، وحلوا ضيوفاً على المجمع ، والتقى أدباء مصر والعراق وفلسطين وشرقي الاردن وأدباء سورية ولبنان في مكان واحد ، وكان هذا الاجتماع أعظم سوق أدبية شهدتها دمشق في تاريخها .

وكان وفد مصر مؤلفاً من السادة الدكتور طه حسين ، والأستاذ أحمد أمين ، والأستاذ عبد الحميد العبادي ، والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والأستاذ أحمد الشائب . فقدموا إلى المجمع فور وصولهم هدية وزارة المعارف المصرية ، وهي « كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء » الذي طبعته مصر تخليداً لذكرى المهرجان .

وكان وفد العراق مؤلفاً من السادة الأستاذ طه الراوي ، والأستاذ مهدي الجواهري ، والدكتور مهدي البصير

وحضر من فلسطين الأستاذ اسمعاف النشاشيبي . ومن لبنان السادة فؤاد افرام البستاني ، والدكتور عارف العارف ، والأستاذ أنيس النصولي ، والأستاذ أنيس الجوري المقدسي ، ورئيس جامعة القدس يوسف ، والأستاذ رثيف خوري . ومن شرق الاردن الأستاذان أديب وهبة ومحمد الشريقي . ومن ايران الأستاذ عباس اقبال . ومن المستشرقين الأستاذان ألفريد غليوم وهنري لاوست . ومن القدس السيد عزمي النشاشيبي ممثلاً للاداعة والمطبوعات ، فضلاً عن الوفود الأخرى التي مثلت الأوساط العلمية في العاصمة والمدن السورية ، ممن سيأتي ذكر أكثرهم في الخطباء .

الرحلة إلى حنص ، فحاة ، فالمعرة ، ، فحلب ، فاللاذقية ،

وبعد ربّ الوفود في اليوم الأول من أيام المهرجان فخامة رئيس الجمهورية ، ومجلس النواب ، ودار الحكومة . والقي الدكتور طه حسين في مجلس النواب كلمة باسم الوفد المصري ، أعرب بها عن اعتراف مصر بفضل سورية ، لاحتفائها بذكرى أبي العلاء . قال : « وكان طبيعياً أن تقوم سورية بهذا المهرجان الألفي ، فتدعو إليه سائر بلدان العالم العربي . فهي قد أعطت الأدب العربي أكبر شعرائه ولكن أعظم شاعر انساني أنتجته سورية ، وحق لها أن تفخر به على العالم كله ، هو أبو العلاء . فلا غرو إذا سبقت العالم كله إلى الاحتفاء بذكره » فرد عليه رئيس مجلس النواب السيد فارس الخوري بكلمة أشار بها إلى فضل مصر على العالم العربي بأدبائها المعاصرين ومفكرينا ، الذين كان لهم أعظم الأثر في احياء تراثنا الأدبي ووجيها الفكري .

ثم أقام الجمع مأدبة غداء في فندق اوريان بالاس أطلق عليها اسم « المائدة للعلائية » طبخ بها الطعام وعولج على شرط أبي العلاء ، لم يكن فيه لحم ولا سمن ولا بيض ولا لبن .

وكان موعد الحفلة الخطابية الأولى في الساعة الخامسة بعد الظهر في الجامعة السورية (اليوم جامعة دمشق) ، دعا إليها رئيس الجمع العلمي الأستاذ محمد كرد علي وزراء دمشق ، وعلماءها ، وأدباءها ، وأديباتها ، ووجهاءها ، وكبار موظفيها ، وأساتذتها . وأعد في بهو الجامعة للوفود وأعضاء الجمع سدة خاصة حول منبر الخطابة . وربط المنبر بمحطة الاذاعة بدمشق . واتخذت جميع الوسائل الفنية لتسجيل —

ولكنني سمعت من كثير من رجال الوفد ، ومن كان معهم في

— الخطب واذاعتها من محطة الشرق الأدنى . ونصبت علامة المهرجان في صدر البهوين الأعلام السورية. وأعلام الدول العربية . وعرضت آثار أبي العلاء وما كتب عنه في خزائن خاصة عند مدخل البهو ، كما عرضت بعض تماثيل وصور لأبي العلاء صنعها عدد من الفنانين وكانت صدور أعضاء الوفود وأعضاء المجمع مزينة بعلامة المهرجان ، وكانت موسيقى الدرك السوري تستقبل كبار المدعوين بأنغامها .

ولما كان موعد الحفلة أقبل فخامة رئيس الجمهورية (السيد شكري القوتلي) بحاشيته الرسمية ، فجلس على سدة المهرجان بين وفود البلاد العربية وأعضاء المجمع . وبدأت الحفلة بالذميد السوري . وكان برنامجها على الوجه الآتي : ١ — كلمة الافتتاح لحضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية (السيد شكري القوتلي) ٢ — كلمة وزير المعارف (السيد نصوح البخاري) ٣ — كلمة رئيس المجمع العلمي العربي (السيد محمد كرد علي) ٤ — كلمة الدكتور طه حسين رئيس وفد وزارة المعارف المصرية وكان عنوانها (الفصول والغايات) ٥ — قصيدة الأستاذ مهدي الجواهري يمثل وزارة المعارف العراقية وكانت بعنوان (الفيلسوف الحر) ٦ — كلمة الأستاذ أحمد الشايب مندوب جامعة فؤاد الأول (اليوم جامعة القاهرة) وكانت بعنوان أبو العلاء المعري شاعر أم فيلسوف (انتهت كلمة الدكتور صليبا المنشورة في مقدمة المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري) .

وأما الحفلة الثانية فكانت بدمشق وألقيت فيها الموضوعات الآتية :

- ١ — سلطان العقل عند أبي العلاء للأستاذ أحمد أمين ٢ — التناؤل والأثرية في كلام الشيخ للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي ٣ — أبو العلاء —

هذه الرحلة ، أن الجميع كانوا منسورين جد السرور من

- قصيدة للأستاذ محمد البزم ؛ - المعري في نظر المستشرقين للأستاذ
ألفريد غليوم ه - المعري وآراؤه في الإصلاح الاجتماعي للأستاذ
عارف النكدي .

وأما الحلقة الثالثة فقد كانت في معرة النعمان على ضريح أبي العلاء
وألقيت فيها الموضوعات الآتية : ١ - شاعر البشر قصيدة للأستاذ
معروف الرصافي ٢ - على قبر أبي العلاء للدكتور مهدي البصير .
وأما الحلقة الرابعة فكانت في حلب وألقيت فيها الموضوعات الآتية :
١ - أبو العلاء شاعر انساني للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
٢ - سر الخلود في شعر أبي العلاء للأستاذ طه الراوي ٣ - الفيلسوف
قصيده للأستاذ عمر أبو ريشة ٤ - الاضطراب السيامي في عصر
أبي العلاء للأستاذ سامي الكيالي .

وأما الحلقة الخامسة فكانت في اللاذقية . وألقيت فيها . الموضوعات
الآتية : ١ - ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء للأستاذ عبد الحميد
المبادي ٢ - فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء للدكتور جميل صليبا
٣ - الدهر ملك العبقرية قصيدة للأستاذ بدوي الجبل ٤ - أسلوب
المعري ومنهاجه للأستاذ محمد الشريقي ه - الروح العلانية وأثرها في
أدبنا الحديث للأستاذ أنيس المقدسي .

وأما الحلقة السادسة فكانت في دمشق وألقيت فيها الموضوعات الآتية :
١ - لزوم ما لا يلزم متى نظم وكيف نظم ورتب للدكتور
عبد الوهاب عزام ٢ - شيخ المعرة والشيخ الدرا للأستاذ عبد القادر
المعري ٣ - دين أبي العلاء لمحمد سليم الجندي ٤ - اختلاف الآراء -

حفاوة المعريين بهم ، ومعجيين أشد الاعجاب بما رأوه من
طلاقة أوجههم وأستهم وأيديهم .

فقد خرج لفيث كبير من المعرة فرساناً ومشاة ، إلى استقبال
الوفد قبل المدينة ، فلما وصل في الساعة السادسة قبيل غروب

— في فلسفة أبي العلاء الأستاذ هنري لاوست ه — ذكرى أبي العلاء
قصيدة للأستاذ شفيق جبيري .

وهناك كلمات وردت متأخرة فألحقت بالحفلة السادسة وهي من ضحايا
العقل للأستاذ أفرام البستاني ، من هو أبو العلاء الأستاذ أديب وهبة
المعري والمرأة للأنسة جهان الموصلي ، أبو العلاء وأقطاب الفكر
المحدثون للأستاذ عارف العارف ، كلمة الاذاعة الفلسطينية للأستاذ
عزمي النشاشيبي .

وهناك كلمات بعث بها أصحابها لتنشر في كتاب المهرجان الألفي
لأبي العلاء بعد أن تعذر حضورهم إلى دمشق في اسبوع المهرجان
وهي : لزوم ما لا يلزم في الأدب العربي للأستاذ محمد رضا الشيباني ،
أبو العلاء المعري وعلم النحو للأستاذ ابراهيم مصطفى ، بعض ملاحظات
تتعلق بحياة أبي العلاء وآثاره للأستاذ عباس اقبال ، مخطوطات
أبي العلاء المعري في مكتبة جامعة برنستون للدكتور فيليب حتي ،
والناس تخطب في علاك وتنشد قصيدة للشيخ كاظم الدجيلي ، والمعري
والموسيقى للأستاذ فخري البارودي .

الشمس ، استقبلهم الناس بالترحيب والتحية ، وسارت الجموع أمامهم ، واستفرغوا ما عندهم من الالهازيج والالعب والسباق على ظهور الخيل ، حتى دخلوا المدينة ، وكان الناس على حافتي الطريق وسطوح الابنية يصفقون ويرحبون ، وكان في مقدمتهم السيد حكمة الحراكي ، وهو الذي أعد لهم هذا الاحتفال الشعبي ، وتولاه بنفسه من أوله إلى آخره ، وكان أهل المدينة يشاركونه في الترحيب وكرم الوفادة .

فلما وصل الوفد إلى المدينة استراح قليلاً في دار السيد طالب الحراكي ، ثم سار ماشياً إلى ضريح أبي العلاء ، فجلسوا على المقاعد التي أعدت لهم ، وبعد أن تليت آيات من الذكر الحكيم قال الخطباء ما قدمنا ذكره ، وبعد انتهاء الحفلة ذهبوا إلى دار حكمة الحراكي ، وقد كان أعد لهم مأدبة فاخرة ، ما رأوا مثلها في طيب الطعام وكثرة أنواعه وكثرة مقاديرها ، ورأوا من صاحبها من جمال اللقاء وحلاوة اللسان وكثرة السرور بهم وكرم الخلق ، ما لم يروه من انسان غيره ، وصفوة القول إن سرورهم بهذه الحفلة واعجابهم بحفاوة المعربين ، وكرم

الحراكي ملأ أعينهم وقلوبهم ، وأطلق ألسنتهم بالشكر والثناء
فما رأيت أحداً منهم إلا وهو يتعجب من كرم الوفادة ويثني
على أهل المعرة .

ثم سار الوفد ليلاً إلى مدينة حلب ، وقد ذكر ذلك مفصلاً
في الكتاب الذي وضعه المجمع العلمي وطبعه ، وسماه المهرجان
الألفي لأبي العلاء المعري ^(١) .

(١) قال الدكتور جميل صليبا في المهرجان الألفي لأبي العلاء ص ١٣٥ ،

١٣٦ :

ولما انتهت مأدبة الغداء غادر أعضاء المهرجان في الأصل مدينة
حماة ، فوصلوا إلى معرة النعمان في الساعة السادسة قبيل غروب
الشمس . وكان نائب المعرة السيد حكمة الحراكي قد أعد لهم احتفالاً
شعبياً رائعاً . فاستراحوا قليلاً في دار السيد طالب الحراكي عند
مدخل المدينة . ثم ساروا إلى ضريح أبي العلاء مشياً على الأقدام
والجواهر تصفق لهم وتحييهم وبلغوا القبر في العشي، يحيط بهم أهل
المدينة كبارهم وصغارهم في موكب مهيب لم تشهد معرة النعمان مثله .
وترمقهم أعين النساء من شرفات المنازل بنظرات ملؤها الفرح . ثم
أنهم جلسوا على المقاعد التي أعدت لهم حول الضريح ، وبدأت الحفلة
بعشر من القرآن الكريم أوله : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر
وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله
أتقاكم ، ان الله عليم خبير » .

الخطابات :

من الأبنية الجليلة في المعرة الخان الكبير ، ويقال له : خان التكية^(١) ، وهو في شرقي المعرة ، متوسط بين شماليها وجنوبيها

— ثم ألقى الدكتور طه حسين كلمة بدأها بتلاوة أبيات من قصيدة أبي العلاء الخالدة

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
وأشار فيها إلى مذهب أبي العلاء في اعتزال الناس ، وابتغاء الوحدة
وحرصه عليها قال : لقد وجد أبو العلاء أن خير ما يصنعه لنفسه
في الحياة عزلة تبعده عن الناس . ولكنه لم يكد يبدأ سيرته في
الاعتزال حتى أخذ الناس يسمعون إليه ويلتفون حوله . فشقي في
حياته بالناس . وما هو يشقى بهم بعد موته ، ويخفق في طلب
العزلة . لقد سجن نفسه في بيته حباً بالزهد واعراضاً عن المجد ،
فهل يرضيه أن يجتمع الناس حول قبره ويقيموا له هذه الإحتفالات
لا لعمري لو ترك الأمر لأبي العلاء لما أراد شيئاً من هذه .

ولما انتهى الدكتور طه حسين من مناجاة أبي العلاء تلا السيد محمد
الشريقي قصيدة للأستاذ معروف الرصافي وعنوانها : « شاعر البشر » ...
ثم ألقى الدكتور مهدي البصير كلمة عنوانها : على قبر أبي العلاء .
ولما انتهت الحلقة الخطابية دعي أعضاء المهرجان إلى مأدبة عشاء
أعدها لهم السيد حكمة الحراكي ، فساروا في العتمة إلى بيته وشهدوا
عنده من صنوف الكرم العربي ما يميز القلم عن وصفه . ثم ان
أعضاء المهرجان ساروا بعد ذلك إلى حلب .

(١) وهو اليوم مقر لمدرسة سعيد العاص الابتدائية .

وليس في شماليه بناء ، ولا بينه وبين طريق حلب شيء من العمران قبل سنة ١٣٤٤ هـ ، وفي هذه السنة أنشأت الحكومة داراً لها ، جعلتها في شرقي الخان ، وعمر بعض الناس شرقي دار الحكومة ، على الطريق الآخذة إلى حلب بعض دكاكين ومقهى صغيراً ، ثم لما فتح شارع أبي العلاء بنى الناس على استقامته ، من الشرق والغرب ، ومرار الشارح في جنوبيه ، والخان بناء عظيم مربع الشكل ، متقن البناء ، محكم الصنع ، يحسبه الرائي من حجر واحد ، وأن بانيه فرغ منه حين يراه ، ثم لما وقعت معركة بين الثوار ، وبين الجنود الفرنسيين الذين كانوا متحصنين فيه ، خدش الرصاص بعض حجارته ، فكسرها وشوه رونقها .

وفي وسط هذا الخان ساحة كبيرة ، وفي وسط هذه الساحة مسجد واسع ، مرتفع عن الأرض ، وفيه محل للوضوء ، وإلى جانبه مصنع للماء من حجر واحد ، ويسمونه جُرْنا ، كان يسيل إليه الماء من حمام التكية الآتي ذكرها .

وحول الساحة أروقة كبيرة ، مرتفعة عن الأرض ، ووراء

الأروقة أمكنة عظيمة ، فيها صُفِّفَ عالية للمسافرين ، وفيها
رابط لدوابهم ، وتكاد هذه الأبنية يتصل بعضها ببعض ، وفي
الجهة الشرقية منه بناء جميل ، فيه غرف متعددة ، يقال : انها
كانت مقراً للحاكم وأعوانه .

وجميع ساحته وأروقه مفروش بالبلاط ، وكذلك سطحه
قد فرش سطحه بالواح من الرصاص فوق البلاط ، ثم عشت
أيدي المتولين وغيرهم ، فلم يبق منها إلا النزر ، واقتلع
الجنود الفرنسيون قسماً من بلاطه ، فجعلوه متارس كانوا
يعاربون من ورائها ، وقد تداعى قسم منه في الجهة الشمالية
الغربية ، ورُمى قبل سنة ١٣١٠ هـ .

وهو على حالته الحاضرة آية خالدة ، يشهد بعظم بنائه على
خامة بانيه ، وهو وقف على أبناء السبيل ، يؤمونه متى شاؤا ،
يرقيمون فيه متى أرادوا ، من غير أن يدفعوا أجراً عنهم
أو عن دوابهم ، وخلف الباب غرفة يقيم فيها الحارس ، وله
باب شاهق عظيم ، يتجه إلى القبلة . وقد كتب فوقه
هذه الكلمات :

« قد بنى هذا لوجه الله تعالى حامى دفاتر الديوان السلطانية
مراد چلي فغني منع فقيراً أو دوابه يتشتى فعليه لعنة الله والملائكة
بطرق شتى سنة ٩٧٤ هـ » .

وإلى جانب هذا الخان من الشمال الغربي حمام يقال له :
حمام التكية ، وهي أحسن الحمامات في المعرة ، وإلى جانبها
الغربي الشمالي بناء عظيم ضخم ، يزعم أهل المعرة أنه كان
تكية يطبخ فيها الطعام للفقراء ، وإن الغريب ينزل في الخان
مجاناً ، ويأكل من التكية مجاناً ، وآثار هذا البناء تدل على
ذلك ، ولذلك يقال لهذا الخان : خان التكية إلا أن الحمام في
عهدنا هذا توجر كغيرها من الحمامات ، ويستوفى من داخلها
الأجر ، والتكية خربة يستعملها مستأجر الحمام في بعض مرافقه ،
وأما الخان فلا يزال الناس ينزلونه بغير أجر ، وله وللحمام
المذكورة أوقاف كثيرة ، وقد ذهبت الأيام بكثير منها ، وما
بقي منها ضمته الحكومة التركية إلى أوقاف الجامع الكبير ،
فهي كلها تعمر وترمم من غلة الوقف المشترك .
وماء هذه الحمام يخرج من ركة متصلة بها ، ويسال إليه

أحياناً ماء من ركية الجامع الكبير ، على ساقية فوق جدار عال
يمتد بينها ، تحته قناطر ، ويسمى ذلك الموضع بالقناطر ، منها :
قنطرة كبرى قريبة من ركية الجامع ، يمر الناس تحتها من
الحلة الشمالية إلى القبيلة ، ويلها من الشرق قناطر أصغر منها
ثم هدمت هذه القناطر واسيل الماء بواسطة أنابيب حديدية
تحت الارض ، حين بنيت المدينة على الشكل الحديث ، أي
حين فتح شارع أبي العلاء .

الخامس الثاني ، أو السكّة :

ويقابل خان التكية من الجهة الجنوبية ، خان آخر يقاربه
في الحجم ، لا في الاتقان والرواق ، وقد بناه أسعد باشا العظم
المعري ، وفوق بابه هذه الايات ، ويقال إنها من نظم الشيخ
عبد الغني التابلسي ، وهو خطأ ، لأن الشيخ توفي سنة ١١٤٣ هـ
كما ذكره الجبرتي^(١)

جزاك الله أسعد كل خير وإسعافاً مع الفضل الجزيل
لما بمعرة شيدت خاناً . تسامى في البناء عن المثل

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢ : ٩ (ج) .

ثوابك عند رب العرش حقا أيا خدن الوزارة والقبول

بناؤك مثل طولك فيه أرخ مطل راسخ لابن السبيل

سنة ١١٦٦ ٨٩ ٨٦١ ٨٣ ١٣٣

وفي داخله حوض ماء تحت قوس حجري ، وقد تهدم
بعضه في عهد الحكومة التركية ، وقد اتخذته الحكومة العثمانية
مُكَنَّةً ، يقيم فيها الجند من عهد بعيد ، وبنت بجواره من الشرق
مدخراً محكماً لوضع الأسلحة والمواد المتفجرة ، وبقي كذلك
إلى أن جلت عن المعرة ، فأبقتة الحكومة التي خلفتها على حاله
مُكَنَّةً ، ولا يزال كذلك إلى سنة ١٣٥٥ هـ .

وبعمل السلف والخلف ضاعت الغاية المقصودة من بنائه ،
وحرّم أبناء السبيل الانتفاع به ، وحرّم أهل المدينة ما ينجم
عن ذلك من الفوائد .

ولهذا الخان أوقاف ، يصرف على ترميمه من ريعها ،
عرفت منها :

خمس دور في المعرة ، ومقهى واحد وهي القهوة الكبيرة

وخمسة دكاكين ، وأربع أرضين ومدار واحد^(١) ، وله أرض بجوار خان العتيق ، موقوفة ليصب بريعها ماء في الحوض المذكور . وقد رأيت سنة ١٣٥٧ هـ ، وقد خرجت منه الجنود ، وصار سوقاً لبيع الدواب ، وهو على وشك التداعي والسقوط ، وقد بنى الناس حديثاً في شرقيه من الشمال والجنوب .

الخامس العتيق :

وكان في المعرة خان ثالث أقدم عهداً من هذين الخانين ، بناه صارم الدين أربك المنصوري الحموي المتوفى سنة ٧٣٧ هـ وعمل عنده مسجداً وسيلاً « منبلا » للماء ، وأظن أنه هو الذي كان الناس يسمونه الخان العتيق ، وقد أدركت منه بقية عامرة ، وهي من شرقيه ، ولكن لم أر أثراً للمسجد ، ولا للمنهل ، ولعلها تحت الردم ، وحول هذا الخان أربع ركائبا في أطرافه الأربعة ، بعد كل واحدة عن الأخرى نحو ثلاثين متراً فأكثر ، وهو واقع في الجهة الشرقية الجنوبية من الثكنة

(١) المدار في عرف المعريين طاحونة ، تدار بواسطة الدواب ، يطحن فيها البر والشعير ، وقد كان في المعرة عدد كبير منها ، ثم بطلت لما رأى الناس الطواحين التي تدار بواسطة الكهربائي وغيرها .

على بعد ١٥٠ متراً تقريباً ، يفصل بينها مكان فسيح ، بعضه أخفض من بعض ، وفيه حفر وآثار أبنية قديمة ، والطريق الآخذ من حماة إلى حلب .

وكان الناس يجلسون على ظهر هذا الخان ينظرون إلى سباق الخيل في أيام العيد ، وهكذا تركته سنة ١٣١٩ هـ .

ثم زرت المعرة سنة ١٣٥٢ هـ فلم أر أثراً للخان ولا لأنقاضه ، والذي علمته من أهل البلدة أن بعض الأغنياء هدم البقية الباقية منه ، وجعل مكانه بستاناً ، وبني من أنقاضه بيتاً في البستان وبركة وغيرها ، وقد أخبرني بعضهم أنه بعد هدم الخان ظهرت رَكِيَّة بجواره عذبة الماء ، ولها مجار في جدار الخان الجنوبي .

فناء المنقش :

ويقال : إن في شرقي المعرة من الشمال بالقرب من مزار الشيخ القبيباتي على بعد نحو ٤٠٠ متر تقريباً ، خان يقال له : خان المنقش ، وأنه بقي إلى أواخر القرن الثالث عشر ، ثم تهدم ، وذهبت أنقاضه وانطمس أثره ، وأصبح أرضاً يزرع فيها القمح ونحوه .

الحمامات :

وفي المعرة في عهدنا أربع حمامات :

الأولى : حمام التكية ، وهي المتصلة بالخان ، وقد تقدم ذكرها .

الثانية : الحمام التحتانية ، وهي واقعة في وسط المحلة الشمالية من الجنوب ، تتصل من غربيها بدار الحكومة القديمة ، وبالسوق من شرقيها ، وبينها (القمّيم) وبابها الى الشمال ، وماؤها يستخرج من الساطورة (الرّكيّة) المعروفة بالساطورة التحتانية ، ثم يصب في ساقية تمر من جدار القمين إلى الحمام .

وماء هذه الركية غزير ، يبيع منه مستأجر الحمام للناس بالراوية ، ويسيل بمجرى خاص إلى حوض صغير ، والرشاش الذي يتقاطر منه ربما يعود الى الركية .

وبالقرب منها مسيل للمطر الذي يجتمع من الطرق فيصب فيها ، وبقربه مجرى ماء الحمام الذي يجتمع مما يصبه المتغسلون فيها ، ولا يبعد أن يتسرب شيء منه إلى الركية .

ولذلك لا يعد ماؤها في نظر الأطباء نظيفا ، ومعظم أهل المحلة الشمالية يشربون منه .

والحمام واسع ، محكم البناء، مشتمل على براني ووسطاني وجواني فالبراني القسم الأول الذي ينزع فيه الداخل ثيابه إذا أراد الاغتسال ، وينشف فيه جسده بعد خروجه من الجواني ، وفيه يجلس صاحب الحمام وصناعه ، والجواني القسم الداخلي الذي يغتسل فيه الناس ، وفيه المقاصير التي يجلس فيها المغتسلون ، والوسطاني القسم الذي يكون بين الجواني والبراني ، وتكون حرارته متوسطة بينهما .

الثالثة : حمام الزهور . وهي واقعة في جنوبي السوق من الجهة الغربية ، وفي الشمال الشرقي من مسجد أبي العلاء . وهي مبنية تحت الأرض ، ينزل إليها من بابها الشمالي بوضع عشرة درجة ، وهي واسعة فسيحة من داخلها .

وربما كان بناؤها مساوياً لبناء غيرها في القديم ، ولكن أحاط بها الردم من كل وجه ، فظهرت كأنها مبنية تحت الأرض ، وفي إحدى مقصوراتها مقام يقال : ان فيه الشيخ عنبر ، ولم أقف له على خبر ، وماؤها يستخرج من رَكِيَّة تتصل بها من الشرق . وهذه الحمام وقف لبني الحاج يوسف ، من أسرة السيد يوسف المشهورة في المعرة ، ثم سعى بعض خصومهم فهدمتها

البلدية ، وأضافت قسماً منها الى الطريق المتصل بشارع أبي العلاء
ثم عمرت وجددت نحو سنة ١٣٥٨ هـ .

وقد ذكرنا في غير هذا المكان انهم حفروا تحت هذه
الحمام فوجدوا دكاكين ، ووجدوا تحت الدكاكين دكاكين صاغة .
الرابعة : حمام السيد يوسف ، وهي جزء من داره التي ذكرها ،
وموقعها في المحلة القبلية ، وبابها الى الغرب ، وماؤها يسير بساقية
من ساطورة^(١) السيد يوسف الواقعة في المحلة القبلية في
الزاوية الشرقية الشمالية من الساحة الكبيرة ، ومن ركبة أخرى
تتصل بالحمام من الجهة الشمالية داخل القمين .

ولا يوجد غير هذه الحمامات في المعرة في عهدنا ، وسمعت
جماعة من شيوخها يقولون : ان الدار الواقعة في المحلة الشمالية شمالي
العنبر (الانبار) الى الشرق كانت حماماً في القديم ، ثم عطلت
وجعلت داراً ، وبابها يشبه أبواب الحمامات في المعرة .
وقد عثر على حمام قديم في المحلة الشمالية ، شمالي الجامع
الكبير الى الشرق ، ووجد فيها مجاري الماء وغيرها وهي متهدمة ،
فردمها صاحب الارض التي وجدت فيها وبني فوقها .

(١) والساطورة في عرف المعريين ركبة يستخرج ماؤها بواسطة
دواليب تديرها دابة وأكثر ما تنقل لركايا الحمامات ، ويقال : ساطورة .

وبني السيد حكمة الحراكي حماماً جنوبي المعرة ، شرقي مسجد
نبي الله يوشع (ص) الى الشمال .

المقاهي :

وفي المعرة مقاه متعددة منها ما هو أقدم منا عهداً ، ومنها
ما حدث في عهدنا ، أما الأولى فمنها المقهى التحتاني ، ويقال له :
القهوة التحتانية ، وهي في السوق غربي الجامع الكبير ، بابها مقابل
بابه ، ولها باب ثان على الساحة التي تقع في شمالها .

ومنها المقهى المعلق ، ويقال له : القهوة المعلقة ، وهي في منتصف
السوق من الشمال الغربي موازية تقريباً لباب السوق الغربي
المقابل لمسجد الشيخ عطا الله ، وإنما قيل لها المعلقة أو الفوقانية
لأنها مبنية فوق الدكاكين .

ومنها المقهى الكبير ، ويقال له : القهوة الكبيرة ، وهي في المحلة
القبلية ، لها باب شمالي إلى السوق ، وباب قبلي إلى الساحة
الكبرى التي أمامها .

وقد جعلت طاحونة يطحن فيها الدقيق على البخار ، ويستخرج
منها ماء يسيل إلى بعض البيوت بأنايب .

وأما الثانية فمنها مقهى في جانب سوق النجارين من الجنوب الغربي، وهو واقع في المحلة القبلية، شرقي حمام الزهور إلى الجنوب . ومنها مقهى آخر في رأس السوق القبلية ، المتصلة بالجامع من الجهة الغربية ، مقابل سوق النجارين القديمة ، وكان في عهدنا مداراً ، ثم جعل مقهى .

ومنها مقهى آخر ، وهو واقع في الابنية الجديدة التي حدثت بعد الحرب العامة ، جنوبي القناطر إلى جهة الغرب ، وهو غربي الحديقة الفاصلة بين الخان والثكنة .

الأسواق والدكاكين :

وفي المعرة سوق عظيمة ، مبنية في أوقات مختلفة ، على أشكال مختلفة ، وقد كانت لسوق المعرة في القديم سبعة أبواب احدها بحذاء الدكاكين التي كانت ملاصقة لمنازة الجامع ، والثاني غريبه عند ساطورة الحمام التحتانية ، والثالث مقابل مسجد الشيخ عطا ، والرابع بقرب حمام الزهور ، والخامس يخرج منه إلى الساحة الجنوبية ، والسادس يمر من أمام الباب الشمالي للقهوة الكبيرة إلى الشرق ، والسابع قبلي الجامع مقابل

سوق النجارين ، وكانت لها أبواب تقفل بعد المغرب ، وتفتح بعد الفجر ، ولها حراس موظفون ، وحراس في وسط الاسواق ثم بطل ذلك بعد تغير العمران ، والظاهر أنها مجموعة أسواق ، ضم بعضها إلى بعض ، وجعلت سوقاً واحدة ، ومنها دكاكين بنيت أمامها أروقة عظيمة ، كالسوق المتصلة بالجامع الكبير من الجهة الغربية .

ومنها أسواق مسقوفة بعقد من الحجر ، كسوق الحذابين (الأساكفة) ، ويسميه المعريون سوق السكيفاتية ، أو الاسكافية ، وكسوق النجارين وغيرها .

وجميع الاسواق غير المسقوفة ، كان أمهامها أروقة مساوية في الارتفاع لسطوحها ، ثم قامت حكومة القضاء ، أو بلديته ككشف الله عن بصيرتها ، فهدمت معظم تلك الأروقة ، ثم ندمت على ما هدمت .

وقد حدثت في هذا العهد دكاكين في الجادة المنشأة حديثاً ، من طريق حلب الى مسجد أبي العلاء (شارع أبي العلاء) .
والعادة القديمة في المعرة لا يبنى دكان حتى يهدم عشرة ،

لأن فيها ما يزيد عن الحاجة ، ولذلك يقال : سوق المعرة ألف
بياع ، ولا شراء . ويبلغ مجموع الدكاكين التي فيها الآن نحو
٥٠٨ تقريباً هـ ، ويوجد دكاكين في المحلات التي يسكنها الناس
وهي قليلة .

الدور والمساكن :

أكثر أبنية المعرة حديث ، لأن الحروب والفتن والغارات
والزلازل ، ذهبت بأكثر مبانيها ، من معابد وأسواق ومساكن
بين هدم وإحراق ، وأكثر هذه الأماكن المائلة في هذا العهد
مبني بناء واهياً ، يدل على فقر بانيه ، وجهله بصناعة البناء .
وقلما وجد الإنسان بناء قديماً شاهقاً ضخماً ، إلا بعض
المساجد والمعابد والخانات ، وقليلاً من الدور والمساكن .
وأعظم دار عرفتها في المعرة ، هي دار السيد يوسف كبير
الأسرة التي تنسب إليه ، وهي في المحنة القبلية .
وهي دار فخمة يحيط بها الطريق ، من أطرافها الأربعة
فيدخل إليها من باب في جنوبها ، يتجه إلى الشرق ، وعلى
يسار الداخل باب يدخل منه إلى ساحة فسيحة ، كانت تربط
فيها الخيل في ليالي الصيف وطرفي النهار .

وفي شمالي الساحة مربوط للخيل. طويل عريض ، عالي السمك
قلما وجد نظيره في مرابط الأمراء والملوك .

وتحت مغارة لها باب من الساحة يتجه إلى القبلة ، وباب
آخر من الطريق العام من الجهة الغربية ، رتاجه^(١) حجر واحد
أسود عليه كتابة ورسوم ، والناس يبالغون في طول هذه
المغارة وامتدادها .

وعلى يمين الداخل من باب الدار بعد نحو عشرة أذرع
باب يدخل منه إلى ساحة فسيحة تنتهي من جهة الشرق بمصطبة
عالية كبيرة ، وعلى يمين الداخل إلى الساحة غرفة صغيرة ، وعلى
يساره غرفتان كبيرتان على قدر الساحة والمصطبة من الشرق
إلى الغرب ، بابها إلى القبلة ، وهذا البناء اتخذ في عهدنا (قناقا)
أي مثنى للضيوف .

ثم يسير الداخل بعد هذا الباب في دهليز فيه منعطفات
ثلاثة ، ينتهي آخرها بباب قصير ، بابه حجر أسود واحد ،
وعلى يسار الداخل شُباك أو باب مرتفع يدخل منه إلى دار

(١) في الصحاح للجوهري ١ : ١٥١ : الرتج بالتحريك الباب العظيم
وكذلك الرتاج ومنه رتاج الكعبة ، ويقال الرتاج الباب المغلق وعليه
باب صغير .

فسيحة ، فيها إيوان يتجه إلى الشمال وفيه ثلاث غرف : واحدة في صدره واثنان في طرفيه ، ولها باب حجر أسود على الطريق الغربي ، على مساواة باب المغارة المذكورة آنفاً وفي شماليها الشرقي درج يصعد منه إلى سطح الدار الكبرى وغيرها .

والباب الذي ينتهي به المنعطف السابق ذكره ، يدخل منه إلى فسحة صغيرة مستقوفة ، في صدرها غرفة كبيرة ، وعلى يسار الداخل باب دار فسيحة ، فيها غرفتان ومطبخ وعلية ، كلها أبوابها إلى الجنوب ، وفي جنوبها الشرقي باب للدرج السابق ذكره ، وفي وسط الدرج غرفة كبيرة واسعة هي سقف لباب هذه الدار ، وفي الدار مغارة ينزل إليها بنحو ثلاثين درجة .

وعن يمين الداخل دُهايز ، ينتهي الداخل منه إلى الدار الكبرى ، وفيها ساحة قَوْرَاء^(١) ، في وسطها حديقة كبيرة ، في جنوبها بئر غزير ، وعن يمين الداخل إيوان عظيم يتجه إلى الشمال ، وفي طرفيه غرفتان متقابلتان باباهما فيه ، وفوق ذلك قصور شاهة ليس في المعرة ما يقاربها في علوها وسعة اشرافها وفي شرق الساحة وغربها ، غرف فخمة متقابلة ، وفي شمالي

(١) اي واسعه

الدار إلى الغرب باب عن يمين الداخل فيه ، يدخل منه إلى مطبخ عظيم ، يقابل الإيوان والغرفتين المتصلتين به ، وفيه محل للحطب والفحم ، وبيت للمؤنة ، وتحتة محمية بعيدة الغور ، يبالغون في اتساعها وامتدادها .

وعن يسار الداخل حمام كبيرة ، متصلة بالحمام الكبرى الآتي ذكرها ، ويسيل إليها الماء منها ، وإلى خزان على بابها يأخذ الساكنون حاجتهم منه ، ويقابل الداخل باب ينتهي إلى دار فيها غرف ثلاث ، تتجه إلى القبلة ، وتتصل بها غرفة أمامها ساحة صغيرة ، في جدارها الغربي باب على الطريق العام الغربي . وفي الطرف الغربي الشمالي من الدار الكبيرة ، دار صغيرة تشتمل على غرف متعددة ، بابها إلى الطريق العام من الشمال وفي جنوبها داران خارجية وداخلية ، يصل بينهما باب في الجدار الفاصل بينهما ، الممتد من الشرق إلى الغرب ، في الشمالية منهما غرفتان تتجهان إلى الشرق ، وفي الجنوبية غرفة إلى الشرق ، وغرفتان إلى الشمال وغرفة إلى الجنوب ، وباب الدارين يتجه إلى الشرق على الطريق العام الشرقي .

وفي منتهى الدار الكبيرة من جهة الشرق الجنوبية ، جامع مدفون فيه السيد يوسف صاحب هذه الدار وولده اسماعيل ، وفي غريبه إلى الجنوب دار أخرى تتصل من الغرب بأول غرف مر ذكرها .

وفي الجهة الغربية من الدار الكبرى حمام السيد يوسف السابق ذكرها وفوقها القمين .

وهذه الدار أعجوبة في ضخامة بنائها ، واتساع رقعتها ، واجتماع المرافق المختلفة فيها ، وقد كانت كلها داراً واحدة ، ولكن ذرية الواقف تقاسموها للسكن ، وتماونوا في أمرها حتى تداعت القصور للانهدام ، وتهدم بعضها وتحطمت أدراجها ، ودب الوهن في بنائها من جهات مختلفة ، وأعظم ما منيت به هذه الدار تقسيمها إلى دور مختلفة ، وإقامة جدران يفصل بينها ، حتى أصبحت دوراً متعددة بعد أن كانت واحدة ، وتعطل أكثر ما فيها من المرافق كمربط الخيل والحمام وما شاكل ذلك ، وربما لا يجد الباحث داراً تشابهها في عظمتها واتساعها في كثير من المدن العظيمة .

وما عدا هذه الدار فأكثر دور المعرة بين قديم على وشك
الانهدام ، وجديد صغير بني على قدر فهم صاحبه ، أو هواه
أو طاقته ، وليس في شيء منها ما يتفق مع أمثاله في المدن
المتحضرة ، أو يقوم على هندسة صحيحة مقبولة ، إلا النزر
اليسير من الأبنية التي أنشئت بعد فتح شارع أبي العلاء .

دار النعمان :

وفي المحلة الغربية دار قديمة ، يسمونها دار النعمان ، وقد
أخذت منها الأيام كل شيء حسن ، وذهبت بما فيها من عظمة
ورونق ، ولم يبق إلا إصطبل عجيب الشكل ، جدرانه من
الحجارة الضخمة ، وسقفه من حجارة مبسوطة ، طول الواحدة
نحو ثلاثة أمتار ، في عرض متر ونصف ، وكان فوقه بناء عظيم ،
ولكنه ذهب ، وأثره يدل على عظيمته ، وربما كان أصحابه في
القديم كسروا حجراته العظيمة ، ووضعوها في عمائرهم ، كما
يفعله أهل المعرة الآن .

وهذه الدار الآن يملكها ورثة رجل يقال له : قسوم
الانديجة ، وأهل المعرة يزعمون أنهم من سلالة أسرة يقال لهم :

بنو التيس ، وكانوا من ذوي اليسار والثروة الكثيرة ، فسمع
أبو العلاء المعري ذات يوم رُغاء الإبل وخُوار البقر وتُفاه
الشاة وصهيل الخيل ونهيق الحُمُر وشحيج البغال ، فسأل لمن هذه
الأنعام والدواب ؟ فقبل : لبني التيس ، فقال :

رزق التيوس يحيثها بسهولة وذووالفصاحة رزقهم مغبون^(١)
إن كان حرمانني لاجل فصاحتي فامن علي من التيوس أكون
وانه سمع بما هم عليه من الغنى والسعة ، فضاق ذرعاً بما
هو عليه من الفاقة والضحك فقال :

يا قاسم الرزق قد ضاقت بي القسم ما أنت متهم قل لي من اتهم
إن اللجين قناطير مقنطرة عند التيوس ونعلي مالها قدم
أعطيتني حكماً لم تعطني ورقاً قل لي بلا ورق ما تنفع الحكم
وأن أحد الشعراء الورعين أجاب أبا العلاء بقوله :

لو كنت ذا حكم لم تعترض حكماً رباً حكيماً له في خلقه حكم^(٢)
وينسبون لأبي العلاء مَوالِياً قاله في مثل هذا ، وهو

(١) ويروى مسجون .

(٢) أصل الرواية واحد مهين له في خلقه (ج) .

أهل الفصاحة ترى أيام مثل الخبر والتيس أصبح بدارو مال مثل التبر
إن كان منعي لاجل فهمي وكثر الخبر

هات اعطني مال واجعل طول قرني شبر

وله مواليا آخر على روي العين ، لم أذكر منه الا قوله :

هات اعطني مال واجعل دارل قرني باع

وهذه الرواية وان كانت بعيدة الوقوع من أبي العلاء ،
فبقدر بُعد هذا الشعر من كلامه ، فان فيها شيئاً من الطرفة ،
وهي تدل مع هذا على قدم الحسد في المعرة ، وقدم التنازع
بالألقاب المنكرة ، والتاريخ يعيد نفسه كما يقال : فان المال
في المعرة في عهدنا ، والذي سمعناه عن العهد الذي قبله ، قلما
اجتمع مع علم وفهم ، والفقراء من المعريين ينزون ذوي
البسار بمثل هذا اللقب ، ولكنه لا يلبث أن يزول ، وأنا أعتقد
ان هذه القصة باطلة وضعها حساد بني قسوم ، ليلقبوهم بهذا
اللقب حسداً وحقداً ، وكذلك يفعل غيرهم بمن يحسدونه على
ما آتاه الله من فضله . وفي بعض الدور جدران ضخمة ،
عليها أقواس من حجارة عظيمة ، وفي كثير منها أبواب من

الحجر الأسود ، ونحو ذلك من آثار الأبنية القديمة ، والناس ينسبون كل أثر من بناء ضخيم إلى الرومانيين ، كما قلنا .
وكثيراً ما ظهرت تحت الأرض آثار أبنية عظيمة من مساجد ومساكن ، ولكن الناس كانوا يقتلعون حجارتها ويكسرونها ، ويجعلونها في مبانيهم ، ومنهم من كان يردمها ويردها كما كانت .

المعاصر :

في المعرة جملة من معاصر الزيتون والعنب ، وأكثرها قديم ، ومنها ما هو تحت الأرض ، وقد أهمله الناس لقلة الحاجة إليه .
منها : معصرة في جنوبي المدينة ، تقع في الجهة الشرقية الشمالية من زاوية بني الكيال .

ومنها : معصرة غربي المدينة ، تقع في شرقي مقبرة بني الجندي إلى الجنوب ، وفيها كثير من معاصر العنب المتخذة خارج المدينة في الكروم وغيرها .

وقد قلت رغبة الناس في هذه المعاصر ، بعد اطلاعهم على المعاصر الحديثة ، التي تكون بواسطة آلات حديدية .

المياه التي هي خارج المدينة :

يقسم أهل المغرة مقار المياه إلى أقسام ، ويسمون كل قسم باسم يميزه من غيره ، فعندهم الجب ، وهو البئر الذي يجتمع ماؤه من ماء المطر .

والرَكِيَّة ، وهي البئر العميقة ، التي يخرج ماؤها من أرضها ، أو جدرانها ، وقد يسيل إليها شيء من ماء المطر ، وماء هذه الركايا منه ما هو عذب ، ومنه ما هو ملح كما تقدم .

وإذا كانت الركبة يخرج ماؤها بدولاب تديره دابة إلى حمام أو مسجد أو غيرهما ، يسمونها ساطورة ، وبعضهم يقول : صاطورة ، كما يسمونها ركبة .

فان كان ماء الركبة يسبح على وجه الأرض في زمن الربيع يسمونه عيناً .

والعيون كثيرة ، منها : عين قُرَيْع ، وهي في جنوبي المعرة إلى الشرق ، معقودة بحجارة ضخمة ، يظن الناس أنها من بناء الرومان ، وهي على بعد أربعين دقيقة من بناء المعرة ، وماؤها يفيض في زمن الربيع ، فيجري على وجه الأرض إلى

٢٧ (٢٧)

مسافة بعيدة ، وقد جعلت بستاناً في عصرنا الحاضر ، ووضع فوقها دولا ب لاخلراج الماء والسقي ، وهي لورثة السيد عبدو اليوسفي .

ومنها : عين بَلَّاتَة ، وهي في جنوبي عين قُرَيْع إلى الغرب وهي صغيرة تجري من صخرة صغيرة ، وماؤها قليل لا يتجاوز كثيراً عن منبعها .

ومنها : عين مسدّة ، وهي في الجنوب الشرقي من المعرة ، على بعد ساعة تقريباً ، وبنائها واسع ، وماؤها يفيض في زمن الربيع .

ومنها : عين المَرْج ، وهي في جنوبي المعرة أيضاً ، وبنائها عظيم ، وفها واسع ، وماؤها يفيض في الربيع ، وقد يمر به ماء عين مسدّة ويسيلان معاً .

ومنها : عين مَعْرَاثَا ، وهم يقولون : معراتا بالتاء المثناة ، وهي في جنوبي عين مسدّة ، وبنائها أضيق من عين المرج ، وأوسع من عين مسدّة .

ومنها : عين وادي المحروق ، وهي شمالي عين معراثا إلى

الشرق ، وهذه قد يسيل ماؤها في الربيع إلى عين مسدة ،
ويجريان معاً إلى عين المَرَج .

ومنها : عين الدَّير ، وهي في جنوبي المعرة الشرقي ، وبنائها
قديم ، يسيل ماؤها في الربيع للشرق الجنوبي ، حتى يصل إلى
دير سمعان ، فيمر بالقرب من مدفن عمر بن عبد العزيز .
ومنها : عين وادي الحكيم ، وهي في جنوبي المعرة الشرقي ،
يسيل ماؤها في الربيع ، حتى يجتمع مع ماء عين قَوْنَع في
موضع يقال له : صدر الميدان .

ومنها : عين السعنة ، وهي في جنوبي المعرة .

ومنها : عين السوداء ، وهي جنوبي المعرة .

ومنها : عين الخَوَّارَى ، وهي في الجنوب أيضاً .

ومنها : عين جربا ، وهي في الجنوب أيضاً .

ومنها : عين كَرِيشَان ، وهي في الجهة الشرقية من المعرة ،
قرية من وادي الضيف .

ومنها : عين التينة ، وهي شرقي المعرة ، وقد جعل حولها

بستان ، يسقى زرعته وشجره منها .

وفي زمن الربيع يجري ماء عين وادي الحكيم ، فيجتمع بماء عين قُرَيع في صدر الميدان ، ويخالطان ماء عين المَرْج ، وما يسيل إليه من ماء العيون ، ويجتمع ذلك كله في موضع يقال له : عاقول الميدان ، ثم ينضم إليه ماء عين السعنة الذي يمر من الشرق الشمالي بعين السوداء ، ويسيل الجميع إلى العاقول ، ثم يجري هذا المجموع إلى الشمال ، فيمر بشرفي المعرة ، وإذا سال ذلك يسمونه ساقية الوَحْم .

وقد تمر بالحواري القبلية ، فينضم إليها ماؤها مع ماء غيرها ، ويأتيها من الشرق ماء عين كَرِيشان ، ثم يسيل الجميع شمالا حتى يصب في الهرماس بالقرب من خراب باب إيللا . وهذه العيون ، منها ما يبلغ ارتفاع مائها السائل قدر أربع أصابع وأكثر ، وانبساطه يختلف بحسب المجرى والكثرة ، ومنه ما يبلغ نصف متر وأكثر .

ومن الناس من يزعم أن ماء عين مَسْدَة ، وعين المَرْج ، من عين مَعْرَاثا ، وماء عين بَلَاثَة من عين الدَّير ، وماء العاقول ، ووادي الحكيم ، والحواري من عين قُرَيع .

وأهل المعرة يتشاءمون من جريان ساقية الوَخم ، ويعدونها نذير بلاء ، ومؤذن غلاء ، ويزعمون أن العام الذي تسيل فيه تكثر فيه الأمراض والعلل ، وربما كان لهذا الزعم نصيب من الصحة ، لأن ساقية الوخم تجمع الأوخام التي في طريقها ، وتنقلها إلى العيون التي تمر بها ، وتبقى قسماً كبيراً منها في مجراها وفي أطرافه ، وليس هناك حكومة تعنى بمثل هذا ، فاذا جاء الصيف انتشرت الجراثيم الفتاكة من تلك الأقدار والأوخام .

ومنها : عين الهوثة ، وهي في وادي الخطيب على طرف الهرماس من الشمال .

ومنها : عين الزُرَيْنِيق ، وهي في الضفة الجنوبية للهرماس غربي الهوثة إلى الجنوب .

ومنها : عين العمياء ، وهي في وادي الخطيب .

ومنها : عين السلاقية ، أو السلاقيات ، وهي غربي المدينة في وادي الخطيب ، وغربي تل منصور باشا ، وقد يفيض ماؤها ، فيصب في الهرماس .

ومنها : عين المغيين ، وقد رأيت في بعض الحجج في وقف
الناصر ابن محمد المعروف بابن ست العيش ، انه وقف الركية
التي ببستان الجوزة ، والركية التي ببستان المغيين سنة ٩٥١ هـ .
ومنها : عين الحمراء ، وهي في أول وادي الخطيب من الشرق ،
واقعة في الجنوب الغربي من القلعة .

ومنها : عين النجار ، وهي في طرف الهرماس من جنوبي
القلعة إلى الغرب ، وهي شمالي الحمراء .

وقد ذكر الثؤيري في نهاية الأرب أن الشيخ سراج الدين
عمر بن مسعود المعروف بالبحار توفي في سنة ٧١١ هـ ، وكان
شاعراً ، وهو صاحب الموشحات المشهورة ، وذكر شيئاً من
شعره ، منه قوله في مליح نجار :

قالوا المعرة قد غدت من فضلها يسعى إلى أبوابها ويزار
وجبت زيارتها علينا عندما شغف القلوب بحبها النجار
وأنا لا أستبعد أن يكون هذا الشاعر ، أراد بالنجار عين
النجار التي ذكرناها ، لأن العين المذكورة يحيط بها بستان ،

يتصل ببساتين ، كأنها قطعة من الجنة ، والناس يخرجون إلى عين النجار ، للتمتع بمناظرها الرائعة ، وربما قالوا : بستان النجار بدلاً من عين النجار .

ومنها : عين زُرَيْق ، وهي غربي المعرة ، في حافة مجرى الهرماس ، يفيض ماؤها مع الهرماس ، فيجريان معاً في الربيع وهي في منخفض جنوبي القلعة إلى الغرب ، وأظن أنها منسوبة إلى زريق ، وهم أسرة عريقة في العلم والفضل وستأتي ترجمة جماعة منهم .

ومنها : عين آسية ، والعامّة تسميها عين الآسي ، وهي في الشمال الغربي من المعرة ، والقلعة مقابل المكان المسمى بالحينا يفصل بينهما مجرى الهرماس ، وفي شماليها الجبل ، وهي تحت الأرض ينزل إليها بيبضع عشرة درجة ، وقد يفيض ماؤها في الربيع ، وفوقها بناء يصل على ظهره ، وأظن أن ماءها يتحلب من مجرى الهرماس ، ومستنقعات الماء حوله ، لأنه يقل حين يقل الهرماس ويكثر حين يكثر .

ومنها : عين سلمون ، وهي شمالي المعرة على بعد ربع ساعة .

ومنها : عين الواكفة ، وهي شمالي عين سلمون على بعد نصف ساعة .

ومنها : عين عبد الحافظ ، وهي شمالي المعرة على بعد ساعة تقريباً .

ومجموع هذه العيون الثلاث ، يقال له : وادي العين ، يفيض ماؤها في الربيع ، ويجري إلى الشرق حتى يختلط بالهرماس قرب باب إيلا .

وماء هذه العيون يدوم إلى شهرين تقريباً ، ثم يأخذ في القلة والنضوب ، وربما جف بعضها في السنوات التي يقل فيها المطر .

وقد أقيمت حولها بساتين تسقى منها ، وفيها أشجار كثيرة من المشمش والتفاح والخوخ والتين والجوز واللوز وغيره . وأهل المعرة يخرجون إليها للتنزه في الربيع والصيف والخريف .

الهرماس :

هو سيل يجتمع من المطر الذي يصب فوق الجبال والمضاب ، ثم ينحدر إلى أودية يضاف بعضها إلى بعض .

وأول ما يجتمع فيه الهرماس واد يقال له : وادي أيوب ،
بالقرب من قرية يقال لها : بسامس ، وأخرى يقال لها جوزف ،
ثم يسيل إلى الوادي الكبير المعروف بوادي المغار ، بالقرب
من قرية كَفَرَنْبَل ، ثم يمر بالقرب من قرية حاس ، ثم يصب
في رام ، قرية كفر روما ، ثم يتبع الأودية والمنخفضات ،
حتى يصل إلى غربي المعرة ، فيصب في وادي الجنان ، وهو
المعروف الآن بوادي الخطيب ، وهو غربي المعرة ، فيملاً
ما في جانبي مجراه من الركايا والعيون ، ويسير إلى جهة الشرق
ثم يعطف إلى الشمال ، فيمر من جنوبي القلعة إلى غربيها ،
ثم ينعطف حتى يجتمع بمياه وادي الحنا ، عند عين آسية ،
ويسمى هناك هرماس أبي قشة ، أو هرماس وادي بني عَلَيم ،
ثم يسيل الجميع إلى وادي العين ، ثم يخرج من هناك إلى
جهة يزعم الناس أنه يسيل إلى جهة المطخ .
وقد يكون هذا السيل شديداً ، فيأخذ ما يمر به من انسان
وحوان ، وقد أخذ رفيقاً لي كان ركب فرسه ، وأراد اجتيازه
عند عين الواكفة ، ففرق هو والفرس ، وتحطما من مصادمة
الصخور في طريقه ، وذلك نحو سنة ١٣١٧ هـ .

وأهل المعرة يبتهجون لمقدمه ، ويبشر بعضهم بعضا به ،
لأنهم لا يرون ماءً كثيراً جارياً على وجه الأرض غيره ،
فيخرجون للتنزه والاسترواح على ضفافه ، في وادي الخطيب ،
ويخرج بعض النساء فيغسلن فيه الثياب والأمتعة .

وهو لا يجري إلا في السنة التي يكثر فيها المطر ، فيملأ
الركايا والعيون القرية منه ، وتبقى أثارة منه إلى أخريات
الربيع ، فيمرع مجراه وحافاته ، فيبتهج الناس بذلك الخصب ،
ويبتهج الحيوان بالمرعى الممرع ، وترى الناس تخرج إليه أصيل
كل يوم زرافات للتنزه ، ومنهم من يقضي سحابة نهاره ،
فيطبخون ويأكلون ويلعبون ، فالهرماس موسم ابتهاج وفرح
ومرح لأهل المعرة ، وقسم كبير من ضاحيتها .

وأهل المعرة يقيمون بمقدمه ، ويعدون به بشير خصب ورخاء
وذلك صحيح ، لأن مياه العيون والركايا تكثر ، فيكثر الخصب
في البساتين وغيرها .

وهو سيء الأثر في الصحة العامة كساقية الوخم ، لأنه
يحمل ما في طريقه من أوساخ وأقذار وجيف وغيرها ، وقد

يبقى بعضها في مجراه ، وفي أطرافه ، فاذا نضب الماء عنه انتشرت
الروائح الكريهة والجراثيم الضارة ، وقد يشاهد في كثير من
المواطن التي يستنقع فيه الماء ، ضروب مختلفة من الدعاميص^(١)
والديدان الصغيرة والكبيرة ، والناس يتساحون في شرب الماء
من تلك المستنقعات ، ويغسلون أيديهم وثيابهم منها ، حتى
بعد انقطاع جريه . وقد ذكره الأمير أبو الفتح بن أبي حصينة
المعري^(٢) في شعره ، فقال من قضيدة :

وزمان لهُو بالمعرة موق بـسِيَاثِهَا وبـجَانِي هِرْمَاسِهَا
أَيَّام قَلْتُ لَذي المودَة اسقني من خَندريس خُناكها وحا سِهَا
وقد كان بعض شعراء حلب في المعرة ، فجاء الهرماس ،
فرأى ابتهاج الناس بمجيئه وخروجهم إلى مشاهدته في أول
يوم من مجيئه ، وفي اليوم الثاني قل ماؤه ، ففترت أحاديث
الناس عنه ، وقل خروجه إليهم ، وفي اليوم الثالث انقطع
جريانه وأسف الناس لذلك ، فقال هذا الشاعر وقد انسبت اسمه .

(١) في الصحاح للجوهري ١ : ٥٠٦ : الدعوص دويبة تغوص في الماء
والجمع الدعاميص .

(٢) ابن أبي حصينة : الديوان ١ : ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

أصبحت أهل المعرة في ضجيج ثم نفرة
قلت ما هذا فقالوا قد أتى الهرماس مرة
ثاني الأيام أضجروا بوجوه مكفهرة
ثالث الأيام أمسوا كل من يفرك أيره

الأودية :

في المعرة أودية كثيرة ، مسمى كل منها باسم مختص به .
منها : وادي العين ، وقد تقدم ذكره ، وكذلك وادي
المحروق ، ووادي الحكيم .
وادي نبا .

وادي الخنازير .

ومنها : وادي الجنان ، وهو أكثرها شهرة ، وأوفرها خصباً
وماء ، وهو واقع في الجهة الغربية ، متصل بجبل عَطَّال من
الشمال والغرب ، وفيه يسيل الهرماس ، كما ذكرنا ، وفيه
بساتين كثيرة ، فيها ضروب من الشجر ، كالتفاح والخوخ
والجوز والكمثرى واللوز والمشمش ، وفي طرفه الشرقي من
الشمال بستان لابن عمي السيد عبد الرحمن الجندي ، فيه أربع

شجرات من الفستق ، ولا أعلم في المعرة من هذا الشجر غيرها ، وغير التي في دارنا إلى نهاية سنة ١٣١٩ هـ ، ثم كثر غرسه بعد ذلك .

وهذا الوادي أعظم متنزه يخصب للناس في عصرنا ، وماء ركاياه عذب ، وهواؤه طلق ، وأهل المعرة ولا سيما المتقدمين منهم كثيرو التغي بهذا الوادي ولحنين إليه ، وكان يقال له : وادي الجنان ، ثم اشتهر بوادي الخطيب ، والخطيب هذا هو السيد محمد الجندي ، لقب بالخطيب لأنه كان خطيباً بجامع المعرة الكبير ، كان له ولدان : إسماعيل ، ويحيى ، فاشترى يحيى بستانا في هذا الوادي يقال له : بستان الجنان ، وهو أعظم بستان في هذا الوادي ، ثم وقف منه ستة عشر قيراطاً على نفسه ، ومن سيولد له ، ثم على زوجته أسماء بنت قريبة السيد محمد الجندي ايضاً ، ثم من بعدها على أخته عائشة وبناتها سلم خان ، وعلى بنتي أخيه إسماعيل فاطمة وخديجة ، وعلى ذريتها طبقة بعد طبقة ، للذكر مثل حظ الانثيين ، ومات ، ولم يعقب ولداً ، وهذا بموجب هجة وقف صادرة من محكمة

حنص بتاريخ محرم سنة ١٢٠٦ هـ ، موقعة من النائب عبد الرحيم
والصورة بتوقيع عبد المجيد الرفاعي ، وفاطمة بنت اسماعيل
أم الشيخ أمين الجندي الحمصي الشاعر المشهور ، فتوارث الأقباب
ذلك إلى يومنا هذا ، وأنا وأخوتي منهم .

واشتهر البستان منذ ذلك الحين ببستان الخطيب ، ثم توسع
الناس فقالوا : للوادي كله وادي الخطيب .

ومن العجيب أنني رأيت حجة شرعية من محكمة المعرة في
المحرم سنة ٩٥١ هـ ، فيها أن الشريف المدعو الناصري ابن الحاج
محمد المعروف بابن ست العيش المعري ، وقف ثلاثة أرباع
البستان الخراب ، المعروف ببستان الجنان ، والأرض المعروفة
بأرض المجاهدية ، والركايا التي فيها ، ويحد البستان قبلة الهرماس
وشرقاً بيد أولاد الزعكل ، وشمالاً بيد ورثة المعلم فرج ،
وتمامه الجبل ، وغرباً أرض مزرعة يحيى ، وأرض المجاهدية
يحدّها قبلة طريق سالك ، وشرقاً بستان الزعكل ، وشمالاً
الهرماس ، وغرباً بيد ورثة محمد البرجي ، على تربة الشيخ
فارس ، وعلى نبي الله شيخ الكائن ذلك بظاهر المعرة جهة

الغرب ، وما تحتاج إليه من فرش وتווير وعمال ، وكذلك وقف البركة التي في بستان الجوزة ، والبركة التي في بستان المغيين ، وبذلك تم الوقف بموجب حجة من قاضي المعرة خليل بن عبد الله .

ورأيت حجة أخرى صادرة من قاضي المعرة عبد الرحمن ابن أبي الجود سنة ١٠٢٣ هـ ، خلاصتها : أن السيد احمد ابن جلال الدين المعري ادعى على درويش جلي بن نجم الدين بك المعري أن نصف الأرض المعروفة ببستان الجنان ، المحدودة قبلة الهرماس ، وشرقاً وغرباً وشمالاً ، كما تقدم الخ ... هي من وقف جده نجم الدين العجبل ، وشهد عبد اللطيف بن عبد المنعم و ابراهيم بن عبيد ، أنها كلها ملك نجم الدين بك ، فحكم بذلك القاضي المذكور ، والمتداعيان والشاهدان من أهل المعرة .

ورأيت حجة أخرى خلاصتها أن أمين بن خالد الجندي باع بالوكالة عن أمه فاطمة بنت اسماعيل الخطيب ، حصصاً من بستان الجنان ، إلى فاطمة بنت عبد الرزاق الجندي ، وهي

بنت خديجة بنت اسماعيل الخطيب ، والحجة من محكمة حماة في ١٥ رجب سنة ١٢١٩ هـ ، والقاضي عبد الوهاب الكيلالي أما البستان المذكور في عهدنا هذا ، فنه ثمانية قراريط لبني العظم ، والباقي ثلثه لآعقاب الشيخ أمين بن خالد الجندي الحمضي ، والثلث الآخر لآعقاب عبد الوهاب الجندي في المعرة ، وأنا واخوتي منهم كما تقدم .

وادي الحميا :

هو في شمالي المعرة ، والقلعة إلى الغرب ، يسيل فيه ماء الرزماس كما ذكرنا ، وامام الحميا عين آسية ، وهناك ركابا اتخذها الناس لسقي البساتين الكثيرة فيه .

والحميا عبارة عن ساحة فسيحة جداً ، لها باب من الشمال ، يقابل عين آسية ، وباب صغير يقابله من الجنوب ، وهذه الساحة منحدره من الجنوب إلى الشمال انحداراً كبيراً ، وعلى يمين الداخل من الباب الشمالي باب صغير ، في داخله شبه قبر مستطيل ، يزعمون أنه قبر شيث عليه السلام ، وفي قبليه إيوان في صدره باب صغير ، يخرج منه إلى الساحة الكبرى ،

وأمام الإيوان رَكِيتان ، يزعم الناس أن شيئاً كان حائكا ، وكان وقت الحياكة يضع رجله في هاتين الركيتين ، وقد يفيض ماؤه في زمن الريح فيجري على وجه الأرض . وفي جنوبي الإيوان الغربي ركبة في جدار الساحة الغربي ، فوقها حجارة ضخمة ، وأمام الركبة غرفة فيها ثلاثة قبور ، فوقها توابيت من خشب ، وبابها يتجه إلى الشرق ، وأمام هذه الغرفة غرفة فيها قبر الشيخ فارس ، وقد اكتشفت في عهدنا ، وقبل ذلك كان الناس يظنون أنها خالية ، وهذه الغرفة والتي قبلها في آخر الساحة من الجهة الغربية إلى الجنوب ، وعلى يمين الداخل من الباب الجنوبي إيوان يتجه للشمال ، وفي شرقيه غرفة متصلة به وفي شرقيها ساحة قبور مدرسة ، ودرج يصعد منه إلى سطح الغرفة والإيوان ، ثم يلي المقبرة من الشمال الشرقي غرفة بابها حجر واحد ، أسود قصير ، يتجه للغرب ، وفي داخلها أربعة قبور ، وبعضها له توابت من خشب كالتي . في الجهة الغربية ، والناس يزعمون أن هذه القبور السبعة أولاد يعقوب عليه السلام وفي وسط الساحة الكبرى ركبة مسدودة بحجارة عظيمة ، ويحيط

بالحميا من الشرق والغرب بساتين ، ومن الشمال مجرى الهرماس وعين آسية ، ومن الجنوب صخورات تحيط بها بساتين أيضاً .
والحميا أحد منتزهات المعرة المشهورة ، يؤمه الناس زرافات يقضون فيه سحابة يومهم في الأكل والشرب والمرح واللعب ، ومنهم من يبيت فيه .

والرجال يعملون فيه (السيبانة) ، وهي في عرفهم عبارة عن خروج إلى التنزه في مكان ، يقضون فيه يوماً كاملاً ، فيأكلون ويشربون ويلعبون كما ذكرنا .

وقد تخرج إليه النساء فيعملن فيه (الحناء) ، وهو في عرفهم عبارة عن خروج جماعة من النساء إلى متنزه ، يقضين فيه يومهن بين طعام وشراب وقصص ولهو وغناء وما شاكل ذلك .
وقد يكون ذلك نذرا من الرجال والنساء ، وأكثر ما يكون الحناء في الحميا ، وفي الشيخ حمدان ومقام أويس .

وسياتي أن الرجال تخرج في ليلة نصف شعبان إلى الحميا ، وهم يحجرون بالتوحيد ، حتى يصلوا إليه ، ويزوروا من فيه عن ذكرنا ، ثم يعودون كما أتوا بالتهليل والتوحيد .

فالتحيا مجمع للابتهاج والسرور ، والمرح واللهو ، والعبادة والنسك ، من الرجال والنساء ، ولا يبعد أن يكون سمي بالتحيا ، لأن الناس كانوا يجتمعون فيه ليلة النصف من شعبان ، فيحيونها فيه بالعبادة والذكر والتلاوة .

وباب شيث أحد أبواب المعرة السبعة ، ولم أجد ما يدل على أن باب المعرة المنسوب إلى شيث في هذا المكان ، ولا استبعد أن يكون شيث محرفاً عن سياث المتقدم ذكرها .
ومنها : وادي الرماحية .

ومنها : وادي النسيم ، وهو في الجهة الشرقية من المعرة ، ويمتد من شمالي المعرة الشرقي إلى جنوبيها الشرقي .
ومنها : وادي الضيف .

الرام :

قدمنا ما هو المراد بالرام في عرف المعرة ، وأن فيها الرام الكبير والصغير في جنوبها ، وأن الحكومة زدتها .

رام الزيت :

وفي غربي المعرة على بعد ثلثي ساعة تقريباً مستنقع كبير ،

يقال له : رام الزيت ، يجتمع فيه ماء المطر ، وبالقرب منه موضع يقال له : حَوَارَى الزيت ، وحولها ينابيع كثيرة ، وقد يفيض هذا الرّام ، حتى يتصل بماء حواري الزيت ، وربما سالا فاجتمعا بالهرماس ، عند تل منصور باشا ، جنوبي بستان الخطيب .

المرى التي في المعرة :

منها : تل منصور باشا ، وهو غربي المدينة في أخريات وادي الخطيب من الجنوب ويحيط به الهرماس من الغرب والشمال ، وبساتين الهرماس التي في الضفة القبليّة ، وهو عال ، واسع الأرجاء ، مغمور أكثره بأشجار العنب والتين والزيتون وغيرها ، والناس يزعمون أنه كان حصناً .

ومنّها : تل الفُجّل ، والناس يكسرون الفاء ، وهو شمالي المعرة على بعد ثلثي ساعة تقريباً ، ويزعم بعض الناس أنه كان معقلاً صغيراً .

تل البلس ، هكذا يلفظه الناس ، وهو شمالي المعرة إلى الغرب قليلاً ، وفي شرقي القلعة من الجنوب ، وهو أصغر من

تل الفجل . وفي شرقيه مقبرة ، وفي شماليه إلى الشرق مقبرة يقال لها مقبرة الساطعية ، يزعم الناس أن فيها قبر سليمان الجاموس باني قلعة المعرة ، وقد قدمنا أن الساطع هو النعمان أحد أجداد تنوخ ، الذي زعم ياقوت أن المعرة نسبت إليه ، وإن الساطع أيضاً ابن عبد الباقي بن المحسن ، من بني أبي حصين التنوخي المعري ، وقد كان من شعراء المعرة وأعيانها ، وقد مدح الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب سنة ٦١٢ هـ ، وكانت له عنده حظوة ، فلعل هذه المقبرة منسوبة إليه ، وكذلك الأرض التي يقال لها : الساطعية ، وقد ترجمه ابن العديم في بغية الطلب وستأتي ترجمته ، والأرض المذكورة هي اليوم ملك لابن شقيقتي فضل الله بن عبد الرحمن الجندي .

ومنها : تل بَنْصَرَة ، وهو في جنوبي المعرة على بعد ساعة منها ، قريب من المكان المسمى بجدار الخضر ، وينحرف عنه قليلاً إلى الشرق .

وفي أسفله الغربي رَكِيَّة ماء يقال لها : عين السوداء ، وماؤها غير مستعذب ، وفي أسفله من الغرب أيضاً مغاور في الصخر وشكله بيضوي ، وامتداده من الغرب إلى الشرق .

وبعض الناس يوعم أنه كان قلعة أو حصناً للمعرة ، وآخر
يوعم أنه كان باباً من أبواب المعرة السبعة ، يقال له : باب
النصر ، وفريق يزعم أن فيه كنزاً ، وحقيقته لا تزال سرّاً
غامضاً لم تكشفه الأيام ، وما ذكر كله مزاعم قائمة على الظن ،
وأقرب شيء منها إلى الصواب أن يكون حصناً أو معقلأ
صغيراً ، ولكن ليس في آثاره الظاهرة ما يؤيد شيئاً مما ذكر .
وهو الآن مكتظ بشجر التين والعنب ، المتصل بالمعرة
من الجنوب والشرق .
ومنها : تل الزعتر .
ومنها : تل الزيتون .

الجبال :

لا يحيط بالمعرة جبال شاهقة ، وإنما يتصل بها من الغرب
جبل يقال له : جبل عَطَّال ، وهو في شمالي وادي الخطيب
إلى الغرب ، ومعنى عَطَّال في عرفهم أنه خال من الغرس
والزرع ، ويتصل به من الشمال الغربي ، شمالي الحَمِيّا ، وعين
آسية ، الجبل المتصل بجبل بني عُليم .

القباب :

اشتهر في المعرة بعض الأماكن بقبة كذا ، والظاهر أن تلك المواضع كانت فيها قباب ، ثم قوضتها الأيام ، ولم تبقى إلا أسماءها :

منها قبة الحجّي ، وهي الآن تل صغير في جنوبي المعرة إلى الغرب على بعد كيلو متر تقريباً ، والناس يزعمون أن هذا التل كان فوقه قبة يجلس الناس فيها ، لتوديع الحجاج واستقبالهم ، وبعد خراب القبة ظل الناس يجلسون فوق التل وحوله لاستقبال الحجاج إلى عهدنا هذا أي سنة ١٣١٩ هـ ، وأثارها الضئيلة القليلة المبعثرة ، تدل على أنها كانت معقودة بالقرميد .

وهي الآن مغروسة بشجر التين ، وموقعها جيد ، مشرف على سهول فسيحة ، فيها كثير من الكروم والبساتين ، وعلى أكثر المعرة .

وقد كان الطريق الممتد بين حماة والمعرة يمر من شرقيها ، ثم افتتحت الحكومة طريقاً آخر شرقي هذا ، يمر بشرقي المعرة ، كما قدمنا ذلك .

وسياتي في ترجمة أبي المجد محمد أخى أبي العلاء ، أنه لما عاد إلى المعرة بعد أن فتكت الفرنجة بأهلها ، دخل إلى داره بباب حنّاك ، وتعرب بدار القبة ، وهذا الموقع يشبه أن يكون قبة الحجى ، وعلى مقربة منها .

وكان في جنوبي المعرة على بعد خمس دقائق تقريباً قبة يقال لها : قبة الشقراء ، وهي شرقي قبة الحجى على مسافة ثلاثمائة متر تقريباً ، ويزعم الناس أنها كانت بالقرب من مطبخ لبني العجمي ، ولكن الآن ليس هناك أثر للقبة ولا للمطبخ ، وفي محلها الآن شجرتان ، وقد غرس فيه من عهد قريب شجر فستق وغيره .

ومنها : قبة السيد الوردى ، والناس يقولون : قبة السلاوردى وهي مدرسة ابن الوردى ، وقد سبق ذكرها .

ومنها : قبة موسى بك ، وهي قبة كان بناها موسى بك العظم في مقبرة بني العظم ، غربي المدينة ، بالقرب من مقبرة بني الجندي ، وقد تهدمت ، وباع أنقاضها ، جل من بني العظم .

أسماء المحلات في المعرة :

تقسم المعرة إلى محلات ، ويقال لها : حارات ، وقد ألفوا تقسيمها إلى قسمين كبيرين : الأول المحلة الشمالية ، والثاني المحلة القبليّة ، وتقسم إلى أربع محلات : الشمالية ، والقبليّة ، والشرقية ، والغربية ، وقد تلحق الشرقية بالشمالية ، والغربية بالقبليّة ، وهناك في محلة حارات صغيرة ، والصريق الحديث الذي سمي شارع أبي العلاء ، يقسم المدينة إلى قسم شمالي ، وقسم جنوبي ، والمشهور من المحلات الآن في المحلة الشمالية .

المشهور من المحلات في الحارة القبليّة :

حارة الكنيسة في المحلة القبليّة الغربية ، وفيها جدار ضخيم مائل إلى الآن ، من بناء الرومانيين ، يشبه جدران الكنائس في ذلك العهد .

وقد ذكرها أبو العلاء في رسالة الغفران ^(١) ، حيث قال :
وحدثت أن أبا الطيب أيام كان أقطاعه بصف ^(٢) ، رؤي يصلي بموضع بمعرة النعمان ، يقال له : كنيسة الاعراب ، وأنه

(١) أبو العلاء : رسالة الغفران ١٣٥ (ج) .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٣ : ٤٠١ : صف ضيعة بالمعرة كانت أقطاعاً للعتني من سيف الدولة ، ومنها هرب إلى دمشق ، ومنها إلى مصر .

صلى ركعتين ، وذلك في وقت العصر ، فيجوز أن يكون رأى
أنه على سفر ، وإن القصر له جائز .

والذي أعتقده أنه كانت في هذه الحارة كنيسة عظيمة ، ثم
خربت بسبب الزلازل أو غيرها ، فأخذ الناس حجارتها ،
وجعلوها في دورهم وعماراتهم ، كما فعلوا في غيرها ، ولم يبق
إلا بعض الجدار المذكور .

الاماكن المشهورة في المعرة :

بحا

التورة

الحمامات

عش الشوحا

السبع قلود : هكذا يلفظها الناس بالدال ، وأهل الصواب
بالتاء جمع قَلْتُ ، وهو نقرة في الجبل ، يستنقع فيها الماء فيكون
صافياً ، وهي تقع في غربي المعرة من الشمال في جبل ، حولها
دائرة من الصخر ، وفي شمالها الغربي النواويس ، وتبعد عن
المعرة نحو ثلاثة أرباع الساعة .

النواويس : والعامة تقول : النواغيص جمع ناووس ، وهو شبه غرفة ، فيها قبر قديم أو أكثر ، وهي في جنوبي المنيا ، أي غربي المعرة من الشمال ، وتبعد عنها أقل من نصف ساعة ، وقد وجد منها في شرقي المعرة أيضاً .

والناس مولعون بالبحث عن النواويس ، لأنهم يجدون في بعضها أنواعاً من الحلي الذهبي ، أو الفضي ، ويجدون رسوماً وتمائيل من حجارة أو فخار ، ونحو ذلك من العاديات ، ولكنهم لا يعلمون تاريخ شيء منها ، ولا يستطيعون قراءة شيء مما هو مكتوب عليها ، أو في المكان التي وجدت فيه ، ولذلك يبيعونها بثمان بنخس ، فيشتريها علماء الآثار وتجارها في الدول الراقية بثمان بنخس .

البروج التي كانت في المعرة :

برج بني الحجال : تقدم ذكره في حوادث سنة ٤٤٠ هـ .
برج وحيدة : ذكر في حوادث سنة ٤٤٠ هـ .

المحصنة التي كانت في المعرة وضواحيها :

حصن الكفير ، وهو في الجهة الشمالية من المعرة ، على بعد

ساعة تقريباً منها ، فيه أشجار كثيرة من الزيتون والتين والكرم وغيرها ، وفيه آثار أبنية عظيمة ، وقد أخبرني رجل من أهل المعرة أنه رأى الحجارين يكسرون من حجارة تلك الأبنية ، وينقلونها إلى المعرة لينبوا بها .

وقد ذكره في شعره أبو البسر شاكر بن عبد الله في قصيدة مذكورة في ترجمته ، منها قوله :

واذا الكفير رقيته اجزاك عن ظهر البراق

والآيات تدل على أنه مكان كثير الظل والشجر والشمر ، عذب الماء ، طيب الهواء ، وقد ذكر ابن الوردي في حوادث سنة ٢٠٨ هـ أن عبد الله بن طاهر وزير المأمون خرب حصن الكفر ، في جملة ما خربه من حصون المعرة ، كما تقدم .
حصن أرواح : خربه لؤلؤ السيفي المتغلب على حلب ، بعد أبي الفضائل سعد الدولة بن سيف الدولة سنة ٣٩٣ هـ .
حصن أسفونا : مذكور في حوادث سنة ٤٦١ و سنة ٤٩٥ هـ
حصن حنّاك : خربه عبد الله بن طاهر سنة ٢٠٩ هـ
كما سيأتي .

حصن البارة المذكور في حوادث سنة ٤٩١ و سنة ٤٩٦
و سنة ٥١٣ و سنة ٥١٤ هـ .

حصن كَفَر رُوما : خربه لؤلؤ سنة ٣٩٣ هـ كما سيأتي .
حصن عار خربه لؤلؤ السيفي مع حصن ارواح وكفر روما
سنة ٣٩٣ هـ .

وفي سنة ٦٥٨ هـ قدم التتر على المعرة ، وخرّبوا قلعتها
وأسوارها ، قال ابن الوردي^(١) : أخبرني والدي أنه رأى شحنة
التتر على قلعة المعرة ، وقد سخر العوام في تخريب سورها .
وقد ذكرنا أياتاً لبعض المعريين ، يصرح فيها بهذه الحادثة
حيث يقول :

وفقا عليها قلعة منيعة يهدمها من هو من خربها
فغاية المفرط . في سلمها كغاية المفرط في حربها
تحثنا في هدمها أعجم ونحن مكرويون من كربها
تبخل أيدينا بأرواحنا وتشتكي منا إلى ربها
فهذه الأرواح من جوتها وهذه الأجسام من تربها

(١) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ .

لما رأوها أسرفت في العلى كان علاها منتهى ذنبها^(١)
وأشرنا إلى أن ما زعمه بعض المتأخرين ، من أن القلعة
كانت قبل الاسلام ، أو هي من بناء الصليبيين ، أو أنها من
بناء الملك الظاهر ، ونحو ذلك من المزاعم ، كله قائم على
الوهم والباطل .

والذي يفهم من كلام ابن الوردي^(٢) وغيره ، أن بناءها
قد تم سنة ٦٣١ هـ ، وأنها هدمت سنة ٦٥٨ هـ ، فتكون مدة
بقائها عامرة بنحو سبع وعشرين سنة .

وسمعت من كثير من شيوخ المعرة أن حجارة القلعة اخذت
منها ، وعمر بها خان أسعد باشا المقابل لخان مراد جلي في
مدخل المعرة من الشرق ، وقد كان بناء هذا الخان سنة ١١٦٦ هـ .

قلعة المعرة :

رأيت بعض المؤرخين والأدباء والعلماء في هذا العصر والذي
قبله ، كتبوا في قلعة المعرة شيئاً كثيراً ، وأكثرهم لم يسلم من
الخطأ فيما كتب ، فأجبت أن ألخص ما عرفته من أخبار هذه

(١) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ ، ١٦٠ .

القلعة ، وما نقلته عن الثقات والمحققين ليتبين الخطأ والصواب بما كتب فيها .

في سنة ٦٢٦ هـ صارت المعرة للملك المظفر محمود بن المنصور صاحب حماة . وقد استلم أمور حماة وتدير شؤونها من قبله سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني ، فأشار عليه ببناء قلعة المعرة ، فشرع في بنائها ، وقد تم بناؤها سنة ٦٣١ هـ وشحنها بالسلاح والرجال ، ونزلها في هذه السنة ، وكان بناؤها سبباً لخراب المعرة وخرابها معها ، لأن الحليين حاصروا القلعة المذكورة سنة ٦٣٥ هـ بعد وفاة الملك الكامل صاحب دمشق ، وكان مقدمهم المعظم توران شاه بن صلاح الدين ، ثم أخذوها ، وخربت المعرة بسببها ، وملكوها أيضاً .

وذكر المقرئزي^(١) في كتاب السلوك أن أهل حلب استنجدوا عسكرياً من الخوارزمية ، واستنجدوا كينخسرو بن كيقباز ملك الروم ، فأمدهم بخيار عسكره ، فملكوا المعرة في السنة

..
(١) المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الأول القسم الثاني ص ٢٦٩ .

المذكورة أي سنة ٦٣٥ هـ ، وفي سنة ٦٣٨ هـ نهبتها الخوارزمية
بعد ما خربوا حلب .

وتقع قلعة المعرة في شمالي المعرة في الشمال الشرقي ، من
وادي الخطيب ، أو وادي الجنان ، أو حيث ينعطف الهرماس
إلى الشمال ، فالغرب ، وفيها بقية بيوت تشبه بيوت القرى ،
ولا تزال آثار الردم والهدم ظاهرة ، خلال المساكن ، وحولها
يسكن فيها جماعة من الفلاحين من أهل المعرة .

وحول القلعة خندق كان باطنه مفروشاً بالبلاط ، ثم اقتلعه
السكان ، وزرعوا مكانه تيناً ورمناً وعنباً وغير ذلك .

وبعد سنة ١٣٧٠ هـ كان أحد الفلاحين يحرق بقعة من
الخندق ، فاصطدمت سكة الحراث بحجر ، وأراد الفلاح أن
يزيلها من طريق السكة ، فما استطاع ، فحاول اقتلاعها ،
فانحسرت عن فجوة ، فكشف ما حولها ، فتبين له جدار مسجد
تحت القلعة ، وعليه كتابة بالحروف العربية ، وبحروف أعجمية .
وقد فهم من قراءة بعض الحروف العربية على الحجر الأول
الأمير عبد القادر الخديجة الجاموس السليمانى سنة ٣٥٠ هـ ،

ولم يستطع قراءة ما على الحجر الثاني والثالث ، لأن حروفها
غير عربية ، وفهمت أن دار الآثار تريد تحقيق هذا البناء ،
ولا شك أن البحث سوف يرشد إلى آثار لها شأن عظيم في
تاريخ المعرة ، وقلعتها ، وتلاها ، ومقابرها .

لأننا ذكرنا فيما سبق أن في شمالي المعرة ، وفي شرقي
القلعة من الجنوب تلاك يقال له : تل البلس ، وفي شماليه إلى
الشرق مقبرة يقال لها : الساطعية ، وإن الناس يزعمون أن
فيها قبر سليمان الجاموس باني قلعة المعرة ، وأهل المعرة يروي
المتأخر منهم عن المتقدم أحاديث تدل على شجاعة سليمان
الجاموس ، وقد كنت أظن أنه رجل لا حقيقة له ، وبعد العثور
على اسمه في جدار الجامع الذي ظهر تحت القلعة تبين لي أنه
رجل عظيم .

وصرت أظن أن القلعة التي بنيت ، وهدمها الحليون
والخوارجية ، قائمة على أنقاض جامع أو معبد قديم ، ويجوز
أن يكون بني بعد خراب القلعة ، وجعل تحتها ليكون بمنزلة
قلعة صغيرة .

وهذا نص الكلمات المكتوبة فوق باب المسجد الغربي :
بناء بعد أن كان كنيسة الأمير عبد القادر الخديجة الجاموس
السليمان سنة ٣٥٠ هجرية .

وفوق باب حقير لفرقة تتجه نحو الجنوب مكتوب بالأحرف
اللاتينية ثلاثة أسطر وهذه هي :

ΠΟΥΦΙΝΟΣΚΑΙΕΝΕΚΙΩΙΣΠ
ΡΙΣΚΟΣ, ΠΟΥΦΙΝΟΣ.

ΠΕΝΤΑΡΩΤΟΙΤΗΕΒΙΝ
ΔΤΟΥΖΛΥΕΤΟΥΣ.

ΕΚΤΙΣΑΝΤΩΚΕΙΝΩ
ΤΗΕΚΩΜΗΕ.

سورة المفرة :

قال ياقوت في (معجم الأدباء) ^(١) : وفي جانب سورها
قبل البلد ^(٢) قبر يُوشع بن نون عليه السلام في بركة فيما قيل ...

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٤ .

(٢) هكذا في ياقوت ، ولعله من قبلي البلد ، لأنه واقع في الجهة القبلية

من البلد (ج) .

وقد تقدم عن ابن الشَّحْنَة أن الطلسم قريب من السور .
وسَيَاتِي أن عبد الله بن طاهر هدم سور المعرة سنة ٢٠٧ .
أو سنة ٢٠٨ هـ .

وكلام صاحب الروض المعطار يدل على أن قبر يوشع
داخل المدينة ، وذكروا أن صالح بن مِرْدَاس حاصر المعرة ،
ورماها بالمناجيق ، وخرج من باب من أبوابها أبو العلاء .
وسَيَاتِي بأن سيف الدولة مُقْلَد بن كامل المِرْدَاسي كتب
إلى واليه أن يخرب سور المعرة ويهدمه ، وإن أمير المعرة أبا الماضي
أتم بناء السور سنة ٤٥٥ هـ في سنة واحدة ، وأن الصليبيين
قاتلوا أهل المعرة على السور ، بعد ما عملوا برجاً يوازيه ،
ثم هدموا السور والبروج .

وفي سنة ٥٢٩ هـ خرب عماد الدين زَنْكِي سور المعرة .
وفي سنة ٦٥٨ هـ خرب التتر قلعة المعرة وأسوارها .
ولكن الأيام لم تدع لهذا السور عيناً ولا أثراً ، لنعلم منه
موقع المدينة وحدودها على وجه صحيح .

المقابر والجبانات :

إذا مر الإنسان بطرف المعرة من الشمال أو الجنوب أو الغرب هاله ما يراه فيها من كثرة القبور القديمة والحديثة ، ونذكر قول أبي العلاء : خفف الوطء ما اظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد . وتكاد هذه القبور المنتشرة في بقاع فسيحة ، تكون أكبر من المدينة نفسها ، ولعل السبب في كثرة القبور هو أن أهل المعرة لا يدفنون ميتاً على بقايا دفين آخر ، وإنما يتخذون لكل ميت قبراً يستقل به ، وذلك لأن أرض المقابر موقوفة على الغالب ، لا يدفع أهل الميت ثمنها ، ومن أراد منهم احداث مقبرة يختص بها هو وأسرته اشترى أرضاً ، وجعلها مقبرة ، وأجر الحفر والدفن قليل بالنسبة إلى بقية الأمصار الشامية كدمشق وحلب وغيرهما .

وقد اتخذت كل أسرة مقبرة ، يستقل بالدفن فيها أبناؤها ويسمونها جبانة وتربة ، فيقال مثلاً : جبانة بني الجندي ، جبانة بني العظم وهكذا .

وعادتهم في صنع القبور في هذا العهد ، أن يقيموا حجرين

طويلين ، أحدهما عند الرأس ، وهذا يكتبون عليه اسم الميت ونسبه وتاريخ وفاته ، وربما نقشوا عليه أياتاً من الشعر ، تشتمل على ذلك ويسمونه شاهدة ومصيبة ، والثاني عند الرجلين وأعلى كل واحد منها محفور منقوش على صورة تخالف الأخرى ، ويتميز العلماء من غيرهم ، بأن يكون في رأس الشاهدة شكل كروي تقريباً ، مخطط بخطوط منحنية ، يمثل عمامة العالم . وللمتقدمين أنماط مختلفة في القبور ، يستطيع الباحث المدقق أن يعرف القبر في أي عصر بني .

فن المقابر ، أو الجبانات المشهورة : المقبرة الغربية ، وفيها مقابر لأسر مشهورة في المعرة ، منها : مقبرة بني الجندي ، وهي غربي المدينة من الشمال ، ينحدر من غربها إلى وادي الخطيب أو وادي الجنان ، وفي شمالها مصلى مفروش بالبلاط ، على رابية تشرف على الوادي المذكور ، يقال له : مصلى بني الجندي ، وفي شرقي هذه المقبرة دار قديمة فخمة ، يقال لها : دار بني الجندي ، ولها باب عظيم مبني بحجارة كبيرة ، شاق يتجه إلى الشمال ، وليس في شماليه بناء قائم في عهدنا ، وفي هذه الدار قبة عظيمة مبنية كلها بحجارة عظيمة .

وقد افتتحت الحكومة في العهد الأخير ، طريقاً يذهب من
المعرة إلى أريحا ، فيمر شرقي هذه المقبرة ، وقد أخذ منها
قسم ، وضم إلى الطريق .

وبجوار هذه المقبرة إلى الجنوب مقبرة بني العظم ، وكان
فيها قبة موسى بك ، ثم تهدمت كما ذكرنا .

وفي هذه المقبرة من الجنوب قبور يقال لها : قبور بنات النعمان .

وفي جنوبها أيضاً قبور يقال لها : قبور شطي ، وهي غربي

المعرة ، الجنوب .

المقبرة الشمالية^(١) ، وفيها أيضاً مقابر كثيرة ، منها : مقبرة

الساطعية ، شرقي بيدر الجعابصة إلى الشمال ، وفيها قبور كثيرة

اندرست ، وذهبت حجارتها ، ولم يبق إلا قبور قليلة .

المقبرة القبالية ، وفيها أيضاً مقابر كثيرة ، منها : مقبرة بني

الشحنة ، وهي في جنوبي المعرة ، شرقي زاوية بني الكيال ، وفي

هذه المقبرة قبور لبني الحراكي .

ومنها : مقبرة بني السيد يوسف ، وهي في جنوبي المعرة

(١) فيها قبور قديمة وأخرى حديثة .

من الشرق ، ولما افتتحت الحكومة الطريق الجديد ، الذي يصل ما بين حماة وحلب ، جعلته يمر على هذه المقبرة ، فاندرست بذلك قبور كثيرة منه ، ومنعت تلك الأسرة من الدفن فيها . ومنها مقبرة بني الحراكبي ، وهي مقابل قُبَّة الحُجَّيِّ تقريباً ، ويفصل بينها الطريق القديم ، الذي كان يذهب منه إلى حماة . ويزعم الناس أن قبر النُّعْمان بن بشير بالقرب من الحواري القبليَّة ، ولعل هناك كان قبر ابن النعمان ، الذي افترسه السبع وبنيت المعرة من أجله كما تقدم ، ولما فتح الطريق الجديد الآخذ إلى حماة ، عثروا على قبور كثيرة لبني العجيل ، كلها مردومة ، ويظهر أنها كثيرة ، وأن أصحابها كانوا موسرين . ومنها : المقبرة الشرقية ، وهي في شمالي الشيخ حمدان وشرقيه ، وهي مقبرة عظيمة قديمة وحديثة ، وقد أصبح بنو الجندي يدفنون موتاهم في هذه المقبرة ، بعدما منعتهم الحكومة من دفنهم في مقبرتهم الغربية السابق ذكرها .

المزارات :

أهل هذه المدينة أذكاء ، وأولو فطنة ونباهة ، ولكن يغلب

على العامة منهم ، وفريق من الخاصة ، سلامة الطوية ، وطهارة
الضمير ، ونقاء القلب ، وابتعادهم عن العلم الذي يثقف العقول ،
ويكشف عن البصائر ، وينير لها السبيل ، جعل حظهم من
سلامة الصدر وافرأ ، إلى حد يخيل للمدقق في أطوارهم وشؤونهم
أنهم أولو غفلة وعي .

ولذلك تجد بضاعة الشعوذة رائجة عندهم ، والاتجار
بالدين أربح بضاعة في أسواق الخاصة والعامة ، ومن استعصى
على كل قوة ، وتمرد على كل سلطان منهم ، متى ذكرت
له الدين وما يتصل بالدين ، أسلس لك القياد ، وكان
أطوع لك من ظلك ، هذا شأن من أدركناه من شيوخهم
وكهولهم وشبانهم إلى سنة ١٣١٩ هـ وقد غشت أهلها في الأزمنة
المتأخرة ، ظلمات بعضها فوق بعض ، من الجهل والعسف
والإرهاق ، فأصبحوا كأنما عادت إليهم جاهليتهم الأولى ،
وفقد فيهم المرشد والهادي إلى الدين الصحيح ، وفشت فيهم
الطرق والدعوة إليها ، وصاروا يعتقدون في بعض الرجال ما لا
يعتقدون مثله في الأنبياء ، ويفترون لهم من الكرامات ما لا يسوغ

الشرع والعقل صدور مثله عن مثلهم .
ولعل هذا الداء قديم فيهم فان ابا العلاء يشير إلى مثل
ذلك بقوله :

إذا كان التقى بلها وعيا فأعيار المذلة أتقياء
وخلاصة القول : ان المعريين كثيرو الاعتقاد بالصلحين ،
وان الصالحين عندهم من المتقدمين كثيرون ، وسيأتي في العادات
والمعتقدات طريقتهم في النذور والزيارات ، ومن أعجب العجب
أن مدينة تنتج مثل أبي العلاء الذي كان يحكم العقل في كل
شيء ، فيرتضي ما ارتضاه العقل ويأبى ما أباه ، ثم يأتي من
بعده خلف ينقاد بالأحاديث الملفقة ، ويستسلم إلى الشَّعْبَذَةِ
والترُّهات .

مقامات الانبياء :

١ — مقام نبي الله ﷺ (ص) وقد سبق القول فيه في
الكلام على النجيا .

٢ — أولاد يعقوب السبعة (ص) وقد سبق القول فيه في
الكلام عن مسجده .

٣ — نبي الله يُوشع (ص) .

٤ — الخضر (ص) ، ومقامه في مكان يقال له : جدار

الخضر ، وهذا المكان يقع في جنوبي المعرة على بعد ساعة منها
وفيه آثار قديمة ، فيها بعض الرسوم ، وآبار ، ومغاور في
الصخر ، وركبة مطوية بالحجارة ، عمقها نحو من عشرين متراً ،
ماؤها عذب، وركبة أخرى ماؤها مِلْح ، وفيه نواويس كثيرة، كانت
طافحة بالآثار ، فاستخرجها الجاهلون بها ، وباعوها بثمان بخس ،
وفيه مغارة لها قَوْس عظيم من الحجر ، تحته جدار عظيم ، فيه باب
من الحجر الأسود ، وفيه عدد كثير من مثل هذا الباب . والناس
يزعمون أن هذه المغارة مقام الخضر ، لأن فيها رسم قبر
اسلامي ، والعامّة يندرون له البرغل المطبوخ بالدردار ، وهو
نوع من النبات عندهم ، ويسمى ذلك الطعام المغمومة ، وكذلك
كل برغل طبخ بنبات ، ومنهم من يذبح الخرفان ، وهذا النذر
يسمى الحناء أيضاً ، ولا يكون إلا في زمن الربيع ، فتخرج
النساء إليه ويقضين يومهن في القصف واللهو ، ثم يأكلن المغمومة ،
ويعدن من حيث أتين ، فيجمعن بين القربى والنزهة ، لأن

هذا المكان محاط بشجر العنب والتين والزيتون والرمان، وهو
فسيح أفيح ، واسع الأرجاء ، عذب الماء ، طيب الهواء .

الصحابة والتابعون :

قبر عبد الله بن عمار بن ياسر الصحابي .

قال ياقوت ^(١) في (معجم البلدان) : وبالمعرة قبر عبد الله
ابن عمار بن ياسر الصحابي ، ذكر ذلك البلاذري في فتوح
البلدان له .

وقال ابن العديم : في بغية الطلب ، وذكر صاحبنا ياقوت
ابن عبد الله في كتابه ، وقال : بمعرة النعمان قبر محمد بن
عمار بن ياسر .

ولم نقف على ما ذكره ياقوت في كتاب البلاذري ، ولا وقفنا
على ولد لعمار اسمه عبد الله ، ولا على ولد لعبد الله المذكور
اسمه محمد ، فلعل في هذا الاسم تحريفاً ، أو جذفاً لبعض الآباء
وكذلك لم نقف على أثر لهذا القبر .

وأظن أن هذا القبر لو كان حقيقة ، لما طمست معالمه ،

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥

ولا اندرس أثره ، لأن المعريين يعنون بقبر الصالحين ، فكيف بالصحابة ، أو التابعين ، أو أحد من بينهم .
أُوَيْسُ الْقَرْنِي ، أو السلطان ويس : تقدم الكلام فيه في مسجد أويس أو مقامه .

الصالحون :

الشيخ عطاء الله : وهو في المسجد المنسوب إليه ، وهذا يغلقون على شبابه خروفاً من ثياب المريض ، ويندرون له زيتاً ليوقد عند ضريحه ، ولم أوفق لمعرفة هذا الرجل ، وبعض الناس يعتقد أنه عطاء الله ابن أبي رباح ، وقد بينا بطلان ذلك .
ومنهم الشيخ محمد الرشيد : ويقال له ، الشيخ المعاليقي وهو في المسجد المنسوب إليه المتقدم ذكره ، وهذا يندرون له (مِعْلَاقاً) ، يجتمع النساء عنده إذا برىء المريض أو حضر الغائب ، ويشتوين مِعْلَاقاً ويأكلنه (والمِعْلَاق هو جزء من الحيوان يشتمل على الكبد والرئة والقلب والمريء ، وما عليها من شحم ، وهو يرادف السَّخَر في قول ، فقد قال بعضهم : السحر كل ما تعلق بالخلق من قلب وكبد ورئة) .

الشيخ دبس ، وهو واقع في الطريق الممتد ما بين مقام
الشيخ حمدان ، ومدرسة ابن الوردي ، وهو عبارة عن بقعة
صغيرة ، مسورة بجدر متهدمة ، ينذر له الناس خبزاً ودبساً
وربما كان عنده مسجد فتداعى .
الشيخ محمد الهبولي ، وهو في مسجد البولي ، ولم أقف
على ترجمته ، ولا ترجمة من قبله .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الصفحة
كلمة المحقق	٦٢ - ٦٣
ترجمة المؤلف بقلمه	٦٣ - ٦٥
١ - ١٦ مقدمة المؤلف	٦٥ - ٦٧
١٧ - ١٠ معرة النعمان	٦٧ - ٦٨
١٧ - ٢٤ معنى المعرة اللغوي والعرفي	٦٨ - ١٠
٢٤ - ٣٥ النعمان الذي أضيفت اليه المعرة	٦٨ - ٧٠
٣٦ - ١٠ إضافتها إلى حمص	٧٠ - ٧٤
٣٧ - ١٠ إضافتها إلى حلب	٧٤ - ٧٧
٣٧ - ٣٨ تسميتها بذات القصور	٧٧ - ٩٥
٣٨ - ٤١ المعرة من العواصم	٩٥ - ٧٧
٤٢ - ٤٣ النسبة اليها	٧٧ - ٩٥
٤٣ - ٤٥ الخلاصة	٩٥ - ٩٦
٤٦ - ٥٦ ذكر المعرة في شعر أبنائها وفي نثرهم	٩٦ - ١٠٠
٥٧ - ١٠ المعرة في القديم :	١٠٠ - ١٠١
٥٨ - ٥٩ المعرة أو سورية قبل الطوفان	١٠١ - ١٠٤
٥٩ - ١٠ بعد الطوفان	١٠٤ - ٢٣٨
٦٠ - ٦٢ استيلاء الكنعانيين على سورية	٢٣٨ - ١٠٤
ودخولهم اليها	١٠٤ - ٢٣٨
استيلاء بني اسرائيل على سورية	٢٣٨ - ١٠٤
استيلاء الآشوريين على سورية	١٠٤ - ٢٣٨
تقاليد الحثيين وعاداتهم وعباداتهم	٢٣٨ - ١٠٤
استيلاء اليونان على سورية	١٠٤ - ٢٣٨
استيلاء الرومانيين على سورية	٢٣٨ - ١٠٤
عادات الرومانيين	١٠٤ - ٢٣٨
المعرة قبل الاسلام	٢٣٨ - ١٠٤
المعرة بعد الاسلام	١٠٤ - ٢٣٨
وصف المعرة وتحديد مداها منذ	٢٣٨ - ١٠٤
الفتح الاسلامي إلى هذا العصر	١٠٤ - ٢٣٨
طول المعرة وعرضها	٢٣٨ - ١٠٤
أبواب المدينة	١٠٤ - ٢٣٨
قلعة المعرة	٢٣٨ - ١٠٤
المعرة مركز للبريد والحمام الزاجل	١٠٤ - ٢٣٨
ماتعاقب على المعرة من الحوادث	٢٣٨ - ١٠٤
وما حدث فيها الى عهد جلاء	١٠٤ - ٢٣٨
الترك عنها	٢٣٨ - ١٠٤

الصفحة	الصفحة
الطرق المارة بها ٣١١ - ٣١٣	المعرة بعد جلاء الترك ٢٣٩ - ٠٠٠
فتح شارع أبي العلاء ٣١٣ - ٣١٤	كيف ترك الترك المعرة ٢٣٩ - ٢٤٦
عدد نفوس المدينة وما ألحق بها ٣١٤ - ٣١٥	حالة اللغة في هذا العهد ٢٤٧ - ٢٥٥
حكومة المعرة ومقرها ٣١٥ - ٣١٦	الحياة الدينية ٢٥٥ - ٢٥٩
ماء المدينة ٣١٧ - ٣٢١	الطرق الصوفية ٢٥٩ - ٢٦٠
المكاتب والمدارس في المعرة ٣٢٢ - ٣٢٨	كيفية الذكر عند الرفاعيين ٢٦٠ - ٢٦٥
الزوايا ٣٢٨ - ٣٣٠	الحياة الاجتماعية ٢٦٥ - ٢٨٢
المساجد ٣٣٠ - ٣٧٦	طريقة العثمانيين في أخذ ٢٨٤ - ٢٨٥
كيفية بناء ضريح ٣٧٦ - ٣٧٩	الخراج والضرائب
أبي العلاء الجديد	خصائص المعريين ٢٨٦ - ٢٩٥
المهرجان الألفي لأبي العلاء ٣٨٠ - ٣٩٣	الكلام في المعرة بعد الحرب ٢٩٥ - ٢٩٨
الخانات ٣٩٤ - ٤٠١	العامة الأولى
الحمامات ٤٠٢ - ٤٠٥	سورية والفرنسيون ٢٩٩ - ٣٠٨
المقاهي ٤٠٥ - ٤٠٦	صفة المعرة ٣٠٩ - ٣١٠
الأسواق والدكاكين ٤٠٦ - ٤٠٨	طولها وعرضها ٣١١ - ٠٠٠
الدور والمساكن ٤٠٨ - ٤١٣	ارتفاعها عن سطح البحر ٣١١ - ٠٠٠
المعاصر ٤١٦ - ٠٠٠	

الصفحة	الصفحة
٤٤٣ - ٠٠٠ البروج التي كانت في المعرة	٤٢٨ - ٤١٧ المياه التي هي خارج المدينة
٤٤٣ - ٤٤٦ الحصون التي كانت في المعرة	٤٣٦ - ٤٢٨ الأودية
وضواحيها	٤٣٦ - ٤٣٨ التلال التي في المعرة
٤٤٦ - ٤٥٠ قلعة المعرة	٤٣٨ - ٠٠٠ الجبال
٤٥٠ - ٤٥١ سور المعرة	٤٣٩ - ٤٤٠ القباب
٤٥٢ - ٤٥٧ المقابر والجبانات	٤٤١ - ٠٠٠ أسماء المحلات في المعرة
٤٥٧ - ٤٥٩ مقامات الأنبياء	٤٤١ - ٤٤٢ المشهور من المحلات في
٤٥٩ - ٤٦٠ الصحابة والتابعون	الحارة القبلية
٤٦٠ - ٤٦١ الصالحون	٤٤٢ - ٤٤٣ الأماكن المشهورة في المعرة